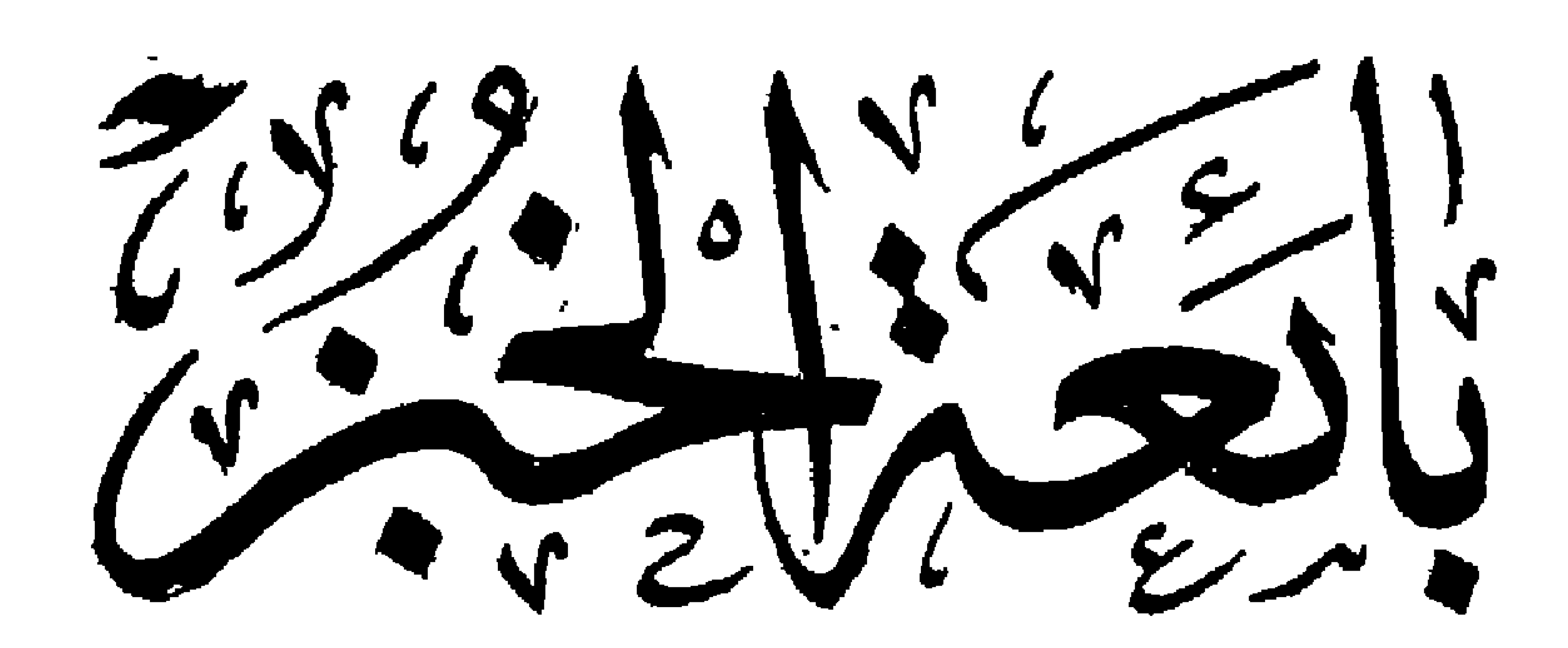

كزافيه دي مونتابين
بائعة
الخبز
ترجمة
طانيوس
Bibliotheca Alexandrina
0156805
C.E. RENA
10111181

بائعة الخبز

كزافيه دي مونتابين



الجزء الأول

تعريب

طانيوس عبده

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٣٧

القسم الاول

بائعة الخبز

– ١ –

في الساعة الثالثة من مساء اليوم الذي تبدأ فيه هذه الحكاية ، اي في اليوم الثالث من شهر سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٦١ ، كانت امرأة تسير في الطريق المؤدية من بيت الفورت الى الفورتفيل وهي صبية لا تتجاوز الخامسة والعشرين من العمر معتدلة القوام وضاءة الجبين جميلة الوجه تشوق رؤيتها العيون .

ولها شعر اشقر طويل عقدته فوق رأسها الحاسر وعينان زرقاوان تطاولت اهدابهما وفم صغير محمر الشفتين تبسم منه عن اسنان غاية في الانتظام .

وكانت تحمل بيدها اليمنى آنية من الصفيح وتمسك بيدها اليسرى يد طفل يبلغ الثالثة من العمر كان يسير مع امه ببطء وهو لا ينفك عن النظر الى جواد من الخشب كان قد ربطه بخيط طويل وجعل يجره وراءه .

وقد وقف فجأة وانتهر ذلك الجواد الخشبي لأنه عـثر بحجر في الطريق وانقلب فالتفتت اليه امه وقالت له برفق :

– كفى يا جورج واحمل جوادك فقد تأخرنا في الطريق .

فامتثل الطفل وحمل الجواد تحت ابطه ثم امسك بيد امه فواصلا السير .

ولبثا سائرين حتى وصلا الى دكان بقال فاستقبلتها صاحبة الدكان ببشاشة لأنها كانت من زبائنها وقالت لها :

– الى ماذا تحتاجين يا مدام فورتيه ؟

– الى زيت البترول فاملئي لي هذه الآنية .

فدهشت صاحبة الدكان وقالت لها :

– كيف ذلك ألم املأها لك بالأمس ؟

قالت : هو ذاك ولكن ولدي عثر بالآنية وهو يلعب فسال ما فيها الى الارض .

فأخذت منها الآنية وهي تقول: يجب ان تحرصي كل الحرص حذراً من خطر الحريق فانك اذا لم تضعي الزيت في محل لا يصل اليه ولدك عرضت المعمل للحريق .

– لقد عنفته كثيراً فبكى ووعدني ان يتوب .

– حسناً فعلت ورجائي ان تكون توبته صادقة ، أخبريني ايتها العزيزة هل انت مرتاحة الى عملك الجديد ؟

– لا بد لي من الرضى واذا لم يكن لي من هذا العمل سوى السلوى عن احزاني لكفى .

قالت ، هو ذاك ولكنك لو اشتغلت بالخياطة لكان ربحك اجزل وتعبك أقل.

– لقد صدقت ولكني اقتصد كثيراً في نفقاتي ولولا ذلك لما استطعت ان اعول ابني وابنتي .

– ألا تزال ابنتك عند المرضع في الريف ؟

– نعم فهي في قرية جوانيي .

– إن ذلك يكلفك كثيراً من النفقات .

– ثلاثين فرنكاً في الشهر فتأملي نكبتي بفقد زوجي فانه كان من خيرة الرجال حباً ومروءة ونشاطاً فانه كان يكسب ثمانية فرنكات في اليوم فلما قتلته تلك الآلة قتلت هنائي .

وعند ذلك سالت مدامعها فقالت لها صاحبة الدكان :

– لا تبكي أيتها الحبيبة وتجملي بالصبر فإنك اذا بحثت تجدين كثيرات أشد شقاء منك .

ومع ذلك فان صاحب المعمل قد نظر اليك بعين الرحمة فقد علمت أنه لولا

زوجك لم تنفجر الآلة .

– هذه هي الحقيقة وا أسفاه !

– ومع ذلك فان صاحب المعمل قد أحسن إليك بعد مماته فنفحك بمبلغ من المال وعيّنك لحراسة المعمل ومثل هذا المنصب لا تتولاه النساء .

فأجابت الأرملة بلهجة تبين منها الحزن العميق قائلة :

– لا أنكر فضل المسيو لابرو صاحب المعمل علي فقد أحسن إلي كل الإحسان بالرغم عما عرف به من القسوة .

غير أن زوجي قتل في معمله فصرت أرى هذا المعمل شؤماً عليّ ولولا ولدي وبنتي لما رضيت الاستخدام بعمل سالت فيه دماء زوجي المنكود .

– يجب يا ابنتي أن تلتمسي لنفسك السلوى والعزاء فإنك لا تزالين في مقتبل الشباب .

وقد جملتك الطبيعة بخير ما تجمل به النساء ولا بد أن يهيم بك يوماً أحد الفتيان ويسألك الزواج به فلا ترديه .

فقالت الأرملة بلهجة دلت على صدق العزيمة : معاذ الله أن أستبدل زوجي الحبيب .

– هذا ما تقوله كل أرملة يا ابنتي ثم تمضي الأيام فتنسيها ما قالت ومن كانت في عمرك لا يطول زمن ترملها .

– ربما كنت مصيبة فيما تقولين فان الأرملة قد تحتاج الى الزواج ولا سيا حين يكون لها أطفال أما أنا فلا أحتاج إلا الى ألفي فرنك .

– ماذا تصنعين بهذا المال ؟

– وأية فائدة من البحث في هذا الموضوع فإن هذه الثروة لا أنالها في الأحلام ومن أين يأتيني هذا المال ؟

ولذلكُ لا أجد بداً من البقاء في المعمل لإعالة ولدي وابنتي ومن يعلم ما يخبئه لنا المستقبل ؟

– لقد أصبت يا ابنتي فتوكلي على الله فهو يلهمك طريق السداد واعملي بنصحي فضعي زيت البترول في خزانة كي لا تصل اليه يد ولدك .

— كوني مطمئنة فإن خوفي شديد من النار .

وعند ذلك خرجت الأرملة من الدكان وكان ولدها جورج الصغير يلاعب جواده الخشبي عند الباب فنادته امه فتأبط الجواد وسارت وإياه الى المعمل الذي كانت بوابة فيه .

فوقفت صاحبة الدكان تشيعها بالنظر وهي تقول في نفسها :

— إني أعرف هذه المرأة طماعة أبية النفس فهي تنفر من الزواج لأنها لا ترجو أن تجد زوجاً يوافقها وما عساها تريد بالألفي فرنك فانها لم تقل لي شيئاً عن قصدها .

* * *

لقد عرف القراء من محادثة المرأتين شيئاً عن حالة الأرملة وأصل حكايتها أنها كانت تشتغل بالخياطة قبل الزواج .

وقد تزوجت وهي في الثانية والعشرين من عمرها عاملاً نشيطاً ميكانيكياً يدعى بطرس فورتيه كان يشتغل في معمل جيل لابرو وقد قتل زوجها منذ بضعة أشهر أثر انفجار آلة .

فأراد صاحب المعمل التعويض على أرملة القتيل وولديها فجعلها بوابة في معمله .

وقد رضيت حنة بهذا المنصب لإعالة ولديها ولكنها كانت تتألم لبقائها في هذا المعمل إذ تتمثل فيه كل حين مقتل زوجها .

ولقد أخطأت صاحبة دكان البقالة بما اتهمت به حنة من الطمع فانها لم تكن تتمنى نيل الألفي فرنك إلا لإنشاء مخزن للخياطة تستعين بربحه على تربية ولديها وكانت تفتكر بذلك وهي سائرة الى المعمل مطرقة الرأس .

وفيما هي تسير ارتعشت إذ سمعت صوتاً اضطرب له وجهها، ولكنها لم تلتفت وأسرعت بالسير .

فعاد الصوت الى مناداتها يقول :

— ألم تسمعيني يا سيدتي إني عائد مثلك الى المعمل فسأصحبك وأحمل عنك هذه الآنية ؟

فالتفت الغلام الى الوراء ورأى صاحب الصوت فنادى أمه قائلاً :

— اسمعي يا أماه إنه صديقي جيرود الذي أعطاني الجواد .

وكان جيرود قد أدرك الأرملة فحمل الغلام وقبله ثم التفت الى حنة فقال لها :

— إن من يرى اضطرابك حين تكلميني يحسبك خائفة مني فلماذا هذا الاضطراب وكيف لم تلتفي حين ناديتك وقد عرفت أن الصوت صوتي ؟

بل إنك أسرعت الخطى بعد أن كنت تسيرين على مهل فلماذا تهربين مني وأية إساءة أسأت اليك ؟

فأجابته حنة بلسان يتلعثم :

— إنك مخطىء فيما تقول فإني ما سمعتك كما تتوهم ولم يكن إسراعي إلا لأني تأخرت بالعودة الى المعمل .

— أحق ما تقولينه يا حنة ؟

— كيف لا يكون حقاً وأنا أقوله لك ؟

— ليس ذلك بالبرهان المقنع فانك تحاولين الابتعاد عني في كل حين مع أنك تعلمين أني حين أحدثك أكون من أسعد الناس .

ألا تعلمين ذلك يا حنة ؟

فقاطعته حنة قائلة ، أسألك يا سيدي أن لا تعود الى أحاديثك السابقة فإني لا أطيق سماعها .

— وأنا لا يروقني ما أراه من صدك وحذرك فاني أحبك بملء جوارحي بل إني أعبدك عبادة وأنت تعلمين ..

فقاطعته الأرملة ايضاً قائلة : أعلمت السبب الذي دعاني الى الإسراع فانك عدت الى تلك الأحاديث ؟

— أتحسبين أن لساني يستطيع كتمان ما يوحيه اليه قلبي وكيف أطيق الكتمان وأنت أمامي ؟

حنة إني أحبك ويجب أن تتعودي مني سماع هذه الأقوال فاني لا أنفك عن قولها كل ما لقيتك .

— وأنا لا أنفك ايضاً عن ان اقول لك بأن هذا الحب ضرب من الجنون .

– ولماذا تدعينه جنوناً ؟
– لأني لا أتزوج بعد ترملي .
– أتحسبين ذلك أكيداً ؟
– لا اقول ذلك على سبيل الظن والحسبان بل إني واثقة مما أقول .
– وأنا واثق بعكس ما تقولين فانك لا تزالين في مقتبل الشباب وريعان الجمال فكيف تطيقين العيش كل أيامك عيشة وحدة واعتزال ؟
– أرجوك يا موسيو جيرود أن لا تقول هذا القول .
– ولماذا ألأني أقول الحق ؟
– بل لأنه يجب أن تذكر أنه لم يمض بعد اكثر من خمسة أشهر على مقتل زوجي وأن تذكر أنه كان صديقك .
– ألعلي اخون صديقي إذا احببت امرأته بعد موته ؟
ألعلي اسيء الى روحه إذا قلت لك إني اعتبر بنيه اولادي .. تمعني بالأمر قليلاً يا حنـــة فان صاحب المعمل قد جعلك بوابة وعين لك راتباً لا يكاد يفي بنفقاتك ونفقات ولديك لا سيا وأن أحدهما عند مرضع في الريف .
أما انا فاني اكسب خمسة عشر فرنكاً في اليوم أي اربعمائة وخمسين فرنكاً في الشهر أي خمسة آلاف وأربعمائة فرنك في العام ..
وهذا الراتب يكون خير ثروة لضمان مستقبل ولديك لا سيا وأنك من أهل الجد والاقتصاد .
وفوق ذلك فان آمالي عظيمة وقد اصبح قريباً من الأغنياء بل إني قد اغدو صاحب معمل فتصبحين أسعد امرأة وأهنأ ام .
وكل ذلك منوط بك وبكلمة تصدر من فمك فلماذا لا تقولين هذه الكلمة ..
حنة إني أحبك بل إني هائم بك هياماً أقتحم به كل صعب فلا تدفعيني الى إتيان ما لا أحب ان آتيه .
فنظرت حنة اليه محدقة وقالت له بصوت يضطرب :
– هذه هي المرة الرابعة التي تتجاهر فيهـــا بحبك حتى لقد كدت احسبك صادقاً بهذا الحب .

– اقسم بالله أن حبي لك صادق نزيه .

– دعني أتمم حديثي فلا شك عندي أنك صادق النية شريف الحب .

ولكنني لا استطيع ان اجيبك اليوم إلا بما اجبتك به من قبـــل وهو أني احب ان ابقى ارملة ما حييت فقد احببت زوجي حباً وهبته فيه قلبي وقـد مات الزوج فمات القلب .

فظهرت علائم اليأس على وجه جيرود وسالت دمعتـــان من عينيه فقال بصوت تخنقه العبرات :

– ولكني أعبدك فكيف أدافع هذا القلب الذي لا ينبض إلا بحبك وكيف تقسين هذه القسوة وأنت تعلمين فعلها في قلبي الكسير ؟

– لا انكر أنك تتألم لهذا القول الحق وأنا اتألم ايضاً لتألمك ولكن ضميري وشرفي يقضيان علي بأن أقول لك ما قلته ورجائي أنك لا تفتكر بي بعد الآن .

– ويح لنفسي وبمن افتكر إذن ؟

– إنك تستطيع أن تسلو كما أحببت ورجائي إليك أن لا تعود الى اقوال لا أريد سماعها .

– إذن إنك تحولين دون رجائي وتقفلين في وجهي أبواب المستقبل ؟

– ذلك ما لا بد لي منه .

فقبض جيرود على يدها بعنف وقال لها :

– حنة إنك قد تحتقرينني لأنني عامل بسيط ليس لي غير راتبي ولكني قد أصبح قريباً من أهل الثروة فاذا أصبحت غنياً أترضين بي ؟

فأجابته الأرملة وهي تحاول التخلص منه قائلة ، لا تكلمني بهذه اللهجـــة فانك تخيفني .

– أترفضين الثروة التي ستكون لك ولبنيك ؟

– اسكت .

– كلا لا أسكت فانك أسأت فهم كلامي ولم تعلمي قدر غرامي إذن فاعلمي أني اهواك منذ خمسة أعوام أي منذ اول يوم رأيتك فيه فكان هذا الحب ينمو في قلبي كل يوم وكل ساعة حتى ملأ جوارحي وبت في حبك من أشد الناس شقاء .

وقد حافظت على الكتمان طول حيـــاة زوجك لأنه كان يدعوني صديقه فكانت امرأته مقدسة عندي أما وقد مات وبت حرة بعد موته فلماذا تريدين أن أسكت ولماذا تريدين أن تمدي في حبل شقائي فاعلمي يا حنة اني على أي حال لا بد لي منك فقد كتبت لي في لوح المقدور ولا سبيل لمعاندة الأقدار .

ثم أخذ يدها فأدناها من فمه وهي تمانعه وقبلها قبلة كادت تحرقها .

وعند ذلك قدم ولدها جورج وقد كان يلاعب جواده في الطريق فقال : ألا تذهبين يا أماه فقد قلت أننا تأخرنا وأنت يا مسيو جيرود ألا تذهب معنـا ؟ فسار الثلاثة وقال جيرود للأرملة : اعطني هذه الآنية لأحملها عنك .

قالت : أشكرك فقد أوشكنا أن نصل وفوق ذلك فليس فيها غير أربعـة ليترات من زيت البترول فلا يتعبني حملها .

فأظهر جيرود الدهشة وقال : أتنيرين المعمل بزيت البترول ؟

— نعم فانه رخيص الثمن .

— إحذري فانه شديد الخطر وقد حرم المسيو لابرو إدخال الزيوت المعدنية الى معمله فاذا علم بها تعملين غضب غضباً شديداً .

— إني كنت أجهل ذلك وسأعمل بنصيحتك منذ الغد .

وبعد هنيهة وصلوا الى المعمل فوقف جيرود عند باب غرفتها وقال لها : لي كلمة أقولها .

— ما هي ؟

— إني ألتمس منك أن تضربي الأجل الذي تختارينه مهما كان بعيداً فقـد تعودت منك البر ألا تقولين كلمة رجاء ؟

— كلا يا جيرود .

فضرب الأرض برجله مغضباً وقال : أتحرمينني حتى من الرجاء ؟

فذعرت الأرملة لما رأته من تغيره الفجـائي وأسرعت بالدخول الى غرفتها ولكن جيرود اعترضها قائلاً :

— لا تدفعيني الى اليأس فذلك خير لك .

وكان قد حال بينها وبين الباب فقالت له : حسناً سنرى فيما بعد .

– أحق ما تقولين ؟

– دون شك .

فتنهد جيرود تنهد ارتيـــاح وقال : أشكرك أيتها الحبيبة فقد رددت إلي الحياة .

ودخلت حنة الى غرفتها فوضعت آنية البترول في خزانة وهي تقول : إن يد جورج لا تصل اليها في هذا المكان .

وعند ذلك مد جيرود لها يده فترددت عن مصافحته فقال لهـــا : ما هذا التردد ألعلك حاقدة علي ؟

قالت : كلا .. ولكن .. أرجوك ...

– ثقي أيتها الحبيبة أني لا أقول لك كلمة لا ترضيك ولكني أرجوك أن لا تنسي ما وعدتني به فاني سأشتد بهذا الرجاء الذي عللت به نفسي وسأجيئك يوماً فأقول لك إني لا أقتصر على أن اقدم لك حنوي بل إني أدفـع لك ثروة فهل تقبلين في هذا اليوم أن تكوني امرأتي ؟

فأجابته بصوت يضطرب : ربما رضيت من أجل أولادي .

– حسناً فهاتي يدك .

– هذه هي .

فقبل جيرود تلك اليد قبلة حارة وانصرف وهو يتنهد تنهد ارتياح .

– ٢ –

كان جيرود الذي تقدم لنا وصفه نائب رئيس في المعمل وهو لا يتجـــاوز الثلاثين من العمر قوي البنية كثير النشاط منتظم الملامح وبعينيه بريق يدل على الذكاء غير أن غلاظة شفته السفلى كانت تدل على استرساله الى الشهوات .

وكان من أفضل العمال الميكانيكيين وقد قدره صاحب المعمل فجعل يراقبه منذ ستة أعوام حتى جعله نائب رئيس .

أما صاحب المعمل فقد كان من المخترعين في الصناعة ومع ذلك فقد كان يستشير جيرود في أكثر اختراعاته كما أن جيرود كان شديد الثقة بنفسه يشتغل

في النهار ويقضي الليل مكباً على مطالعة الكتب الخاصة بأشغاله فكان كثير الشغف بالمال حتى أنه كان يود جمع الثروة كما اتفق .

ولم يكن كاذباً في ما قاله لحنة فانه كان يحبها ولكنه كان في جميع شؤونه يميل الى الشيء ما زال ممنوعاً عنه حتى اذا ناله ذهب الميـــل وانطفأت جذوة ذلك الحب .

وقد كان لكلام حنة الأخير تأثير شديد عليه زاده هياماً على هيامه بل زاده اندفاعاً في طلب الثروة فانه ذكر انها لم تعلله بالزواج إلا حين عللها بالثروة فكان يناجي نفسه فيقول : حبذا لو توفقت الى اختراع في صناعتي و كان لي من المال ما استطيع به تنفيذه .

وكان يحدث نفسه بهـذه الأقوال وهو ذاهب الى غرفة صاحب المعمل فلما وصل اليها لم يجده فيها فطلب الى امين الصندوق أن يخبره بقدومـه حين يعود وذهب الى حيث يشتغل العمال لمراقبتهم فدنا من كهل منهم يدعى فنسانت وقال له : لقد رأيت ولدك يا فنسانت و . .

فقاطعه فنسانت قائلاً : ماذا قال لك عن امرأتي العلى المرض اشتد عليها ؟

– كلا ولكنه يسألك أن لا تبطىء بالعودة الى المنزل حين انصرافك .

– ألم يقل لك شيئاً غير هذا ؟

– كلا .

– ولكنه لا يحتاج الى أن يزيد على ما قاله فانه لا يستوقفك في الطريق ولا يسألني بلسانك ان لا أبطىء بالعودة الى المنزل الا لاشتداد وطأة المرض على أمه لذلك أرجو أن تأذن لي بالذهاب الى المنزل لاطمئن .

– إنك تعلم نظام المعمل يا فنسانت وتعلم يقيناً أن كل عامـل يدخل اليه لا يستطيع الانصراف قبل دنو ساعة الانصراف .

– إني أعرف ذلك حق العرفان ولكن لكل قاعدة شواذاً فلو التمست من المسيو لابرو . .

– إنه ليس في غرفته ولا سبيل لك الى الذهاب بدون إذنه .

فشكا العامل سوء حظه وعاد الى العمل ولكنه ما لبث بعد انصراف جيرود

حتى اشتدت بـــه الهواجس فلم يطق الصبر إلى عودة صاحب المعمل فخرج من مكانه وذهب إلى الباب الأكبر وهناك طلب إلى حنة أن تفتح له الباب ليمر .

فسألته قائلة : ألديك إذن بالإنصراف ؟

– كلا ولكن نائب الرئيس لقيه ولدي في الطريق فقال له قولاً أوجست منه خيفة على إمرأتي المريضة فلا أستطيع عملاً قبل أن أطمئن عليها .

– ولكني لا أستطيع أن أفتح لك الباب إلا باذن خاص كما تعلم .

– والا لا أبالي بالنظام فاني أريد أن أعلم مـــا جرى لإمرأتي ولا بدّ لي من الذهاب .

– أرجوك يا فنسانت أن لا تلح عليّ في ذلـــك فان الرئيس يؤنبني تأنيباً شديداً حين يعلم .

– ولكنه غائب .

– إذن استأذن نائبه .

– لقد استأذنته فأبى .

فأبت حنة أن تفتح له الباب ولكنه ما زال يستعطفها حتى رأفت به وأذنت له بالخروج وهي تعلم يقيناً انها مخاطرة بمنصبها .

وبعد هنيهة عاد جيرود إلى المكان الذي كان يشتغل فيه فنسانت فلم يجده وأخبروه انه خرج من المعمل فذهب إلى حنة مغضباً وسألها عن العامل فأخبرته كيف انها أشفقت عليه وكيف انه وعدها أن يعود مسرعاً .

قال : انك أسأت إليه وإلى نفسك بهذا الإشفاق أما اساءتك إليه فلأنه لن يعود إلى المعمل لأني سأطرده منه وأما اساءتك إلى نفسك فإن صاحب المعمل لا يتجاوز عن هذا الخطأ .

– ولكنه سوف يعود ولا يعلم بذلك أحد سواك فهل تسيء إلى هذا الرجل المنكود وما ذنبه إلا خوفه على إمرأته .

قال : إني أتجاوز عن ذنبه اكراماً لك على أن لا تعودي إلى مثل هـــذا التسامح فإني أنا المسؤول عن العمال وأخشى أن يعود الرئيس قبل عودته .

وعند ذلك قرع الباب فقالت :

لقد زال الخطر وهوذا فنسانت قد عاد .

ثم فتحت الباب فظهرت على الاثنين علائم القلق لأن الداخل لم يكن فنسانت كما توهمت حنة بل كان المسيو لابرو صاحب المعمل .

أمـا صاحب المعمل فإنه أقفل الباب بعد دخوله ومشى إلى جيرود فقال له بجفاء : أأنت الذي أذن لفنسانت بأن ينصرف ؟

فاضطربت حنة لهذا السؤال ولزم جيرود الصمت .

فهاج غضب صاحب المعمل لسكوته وقال له : أأنت الذي أذنت لفنسانت بالخروج من المعمل ؟

فلم يجد جيرود بـــداً من الجواب وقال : كلا فإني أعلم يقيناً اني مسؤول عن العمال .

– إذن لقد انصرف فنسانت دون أن يستأذن منك .

– كلا فاني لم أجده في المعمل فأتيت إلى مدام فورتيه لأسألها إذا كانت قد رأته .

فالتفت صاحب المعمل إلى حنة وسألها بالنظر ،

فأجابته حنة قائلة :

نعم لقد رأيته .

قال : إذن أنت التي فتحت له الباب ؟

فأجابته بالإيماء .

قال : ولكنك تعرفين النظام ويسوءني أن تكوني أول من يعبث بـه فأية حجة اتخذها فنسانت للذهاب .

فأجابه جيرود قائلاً : لقد توهم أن المرض قد اشتد على إمرأته فأراد أن يطمئن عليها .

– أكانت إمرأته مريضة كما يدعي ؟

– ذلك لا ريب فيه يا سيدي .

– مهما يكن من الأمر فانه كان يستطيع أن يصبر إلى أن أعود فـلا أمنعه

عن تفقد إمرأته ولكنكم تعلمون حرصي على النظام ولا أحب أن يكون فنسانت مثالاً لسواه .

ثم التفت إلى حنة وقال لها :

لا يجب أن تفتحي الباب لفنسانت حين يعود ويسوءني أن أطرده فانه كان من خير العمال ولكني أحب أن يكون عبرة لسواه فتعال يا جيرود .

— ٣ —

كان صاحب المعمل يدعي جيل لابرو وهو في الخامسة والأربعين من عمره .

وقد تزوج وهو في الثانية والثلاثين من عمره إمرأة غنية فاستعان بمالها على إنشاء معمله وتمكن بفضل ذلك المال من تحقيق أمانيه فاشتهر معمله شهرة واسعة.

وقد ماتت إمرأته بعد زواجه ببضعة اعوام عن طفل صغير يدعي لوسيان فأرسله ابوه إلى اخته في الريف وانصرف إلى إدارة معمله بهمة لا تعرف الملل فكان يزور ولده مرة واحدة في الشهر على فرط تولعه به لأنه لم يكن يشغله غير خاطر واحد وهو زيادة ما لديه من الثروة لتأييد سعادة ذلك الولد .

فبعد ان دخل إلى غرفته مع جيرود وباحثه بشأن العمال قال له :

إني اخطأت بتعيين هذه المرأة لحراسة المعمل ولا بدّ لي من تعيين رجل مكانها .

فارتعش جيرود لما سمعه ولم يستطع معارضة رئيسه فاكتفى بقوله ان حنة يا سيدي من اهل الأمانة والوفاء .

— اني اعلم منها ما تعلمه ولكنها ضعيفة لا تستطيع القيام بهذه المهمة .

وعند ذلك جاءه امين الصندوق فأعطاه ما كان لديه من الأوراق المالية والنقود كي يودعها في البنك حسب عادته في كل اسبوع .

فوضع لابرو الأوراق على مائدته وحاول جيرود الإنصراف فاستوقفه صاحب المعمل وقال له : ابق فاني محتاج إليك .

ثم اخذ قلماً وجعل يحسب المال حتى إذا فرغ من حسابه امر امين الصندوق أن يدفع بعض المال للبنك واطلق سراحه بحيث بقي وحده مع جيرود .

وكان لصاحب المعمل ثقة تامة بذكاء جيرود وخبرته الصناعية فأخبره انه

آخـذ باختراع آلة صناعية سيكون له منها ثروة عظيمة إذا فاز باتمامها واتفق معه على ان يشاركه بالبحث عما اشكل عليه من تركيبها على ان يكون له خمس ارباح هذا الاختراع .

فوافقه جيرود على ذلك والفرح مـلء قلبه وكشف له لابرو سر الاختراع حتى إذا تم وصفه قال له ماذا ترى الا يمكن الفوز ؟

– بل اني اراه مضموناً .

– إذن ابدأ العمل فاني سأبقي المثال في غرفتي هـذه لأني اخاف ان يقف احد حذاق العمل على سرنا إذا اخرجته إلى المعمل وما عليك إلا ان تشتغل كل يوم ساعتين او ثلاثاً في غرفتي .

– لقد اصبت يا سيدي وفوق ذلك فإنك ستكون حاضراً حين انجاني فإذا توفقت إلى الأمر أخبرتك به في الحال .

قال : حسناً وسنبدأ في العمل منذ الغـد فاذهب الآن إلى المعمل وابعث إلي حنة فذهب جيرود بنفسه إلى حنة وأبلغها إرادة الرئيس .

فارتجفت وقالت له : ألعله كلمك عني ؟

– نعم وهو سيؤنبك تأنيباً شديداً فدعيه يقول مـا يشاء فإنه على حدة مزاجه طيب السريرة واحذري أن تجيبيه بما يثير غضبه على أنه مهما حدث فـلا تنسي ما اتفقنا عليه .

فذهبت حنة إلى رئيس المعمل وذهب جيرود إلى غرفته فجعل يسير فيهـا سيراً مضطرباً وهو يناجي نفسه فيقول :

ان لابرو غير مخطىء فما وراء هذا الاختراع غـير الثروة وهذا الذي كنت أبحث عنه فلا أجده ولو ظفرت بـه لاعوزني المال لإنشاء معمل وصنع الآلات ومن أين لي هذا المال ؟

ثم سكت هنيهة وهو مطرق مفكر وقال :

انه يشاركني بالخمس فيكون لي من ذلـك ربح جزيل ولكن كيف أرضى بالخمس إذا كنت قادراً على نيل الكل وإذا نلت كل ذلك فكيف تجسر حنة على رفض طلبي .

وبعد فإن صاحب المعمل ساخط عليها وحبذا لو طردها وباتت بـلا عمل لا تستطيع القيام باود ولديها فلا بدّ لها عند ذلك من الالتجاء إليّ .

ثم ابتسم ابتسامة دلت على استفحال الشر في نفسه وعاد إلى مراقبة العمال .

* * *

أما حنة فإنها ذهبت إلى غرفة صاحب المعمل فمثلت أمامه وقالت له : لقد قيل لي انك دعوتني إليك يا سيدي .

– نعم فإني أحب أن أعلم السبب فيتغيبك عن العمل بعد ظهر اليوم و كيف عهدت بحراسة الباب إلى أحد العمال على عرفانك بأن ذلك مخالف لنظام معملي .

– اني لم أبرح الباب إلا لشراء حاجات لازمة للمعمل .

– ولكنك كان بوسعك أن تنتظري ساعة انصراف العمال وفوق ذلك فـإن ما أظهرته من الضعف في مسألة فنسانت دلني دلالة صريحة على أنه يستحيل عليّ أن أعتمد عليك ولا اكتمك اني ندمت لتعيينك في هذا المنصب .

فنظرت إليه حنة وقد جال الدمع في عينيها فقالت بلهجة دلت على الأنفة .

أني لم أسألك تعييني فيه يا سيدي بل أنت الذي عينتني وقد خطر لك أنك تعوضني بذلك عن مقتل زوجي الذي قتل بخدمتك وإنما رضيت بهـذه الخدمة لأنه ليس لي ما يقوم باود ولدي وابنتي .

فإذا كنت ندمت لتعييني بهذا المنصب فـــان ندمي أشد من ندمك لأنك تقرعني بكلام لا أرى أني استحقه .

– كيف ذلك أتحسبين أنك لم تعبثي بالنظام ؟

– أن كل مـــا فعلته هو أني اضطررت إلى الخروج من المعمل بعد أن عينت مكاني صديقة لي من العاملات للمراقبة فهل يعد ذلك ذنباً لا يغتفر ؟

– هو ذاك فانما عهدت بحراسة الباب إليك دون سواك ولكن لندع هذا الخطـــأ ولننظر في خطأك الثاني فكيف تركت فنسانت يخرج من المعمل دون إذن ؟

– لا أنكر أني أخطأت في ذلك ولكنك تعلم السبب الذي دفعني إلى قبول إلتماسه ولا يستطيع رفض طلبه إلا من قُدّ قلبه من الصخر .

فأطرق صاحب المعمل هنيهة مفكراً ثم التفت إليها وقال :
يسوءني ما أراه من أن بقاءك عندي محال فانك تحبين الجدال وأنا أحب من عمالي الامتثال غير أني لا أريد لك إلا الخير .
وعند ذلك دخل أمين الصندوق فدفع إليه بعض لوائح حسابية ورأى حنة فقال لرئيسه مشيراً إليها .
أرجو سيدي أن يأمرها بأن لا تدخل زيت البترول إلى المعمل فانها لا تجهل ما في ذلك من الأخطار .
فوثب لابرو عن كرسيه وقال :
بترول .. أيوجد بترول في المعمل ؟!
قال : نعم يا سيدي فانها تنير غرفتها بالبترول وقد شممت رائحته أمس .
فهاج ثائر لابرو وقال لها : أتجهلين ان إدخال زيت البترول مخالف لنظام المعمل ؟
قالت : لقد كنت أجهل ذلك .
— هذا محال .
— اني لا اكذب وأية فائدة لي من الكذب وأنا أرى الكأس قد فاضت .
— لقد أصبت فاني قد أتجاوز عن الخطأين الذين ارتكبتيهما أما خطأك بادخال البترول إلى المعمل فهو خطأ لا يحتمل الغفران فابحثي عن محل فانك مقيمة في هذا المعمل إلى آخر الشهر فقط .
فتنهدت حنة تنهد القانطين وقالت :
إذن أنت تطردني من المعمل بعد أن قتل زوجي فيه وبخدمتك كما يقتل الجندي في ساحة القتال .
وماذا يكون من أمري بل ما يكون من مصير ولدي وابنتي إذا طردتني .
أحذر يا سيدي فإنك لا تلقي خيراً بعد طردي .
فحدق لابرو بها وقال : ماذا تعنين بما تقولين ؟
وقال لها أمين الصندوق ، ويح لك أتتوعدين ؟
قالت : كلا أني لا أنذر ولا أتوعد بل أني أحتمل نكبتي بطردي كما احتملت

نكبتي بفقد زوجي .

ولقد أخطأت كما يقول الموسيو لابرو فلتقع تبعة هـــذا الخطأ على رأسي وسأغادر هذا المعمل قبل إنتهاء الشهر فلا أقيم فيه غير ثمانية أيام فتفضل يا سيدي باختيار سواي .

فتوجع صاحب المعمل لمصابها وقال لها برفق :

اني لا أطردك كما تتوهمين ولكني شعرت اني أخطأت بتعيينك في منصب لا يستطيع أن يتولاه غير الرجال .

– لقد كان يجب أن تعلم ذلك من قبل .

– هو ذاك ولكن رغبتي في نفعك حـــين عينتك حالت دون تفكيري في العاقبة ، فابقي في منصبك إلى آخر الشهر ولا بدّ لي في ذلك الوقت من أن أجد لك عملاً يوافق عواطفك .

فأشهقت حنة بالبكاء وقالت :

كلا بل أني سأبرح المعمل بعد ثمانية أيام فاني ما لقيت فيه غير الشقاء ومـا سرت في رحابه إلا وخيل لي بأني أمشي على أرض صبغت بالدماء ... كلا أني لا أقيم في هذا المعمل فقد بات شؤماً عليّ .

ثم غطت وجهها بيديها وانصرفت قانطة فشيعها صاحب المعمل بنظره وهو يقول مسكينة انها لم تفعل مـا فعلته إلا وهي تعتقد انها محسنة لحنو قلبها ولا أدري كيف خطر لي أن أعينها لمراقبة المعمل .

فأجابه أمين الصندوق قائلاً :

انك تنطق بما يوحيه إليك قلبك السليم يا سيدي .

– كلا بل أني مدين لهـــذه المرأة التي قتل زوجها في خدمتي وسأعينها في خدمة أختي وذلك سهل ميسور .

– لا تتسرع يا سيدي بالإحسان إلى هذه المرأة واذكر أنها توعدتك .

– أتحسب انها توعدتني ؟

– بل اني واثق مما أقول فانها كانت تحب زوجها حباً عجيباً وقـد قتل في معملك ثم حسبت انك تطردها فبانت حاقدة عليك ولذلك أسألك أن تحذر .

– انك مبالغ في حذرك من هـذه المرأة فانها إمرأة منكودة وأم شقية ولا بدّ لي من مساعدتها فاذا لم أرسلها إلى اختي أعطيتها مبلغاً من المال تستعين به على تربية ولديها .

ثم غير الحديث فقال له : هل جئتني بحساب الصندوق ؟

قال : نعم وهذا هو .

فنظر في الحساب الذي قدمه اليه وقال :

أيوجد في الصندوق ٧١٢٣ فرنكاً وثلاثون سنتيماً ؟

– نعم يا سيدي وسأحضر لك هذه القيمة .

– ولماذا لا تبقيها في صندوقك ؟

– لأني قلت لـك قبل الآن يا سيدي إني أخاف التبعة لأني لا أنام في المعمل وسأحضر لك المال فتضعه في صندوقك الخاص كما تفعل في كل مساء .

– حسناً فائتني به .

أما حنة فإنهـا أقامت في غرفتها تذرف الدموع السخينة لنكبتها الجديدة واضطرارها إلى اعتزال الخدمة .

وبقيت على ذلك إلى أن انصرف العمال فجاءها جيرود مستعلماً عمـا جرى فأخبرته بما عزمت عليه من مبارحة المعمل .

فارتعش جيرود وقال :

لقد كان ما خفت أن يكون فـإن الرئيس لامك فلم تحتملي اللوم وأثرت سخطه بالاعتراض .

– أنه طردني من الخدمة .

– ولكنك هيجت غضبه دون شك .

– ذلك لأنه وحشي الأخلاق فإنه لامني لوماً قد أكون استحقه ولكنه كان يستطيع أن يكون ألين جانباً وأرق عطفاً وعلى الجملة فإني سأبرح هـذا المعمل بعد ثمانية أيام .

– إلى أين تذهبين بعد ثمانية أيام وماذا تصنعين ؟

– لا أعلم ولكن لا بدّ لي من العمل لأعول ولدي وابنتي .

– لا تسترسلي إلى اليأس يا حنة فإن الرئيس قد يرجع عن عزمه فإنه لم يقل ما قاله إلا في ساعة غضب .

– كلا فإني مسافرة .

– أحق ما تقولين ؟

– ليس في هذا الوجود ما يثنيني عن عزمي .

– وأنا ما يكون مصيري . ألا أراك بعد رحيلك ؟

– ذلك خير لك فاذكر ما كنت أقوله لك ومتى طال عهد الفراق نسيتني .

– وأنت أذكري أيضاً مـــا قلته لك وهو إني لا أستطيـع أن أعيش لحظة بعيداً عنك وغداً سأباحث الرئيس بشأنك وأتوسل اليه أن يرجع عن قصده .

– إني لا أريد أن تفعلي ذلك .

– ولكنك لا تعلمين مصيرك وما ينتظرك من الشقاء .. حنة انك واثقة من حبي ولماذا لا تبادلينني هذا الحب فنعيش معاً عيشة السعداء ؟

فبدت على حنة علائم الأنفة وقالت :

أتسألني أن أعيش واياك وأكون خليلة لك انك تحتقرني يا جيرود بهـذا الاقتراح ؟

– اني أقسم لك بكل طاهر في الأرض وكل مقدس في السماء أنـــه لا تمضي الشهور العشرة الأولى من حدادك حتى تكوني إمرأتي أمام الله والناس .

وكان جورج ولد حنة الصغير يسمع الحديث وهو لا يفهم معناه ، ولكن رأى علائم الحزن بادية على وجه جيرود فالتفت إلى أمه وقال :

لا تكدريه يا أمي فإنــه صديقي وهو الذي أحضر لي جوادي ومتى صار غنياً كما يقول أحضر لي ما هو خير منه أليس كذلك يا صديقي جيرود ؟

فعانقه جيرود وهو يقول :

دون شك يا بني فسأحضر لك كل ما تشتهيه ثم عاد إلى محادثة حنة فقال : حنة ...

ثقي في الأمر وثقي بحبي وحنوي فإني معرض عليك الحياة والسعادة لك ولولديك الذين أحبهما كما تحبينهما فإذا رفضت طلبي فإنما تسيئين إليّ وإلى ولديك

إساءة لا تغتفر . .

بل انك تدفعين بهما إلى هاوية الشقاء فإنك لا تستطيعين القيام بأودهما وأودك مهما اشتغلت وهل تطيقين أن تريهما جائعين عاريين .

فوضعت حنة يدها على جبينها وقالت : انك تمثل لي المستقبل بهذا الخطر كي تضعف عزيمتي .

– بل لأقول لك الحق الذي لا ريب فيه ولكنني سأنقذك من هـــذا الخطر المخيف ولا أدع للشقاء سبيلاً إليك لأنك ستكونين إمرأتي .

– رباه رباه .. أنه لا يشفق عليّ .. أنه لا يسكت .. أنه لا ينصرف .

– إني أريد أن أبرهن لــك عن صدق حنوي بامتثالي فسأذهب ولكنني لا أذهب إلا للاهتمام بمستقبلك ومستقبل بنيك .

ثم تركها عرضة للاضطراب الشديد وانصرف فجلست على كرسي واهية القوى وجعلت تناجي نفسها فتقول :

لقد أصاب فيما قاله فاني لا أجد أمامي غير الشقاء وكيف أستطيـع إعــالة ولدي ودفع إجرة مرضع ابنتي بل كيف أربي ولدي جورج وأنا لا أملك درهماً . .

رباه ان هذا الرجل يعرض عليّ النعيم والسعادة ومــا هما إلا مستقبل ولدي وابنتي فكيف أرفض اقتراحه وإذا رضيت بزواجه ألا أكون خائنة أثيمة بعد أن أقسمت لزوجي على سرير الموت إني لا أتزوج سواه .

– ٤ –

كان المسيو لابرو بعد موت زوجته يبيت في معمله ولم يكن عنده خادمة ولا خادم فان حنة كانت تنظم غرفته بعد خروجه منها وكان يأكل في مطاعم المدينة فيعود عادة إلى غرفته في الساعة الحادية عشرة فيشتغل ساعة أو ساعتين ثم ينام.

ولم يكن ينام في المعمل سواه ، وكذلك حنة فانهــا كانت تنام مع ولدها في الغرفة الكائنة أمام باب المعمل الأكبر .

ولم يكن يغيب عن معمله إلا حين يذهب إلى الريف لتفقد ولده فاذا عاد لا يدخل من الباب الكبير بل من باب صغير كان يحمل مفتاحه بجيبه .

ففي صباح اليوم التــالي للحادثة التي رويناها أقبل جيرود إلى المعمل وعليه

علائم الإهتمام الشديد ففرق الأعمال إلى العمال وذهب إلى غرفـــة المسيو لابرو فاشتغل فيها إلى المساء بذلك الاختراع الذي أطلعه صاحب المعمل على سره .

وفي المساء خرج من المعمل فلم يذهب إلى المطعم الذي كان يجتمع فيـــه مع رفاقه بل سار إلى جهة النهر طلباً للوحدة والاعتزال فلم يعد إلى غرفته إلا عند انتصاف الليل .

وفي صباح اليوم التالي جاء إلى المعمل وهو مصفر الوجه فدهشت حنة لمـــا رأته من اضطرابه وقالت له ، ماذا أصابك ؟

فأجابها بصوت مضطرب قائلاً :

لا شيء لا شيء .. كنت أريد أن أقول لك ..

ولكن كلا ..

فان الأفضل تأجيل ذلك ..

إلى اللقاء مساء فاني داخل إلى المعمل .

ثم تركها وانصرف فزاد اندهاش حنة وقالت: ترى ماذا يريد أن يقوله لي، وما هذه الهيئة المضطربة فانه كان يشبه المجانين .

أمـــا جيرود فانه بعد أن أتم شغله دخل إلى غرفة صاحب المعمل وهو يبذل جهداً عنيفاً لإخفاء إضطرابه فجعل يشتغل بذلك الاختراع بينما كان صاحب المعمل يشتغل بكتابة الرسائل إلى عملائه .

وعند ذلـــك دخل إليه أمين الصندوق وقال له : لقد أحضرت المال من المصرف .

قال : دعه الآن عندك وعد إليّ به حين أفرغ من عملي .

فخرج أمين الصندوق وسمع جيرود الحديث فارتجف لذكر المال .

ووضع يديه على وجهه كي لا يظهر اضطرابه ثم عاد إلى العمل .

وبعد هنيهة دخلت حنة تحمل ورقة زرقاء فقالت :

لقد ورد إليك نبأ برقي يا سيدي .

فأخذ لابرو الرسالة منها ولم يكد يتلو ما فيها حتى اصفر وجهه وقال : رباه ولدي مريض ، أنه قد يكون بخطر .

ثم التفت إلى جيرود وقال له :

لقد ورد إليّ نبأ برقي من اختي تخبرني فيه ان ولدي مريض وتسألني أن أسافر إليها في الحال فاجمع يا جيرود رسوم الاختراع كي أضعها في الخزانة الحديدية ، فاتـّقدت عينا جيرود ببارق من السرور وأخذ يجمع تلك الأوراق .

أما لابرو فانه قرع جرساً لمناداة حنة وقام إلى الباب فنادى أمين الصندوق وأخبره باضطراره إلى السفر ثم أمره أن يأخذ من المال ما يحتاج اليه لنفقات المعمل مدة غيابه ويرد اليه الباقي .

فخرج أمين الصندوق مسرعاً لتنفيذ الأمر وبعد هنيهة أقبلت حنة فقال لها: مري السائق أن يعد لي المركبة وعودي إليّ في الحال .

فذهبت حنة وعادت بعد بضع دقائق وكذلك أمين الصندوق فانه بعد أن فرغ من حسابه عاد إلى رئيسه فقال له :

إني أبقيت عندي خمسة آلاف فرنك وأرجو أن لا أحتاج إلى أكثر منها في مدة غيابك .

— حسناً فاني سأعود بعد يومين إلا إذا طرأ على صحة ولدي ما يدعوني إلى التأخر فكم أحضرت لي من المال ؟

— ١٢٧ الف فرنك قبضتها من البنك يضاف إليها ايراد اليوم وهو ١١ الف فرنك أخذت منها خمسة فيكون الباقي ١٣٣ الف فرنك فاذا أضيف هذا المبلغ إلى ما في صندوقك الآن كان المجموع ١٩٠ الفاً و٢٥٣ فرنكاً .

فأخذ لابرو المال دون أن يعده فوضعه في صندوقه .

وكانت حنة تنظر في خلال ذلك إلى جيرود فترى في وجهه علائم لم ترها من قبل .

أما جيرود فانه كان قد جمع رسوم الاختراع فدفعها إلى رئيسه فوضعها لابرو أيضاً في الصندوق وقال له : سنعود إلى الاشتغال بها بعد عودتي .

— حسناً يا سيدي أليس لديك أوامر تصدرها إليّ ؟

— نعم فاصبر هنيهة .

ثم التفت إلى حنة وقال لها :

أرجوك يا مدام فورتيه أن لا تتهاملي لحظة في مراقبة المعمل وسأهتم بشأنك بعد عودتي فكوني واثقة اني لا أدعك من غير عمل ورجائي أن تنسي ما كان بيننا كما نسيته أنا .

فدهشت حنة لهذا الرفق الذي لم تكن تتوقعه ولم تجب بحرف .

وكان أمين الصندوق يراقبها ويقول في نفسه :

لم يبق ريب عندي ان هذه المرأة تكره الرئيس وتريد الانتقام منه فإن قصدها ظاهر للعيون .

ومضى لابرو في حديثه فقال :

إني أرجوك أيضاً أن تضعي لي بعض الملابس في حقيبة وأضيفي اليها ردائي الكبير وغطاء من أغطية السفر .

فانصرفت حنة دون أن تفوه بكلمة فقال صاحب المعمل بعد خروجها ، إني أخاف أن تكون حاقدة عليّ فإني أسأت اليها ولمتها لوماً شديداً ولكنها أثارت سخطي باعتراضها كأنها لا تريد أن تعتقد أنها أخطأت . ولكني سأهتم بشأنها في كل حال فإني لا أريد لها إلا الخير .

وعند ذلك أخبر أمين الصندوق وجيرود بما يجب أن يفعلاه في غيابه .

ثم ركب المركبة التي أعدت له وسافر بهـا إلى الريف حيث كان ولده عند اخته .

* * *

وفي ساعة انصراف العمال جاء جيرود إلى حنة فحياها وحاول الانصراف .

ولكن حنة استوقفته هذه المرة وقالت له :

ماذا كنت تريد أن تقول لي في هذا الصباح ؟

فارتعش جيرود وقال : كنت أريد أن أخبرك بأمور كثيرة .

— إذن قل ما تشاء .

— كلا فقد تمعنت في الأمر ولم يحن الوقت بعد بل إني لا أجسر .

— ألا تجسر ؟

— نعم ولكنني إذا كنت لا أجسر على القول فاني أجسر على الكتابة .

فدهشت حنة لكلامه كما دهشت لهيئته فقالت له :
انك تخيفني فما هذا الإضطراب الذي يتولاك ؟
– لا تسأليني شيئاً الآن أيتها الحبيبة وأجيبي عن مسألة يجب أن أسألك عنها .
– ما هي ؟
– هل تمعنت ملياً فيما قلته لك بشأن حالتك ومستقبلك ؟
– نعم .
– وهل توافقين على ما اقترحته عليك ؟
– إني أوافق عليه حين تخبرني بما أبيت أن تخبرني به الآن لأنك لم تجسر على قوله :
– حسناً فاعلمي ان غداً سيتقرر أمرنا كلينا .
– لماذا عينت الغد ؟
– لا تسأليني المزيد من التصريح فاني لا أجيب وليس الغد ببعيد .
وعند ذلك غادرها فجأة كأنه خشي أن يتمادى في القول ويجري به أبعد من هذا الشوط فذهب فتعشى مع رفاقه حسب عادته في كل ليلة وهو يظهر البشاشة إخفاء لإضطرابه حتى إذا افترقوا عنه وأصبح وحده عادت اليه هواجسه وقطب جبينه شأن المفكر المهموم .
وبعد هنيهة خرج من المطعم وسار تواً إلى المعمل ولكنه لم يسر اليه بطريق الباب الكبير بل ذهب إلى ذلك الباب الصغير الذي كان يدخل منه عادة صاحب المعمل .
وهناك وقف وجعل يتلفت تلفت السارق حتى إذا وثق من أنه لا يراه أحد دنا من ذلك الباب وهو يقول ، يجب أن أدخل من هذا الباب .
ثم أخرج من جيبه قطعة من الشمع فطبعها على قفل الباب وعاد إلى غرفته وهو خائف مضطرب والعرق ينصب من جبينه .

* * *

في تلك الساعة نفسها كان المسيو لابرو يقرع باب منزل اخته وقد أطلت

اخته من النافذة في ظلام الليل وقالت :

من الطارق ؟

قال : هو أنا أيتها الأخت العزيزة فكيف حالة لوسيان ؟

– اطمئن يا أخي فقد زال الخطر بحمد الله وأنا قادمة لأفتح لك الباب .

ولمـــا خلا باخته أخبرته أن ولده أصيب بحمى كانت شديدة الوطأة عليه ولكن الطبيب أكد لها اليوم أن الخطر قد زال عنه .

– أين هو فاني أريد أن أراه .

– هو في سريره فاحذر أن توقظه لأنه نائم .

وبعد أن تفقد ولده واطمأن عليه عـــاد إلى اخته فذهب واياها الى غرفة بعيدة عن الغرفة النائم فيها الغلام فعلم منها تفصيل ما اصيب به ولده وكل مـــا قاله الطبيب .

حتى اذا اطمأن عليه كل الاطمئنان قرر أن يعود في الغـــد الى معمله فيصل اليه في الساعة العاشرة من المساء .

وعند ذلك سألته اخته عن أعماله وإذا كان راضياً عنها .

فأجابها قائلاً :

اني راض كل الرضى لا سيا وأني سائر في طريق الثروة .

– كيف تقول هذا القول وعهدي بك انك من الأغنياء .

– أني جمعت من المال ما يكفيني ولكني اريد ان أجعل ولدي من اغنى الأغنياء .

– كيف ذلك ألعلك توفقت إلى اختراع جديد ؟

– هو ذاك واني أرجو أن أنال بفضل هـــذا الاختراع كثيراً من الملايين في وقت قريب .

– كل ذلك ممكن إلا إذا توصل أحد قبلك إلى هذا الاختراع .

– ليس لي ما أخافه من هذا القبيل .

– هذا ما أرجوه لك ولكن المخترع معرض لمثل هذه الأخطار فإنه إذا باح بأقل شيء من اختراعه واتصل هذا القول بمخترع سواه فقد يسبقه إليه .

ــ لا تخشي فإني أعمل بنفسي ولا يعينني في اختراعي هذا غير رجل لي بـه ملء الثقة .

وطالما باحثتك عنه فهو جـاك جيرود وهو من الأذكياء النابغين في الصناعة وأنا لا أخافه لأني أشركته بأرباح اختراعي فبات أحرص عليه مني .

ــ أأخبرته بسر اختراعك ؟

ــ لم يكن لي بد من ذلك فإني وضعت الرسم وهو ينشىء الآلة .

ــ ما زلت واثقاً منه وقد أشركته بالفائدة فلا خوف منه فقل لي الآن كيف حال تلك الأم المنكودة التي قتل زوجها في المعمل ألا تزال مستخدمة في معملك؟

ــ أنك سألتني عنها حين كنت عازماً على مباحثتك بشأنها فانها لا تزال في معملي ولكنني مضطر إلى إبعادها عنه .

ــ كيف ذلك أتعزلها من الخدمة ؟

ــ ذلك لا بدّ منه وإنما أقصيها بالرغم عني فاني لا أنسى وفاء زوجها ولكنها على شهامتها ووفائها لا تصلح لأن تتولى مراقبة المعمل فـان هذا المنصب يقتضي له شدة الرجال ولا يفيد فيه حنو النساء .

ــ كان يجب أن تفتكر بذلك قبل استخدامها ؟

ــ لقد أخطأت فان ذلك لم يخطر لي من قبل .

ــ أأخبرتها بفصلها عن الخدمة ؟

ــ نعم .

ــ ولكن مـــا عسى أن يكون مصير هذه المنكودة وهي أم ولدين ولا ناصر لها .

ــ أني ما أردت مباحثتك بشأنها إلا لضمانة مستقبلها فاني طالما سألتك أن تستخدمي إمرأة تتولى عنك أعمال المنزل فكنت ترفضين .

ــ ذلك لأني أحب أن أتولى شؤون بيتي بنفسي وهذا أخص واجبات النساء

ــ هو ذاك ولكن حنة ستكون معك رفيقة مميزة وتساعدك في أعمال المنزل فقد بلغت حداً من العمر تجب فيه الراحة لمن يستطيعها .

وسيكون ولدها وهو في الثالثة من العمر رفيق ولدي لوسيان فـان عمرهما

واحد ومتى كبر ولدها علمته فأكون بذلك قد وفيت مـا علي من الدين لهذه الأرملة .

ورجائي أيتها الأخت العزيزة أن تقبلي اقتراحي إذ لا بد من قبوله فقد عاملت حنة بجفاء أخشى أن تحقد علي بعده وأحب حين عودتي الى المعمل ان أخبرها بهذا النبأ فأمحو ما ضيعه جفائي على قلبها من أثر الحقد فهل تقبلين ؟

– إني اقبل اقتراحك بملء الرضى فاني اشفق على هذه المرأة وولديهـا أشد إشفاق .

فعانق لابرو اخته وشكرها وانصرف كل منهما الى مضجعه .

– ٥ –

ولنعد الآن الى المعمل فان ما سمعته حنه من جيرود وما رأته من اضطرابه أثر عليها تأثيراً عظيماً لا سيا وأنها لم تفهم شيئاً من مقاصده وأشكلت عليها معمياته .

ففيا هي تفكر في ذلك وفي مستقبلها وقد اسودت الدنيا في عينيها جاءهـا خادم مكتب صاحب المعمل يسألها مفتاح المكتب لتنظيمه حسب عادته كل يوم .

وكان هذا الخادم يدعى دافيد وهو من أهل الفضول وقد علم بغضب صاحب المعمل على حنة ورأى اضطرابها فقال لها :

– ماذا أصابك هل أنت مريضة ؟

– كلا .

– إذن ما هذا الاضطراب الذي يتولاك ؟

– لست مضطربة كما تتوهم .

– هل عزمت على البقاء في البلد ؟

فأجابته بجفاء وقد استاءت لفضوله قائلة : لا أعلم الآن .

– أظن أن المسيو لابرو سيمنحك مكافأة قبل ذهابك لأنه من خير أهل الفضل .

– وأنا لست ممن يلتمسون الصدقة .

– ومن قال لك أنه يتصدق عليـك فإنه لا بد لك من التعويض شأن كل

المستخدمين حين يكرهونهم على الاعتزال ولكن يظهر أنك حاقدة على الرئيس.

فظهرت على حنة علائم نفاد الصبر وقالت له :

أرجوك أن لا تباحثني في هذا الشأن وهذا مفتاح المكتب فخـذه وأرجعه الي بعد تنظيمه .

فأخذ دافيد المفتاح وخرج وهو يقول في نفسه :

ــ إنها حاقدة أشد الحقد على الرئيس والويل له منها إذا تمكنت منه .

أما حنة فانها بعد انصرافه جعلت تبحث في غرفتها فرأت آنيـة البترول وقالت :

ــ إن هذه الآنية للمعمل ولا بد لي من نقل البترول الى زجاجات فآخذها الى الغرفة التي سأقيم فيها بعد خروجي من هذا المحل المشؤوم .

وعند ذلك أحضرت زجاجات فارغة وجعلت تفرغ فيها ما كان في الآنية فلم تملأ الزجاجة الأولى حتى قرع الباب .

وكان الطارق أمين الصندوق فدخل وقال :

ــ إني لا أزال أشم رائحة البترول .

ــ ذلك لأني أفرغه من الآنية وهي للمعمل كي أضعه في الزجاجات وهي لي كما أن البترول لي أيضاً وسأستخدمه لأنارة غرفتي بعد مبـارحتي المعمل بحيث أكون حرة ولا يخاف أحد أن أحرق المعمل .

فأخفى أمين الصندوق غيظه وقال لها :

ــ لا يخطىء من يخاف فان الأشرار كثيرون ويوجد بين النـاس من يصنع الشر دون قصد إلا لميله الفطري اليه .

ثم تركها وانصرف حاقداً عليها فعادت هي الى إفراغ البترول بالزجاجات.

أما جيرود فانه صبر في ذلك اليوم الى أن انصرف العمال فذهب الى حنة .

وكان ولدها جورج يلاعب جواده في تلك الساعة وهو من الخشب والكرتون ويظهر أنه كان ساخطاً عليه فانه ضربه بقبضة كرباجه كأنه يريد تأديبه ولكنه تجاوز حد التأديب وشق بطن الجواد .

وقد بكى في البدء آسفاً لما فعل ثم خشي أن تعلم امه بفعلته فتؤنبه فكف

عن البكاء وذهب الى قطع مصورة من الجرائد كانت أعطته إياهـا امه فوضعها جميعها في بطن جواده إخفاء للشق ولكن بقيت الثغرة ظاهرة فلم يحفل بها وعاد الى اللعب .

وكانت حنة تنتظر قدوم جيرود بنفـاد صبر فانه قال لها بالأمس : إن مستقبلي سيتبين في الغد فأقامت تنتظره جازعة حتى حضر فكان أول ما فعله أنه دفع الباب وأعطاها رسالة باسمها مختومة .

فعجبت حنة لأمره وقالت له :

– لماذا تكتب لي وأنت قادر على مكالمتي ؟

قال : لقد أوضحت لك ذلك أمس إذ يوجد أمور تسهل كتابتها دون قولها فخذي هذه الرسالة واقرئيها حين تصبحين وحدك وتمعني فيها بسرعة وثقي أن مستقبلي ومستقبلك ومستقبل ولديك في يدك .

ثم خرج مسرعاً دون ان يزيد حرفاً على ما قال فدخلت حنة الى غرفتهـا وفضت تلك الرسالة فقرأت ما يأتي :

– أيتها الحبيبة .

لقد ألمحت لك عن ثروة قريبة المنال تضمن مستقبلنا ومستقبل ولديك .

أما الآن فاني أضمن لك هذا المستقبل ضماناً إذ لم يبق لدي فيـه شيء من الريب .

إني غداً سأصبح غنياً ويكون لدي ما يكفيني للقيام بشروع عظيم فاني توفقت الى اختراع أرجو ان انال منه اعظم ثروة ولدي الآن نحو مـائة ألف فرنك سأستعين بها على إظهار هذا الاختراع العظيم الى الوجود .

تمعني يا حنة بمستقبل ولديك فان هذا الفكر يشجعك واعلمي أني انتظرك في الساعة الحادية عشرة من هـذا المساء مع ولدك جورج عند جسر شارلتون فأذهب بكما الى محل أمين نسافر منه غداً الى البلاد الأجنبية حيث نلقى الثروة والسعادة .

فابرحي دون أسف هذا المنزل الذي طردك منه رئيسه وتعـالي الى ذلك الرجل الذي لا يحب سواك .

احذري أن تتأخري فان تأخرك يلقي بي الى مهاوي اليأس ولكني موقن أنك ستحضرين » .

« في ٧ ستمبر سنة ١٨٦١ جاك جيرود » .

فلما أتمت حنة تلاوة هذه الرسالة وقفت وقفة الحائر ثم قالت في نفسها :

ـ لا شك ان جاك قد فقد صوابه فما هذا الاختراع الذي يقول انه توفق الى اكتشافه ومن أين يأتي بهذه المبالغ المظيمة لتحقيق أمانيه وكيف يكون لديه مائتا ألف فرنك وهو لا يملك غير راتبه الحقير ولماذا ينتظرني هذه الليلة عند جسر شارلتون ..

إنه إما ان يكون فقد رشده وجعل امانيه حقيقة راسخة وإما ان يكون يبغي نصب شرك لي لاعتقاده أن العوز والفقر يعميان عيني عن إدراك قصده السافل .

ولكن ساء فأله ولا شك ان هذه الرسالة فخ منصوب لا يجب ان اتلقاها بغير الاحتقار .

ثم دعكت الرسالة بيدها وألقتها مغضبة الى الأرض فأسرع ولدها جورج الى إلقاطها وحشى بها بطن جواده دون ان تراه وجعل يبحث عله يجد ورقاً ايضاً ليسد شق بطن الجواد .

وكان الليل قد أقبل فأضاءت حنة مصباحها ودعت ولدها الى النوم .

وكانت السماء مقتمة في تلك الساعة وقد أخذت الأمطار تنهمر كأفواه القرب ولعلع الرعد كالمدافع فخاف جورج خوفاً شديداً فأشغلته امه باللعب وخرجت الى المعمل بمصباحها فتفقدته وغادت الى ولدها وقد بدأت العاصفة وفتحت ميازيب السماء .

ـ ٦ ـ

أما جيرود فانه أقام قسماً من الليل في المطعم وفي الساعة الحادية عشرة ذهب الى جسر شارلتون وهو يرجو أن يلاقي حنة وولدها فيه كما كتب لها .

ولم يحفل بالعاصفة فقد قال في نفسه : إنها إذا كانت تريد الحضور لا تحول

الرياح والأمطار دون قصدها ومتى أتت ذهبت بها الى غرفتي فتركتها مع ولدها لفعل ما عزمت على فعله .

ولما وصل الى المكان المعين ولم يجد فيه حنة جعل يسير ذهاباً وإياباً وقد كاد يجن من يأسه إذ بات واثقاً بعد الانتظار الطويل أنها أبت موافقته على ما اراد .

ولكنه كان قوي الإرادة ثابت العزيمة فقال في نفسه :

– سيان عندي أتت او لم تأت فأفعل ما أريد فعله وإنها لا تحبني دون شك وما هي إلا مسيئة الى نفسها بل إنها تحتقرني كما رأيت مراراً ولكنها مسيئة الى نفسها وسأعمل ما اريد عمله .

وفيم هو يناجي نفسه بهذه الأقوال خطرت له تلك الرسالة التي كتبها اليها فارتعش وقال :

– ماذا أصنع بهذه الرسالة التي كتبتها اليها فقد تطلع عليها من يهمهم امرها بل قد يجدونها عندها .

وقد أطرق هنيهة مفكراً مهموماً ثم قال :

– ولكن ليس في تلك الرسالة برهـــان جلي وسأحول التهمة عني بتأخير سفري فأسافر بعد اسبوع او بعد شهر .

وكانت العاصفة قد بلغت أشدها والمطر يتساقط سقوط ميـاه الشلال وقد فات الأجل المضروب فقال في نفسه :

– إذن لأذهب فانها لا تحضر ولا تكافئني عن غرامي إلا بالاحتقـــار فليمت الحب في قلبي وليعش في مكانه حب المال .

وسار تواً الى المعمل من جهة الباب الصغير الذي صنع مفتاحاً له كما تقـــدم ففتحه ودخل الى ردهة المعمل .

وهناك نظر الى الغرفة التي تقيم فيها حنة فرأى النور ينبعث من خـــلال زجاجها فقال في نفسه :

– إنها لا تزال ساهرة وهي تضحك علي لا شك لاعتقادهـــا أني لا أزال انتظرها تحت الأمطار عند الجسر .

نعم لقد مات الحب في قلبي فأنا الآن لا أحبهـا بل أبغضها وسوف ترى

ما يكون .

وعند ذلك مشى الى غرفتها فكانت الرياح تحول دون سماع خطواته وهناك دخل الى المستودع الكائن في جانب تلك الغرفة فأخـــذ أربعاً من زجاجات البترول التي كانت ملأتها حنة في النهار ودخل بها الى معمل النجارة فصب زجاجتين فوق نشارة الأخشاب وقطعها الجافة .

وبعد ذلك ذهب الى مكتب رئيس المعمل فكسر بابه ودخل فذهب تواً الى الصندوق الحديدي فعالجه وهو ميكانيكي بما لديه من الآلات حتى فتحه فأخذ ما فيه من الأوراق المالية ورسوم الاختراع فوضعها في جيبه .

ثم صب الزجاجتين الباقيتين من زيت البترول فوق المائدة وقال في نفسه :

ـ لأضع النار في المعمل أولاً ثم أعود الى هنا فأتم ما اريد عمله .

وقد ذهب الى معمل النجـــارة فأحرق زيت البترول والتهبت الأخشاب بسرعة البرق .

* * *

ولنعد الآن الى المسيو لابرو صاحب المعمـــل فانه بعد أن اطمأن على ولده برح تلك القرية عائداً الى باريس فوصلها في الساعة الحادية عشرة فتعشى في أحد فنادقها ثم ركب مركبة وأمر سائقها أن يذهب به الى معمله .

وكانت العاصفة في أشد قوتهـــا فلم يتمكن من الوصول الى معمله إلا بعد انتصاف الليل بنصف ساعة .

وكان جيرود في تلك الساعة قد أضرم النار في المعمل وعاد الى مكتب الرئيس كي يتم عمله فيه .

وقد اتفق ذلك في نفس الساعة التي دخل فيها لابرو الى معمله وسمعت حنة صوت إقفال الباب من ورائه .

أما صاحب المعمل فانه لم يكد يصل الى الردهة حتى رأى اللهيب في معمله فأسرع راكضاً الى جهة النار .

وكان جيرود قد أضرم النار أيضاً في المكتب والقى الصندوق الحديدي الذي اختلس منه المال في وسط اللهيب .

أما لابرو فانه رأى باب مكتبه مفتوحاً فأيقن أن النار لم تشتعل اتفاقاً وأن يد مجرم قد أضرمتها فانقض على الباب .

وعند ذلك خرج جيرود ورأى رئيسه هاجماً على البـــاب فلم يجد بدأ من الاندفاع الى النهاية لا سيما وأن صاحب المعمل كان يستغيث بملء صوته .

فجرد خنجره وهجم على رئيسه هجوم الضواري فأغمد الخنجر في صدره وسقط المنكود قتيلاً .

وكانت حنة قد دخلت في تلك اللحظة .

* * *

بعد ربع ساعة اشتهر امر النار وأقبل رجال المطافيء وضمت حنة ولدها الى صدرها وهي تقول :

– لقد قضي علي القضاء المبرم ونجح هذا الشقي في كيده وانتقـــامه فانهم سيتهمونني دون شك باضرام النار .

ولكن كلا .. إني سأبريء نفسي فان لدي كتابه الذي ارسله إلي وهو كاف للدلالة على سوء قصده .

ثم وضعت يدها على جبهتها وقد خطر لها خاطر ارتعد له فرائصها وقالت :

– ولكن أين الرسالة .. إني دعكتها والقيتها مغضبة الى الأرض فهل يمكن ان تضيع ..

كلا فاني سأبحث عنها وسأجدها وستكون خير سلاح لي ادافع به عن نفسي .

وكان يفصل بين المكان الذي كانت فيه وبين غرفتهـــا مساحة مائتي متر فحاولت الذهاب اليها للبحث عن الرسالة فلقيت قريباً منها طائفة من الرجـــال قادمين وسمعت أحدهم يقول :

– لا شك عندي أن هذه الشقية مدام فورتيه قد اضرمت النـــار في المعمل انتقاماً من صاحبه فقد سمعتها بأذني تتهدده بالسوء .

فعرفت حنة أن هذا الرجل كان أمين الصندوق وقالت في نفسها :

– لقد أصبح هذا الرجل من اعدائي وهو يشهد علي دون شك فلا بد لي من الرسالة لتبرئة نفسي .

ثم سارت مسرعة الى غرفتها وقد تجنبت اولئك القادمين ولكنها لم تكد تصل اليها حتى رأت ان اللهب قد اتصل بها فان اشتداد الرياح مد ألسنة النيران فاتصلت بجميع جهات المعمل .

وقد كادت تجن من يأسها لوثوقها ان ذلك البرهان الذي كان سلاحها الوحيد قد التهمته النار فضل صوابها لخوفها من شر العاقبة وضمت ولدها الى صدرها وهربت به راكضة الى جهة الخلاء .

أما ولدها جورج فقد كان شبه مغمى عليه على صدر أمه ولكن يديه كانتا قابضتين على جواده المحتوي في جوفه على ذلك البرهان السديد الذي يئست امه من لقائه وهي لا تعلم أنه في يديها .

* * *

كان ذلك المعمل مبنياً في مكان بعيد عن المنازل وقد التهمت النار داخله ولا تزال أبوابه مقفلة بحيث اضطر الناس ورجال المطافىء الى تسلق جدرانه على السلالم .

وقد تنبه الجميع في الحال لغياب حارسة المعمل وهي حنة .

وكان جاك جيرود ذلك الجاني الأثيم قدم مع القادمين فكان اول من اتهم تلك المنكودة بقوله :

— إن الشقية قد اضرمت النار في المعمل انتقاماً فهلموا بنا لإنقاذ صندوق الرئيس من النار فهموا رفاقه قائلين هلموا بنا الى إنقاذ الصندوق .

وركضوا جميعهم بقيادة جاك وأمين الصندوق الى جهة صاحب المعمل .

أما جاك جيرود فقد كانت حنة رأته قتل الرئيس وأيقن انها لا بد أن تتهمه فهرب في البدء الى جهة الخلاء .

ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى عاد اليه رشده وقال في نفسه : خير لي أن اتهمها فان لدي من البراهين ما يثبت التهمة عليها .

وعند ذلك سمع الناس يصيحون : النار النار فانضم اليهم حتى وصل الى المعمل ورأى النار قد اتصلت بغرفة حنة نفسها .

فتنهد تنهد ارتياح وقال في نفسه :

— إن الرسالة قد فقــدت دون شك فلم يبق علي إلاّ أن اظهر من الغيرة والنشاط والاخلاص والشجاعة ما ينفي عني التهمة التي ستلقيها حنة على عاتقي.

وقد خطر له خاطر شيطاني حين صاح بأعلى صوته بالجماعة قائلاً :

— لننقذ الصندوق .

وكانت النار قد اتصلت بالمكتب واندلعت ألسنتها من كل مكان فيه فقال له أمين الصندوق :

— إننا لا نستطيــع الدخول كما أرى .

فأجابه جاك قائلاً :

— دعني أدخل .

— ماذا تريد أن تصنع ؟

— سوف ترى .

وقد غادره عند ذلك ووثب الى النار غير هيــاب وسمعوا صوته يقول بلهجة المذعر :

— يوجد جثة .

ثم عاد الى رفاقه وهو يحمل جثة رئيسه لأبرو ووضعها أمامهم وهو يتكلف الذعر ويظهر أنه لم يعرف جثة ذلك المنكود وهو قاتله .

فلم يكد أمين الصندوق ينظر اليها حتى صاح قائلاً :

— ويلاه إنها جثة رئيسنا صاحب المعمل .

فتظاهر جاك أنه لم يسمع صوته وعــاد مسرعاً الى المكتب وسط اللهيب فسمعوا بعد هنيهة صوته وهو يستغيث ويقول :

— إني في المكتب.. قرب الصندوق.. أنقذوني .. أسرعوا إلي فإني اختنق.

فحاول الناس أن يسرعوا لنجدته غير أن سقوط الجدار واستفحال النـار حالا دون قصدهم فوقفوا آسفين يقولون :

— لقد التهمت النار جيرود وذهب شهيد غيرته .

وقد حاولوا مراراً أن يخترقوا النار لانقاذه فلم يتمكنوا من ذلك لأن الجدران بجملتها قد سقطت .

* * *

وعند ذلك أخذ رجال المطافىء يرسلون المياه ولكن دون جدوى فإن المعمل بجملته قد استحال الى رماد فجعل أمين الصندوق يسير ذهاباً وإياباً بين الناس وهو يقول :

– تباً لهذه الشقية فهي التي أحرقت المعمل وهي التي قتلت صاحبه وهي التي كانت السبب في موت جاك .

وقد كرر هذا القول مراراً الى أن سمعه رئيس الشرطة الذين قدموا للنجدة فدنا من أمين الصندوق وقال له : من أنت ؟

– إني أمين صندوق هذا المعمل الذي التهمته النار .

– إني سمعت منك ما يدل على أن يداً أثيمة قد أضرمت النار فهل تتهم أحداً ؟

– نعم يا سيدي فاتبعني .

وسار به الى حيث كانت جثة صاحب المعمل وأثر الجرح ظاهر في صدره فقال له : انظر .

فعرف رئيس الشرطة صاحب المعمل وقال مستنكراً : من هـذا أهو صاحب المعمل ؟

– إنه رئيسنا المنكود بعينه .

– من الذي تتهمه بقتله :

– حارسة المعمل .

– ماذا تدعى ؟

– حنة فورتيه .

– على أي برهان تعتمد في اتهامها ؟

– إننا بحثنا عنها في كل مكان من المعمل فلم نجدها وذلك يدل أصدق دلالة على أنها اضرمت النار وأركنت الى الفرار وفوق ذلك فانها اشترت زيت البترول وهي ما اشترته إلا لتحرق به المعمل .

– ما الذي دعاها الى ارتكاب هذه الجريمة ؟

– استياء صاحب المعمل منها فإنه اخبرها أول أمس أنه لا يقبلها في معمله

إلا ثمانية أيام .

— لقد سمعتك تقول انه يوجد ميت آخر ؟

— نعم يا سيدي .

— من هو هذا الميت ؟

— هو جيرود نائب صاحب المعمل فانه اخترق اللهيب ودخل الى المكتب بغية إنقاذ الصندوق فالتهمته النار دون شك وحال تساقط الجدران دون إنقاذه.

— ألم تبقي النار على مكان نستطيع أن نضع فيه جثة صاحب المعمل ؟

— لا يوجد غير مكان المركبات فإنه خارج المعمل .

فالتفت رئيس الشرطة الى جنوده وأمرهم أن يذهبوا بالجثة الى ذلك المكان ثم عاد الى أمين الصندوق فقال له :

— إني سأبدأ التحقيق العاجل وسأبلغ النائب العـــام خبر الحادثة في هذه الليلة فاذكر لي كل ما تعلمه مما يعيننا على التحقيق .

— سل ما تشاء يا سيد .

— إن المسيو لابرو لم يكن متزوجاً أليس كذلك ؟

— كلا يا سيدي فقد كان أرمل وله ولد .

— أله أسرة في باريس ؟

— لا أظن فإنه ليس له غير ولده وأخته أرملة برتين وهي تقيم في قرية قرب بلوا أما الولد فإنه لا يزال حديث السن وهو يقيم مع عمته .

وقد ورد الى المسيو لابرو نبأ برقي أمس من أخته تخبره فيه أن ولده مريض فسافر في الحال على أن يعود بعد يومين أو ثلاثة .

— إذن كيف تعلل عودته الليلة ؟

— أظن أنه لقي ولده معافى فاضطر الى الإسراع بالعودة لكثرة شواغله .

— أتعرف عنوان أخته بالتدقيق ؟

— نعم .

— إذن أرسل لها نبأ برقياً وأخبرها بهذه الفاجعة إذ لا بد من إخبارها .

— سأفعل يا سيدي .

وعند ذلك أرسل رئيس الشرطة سكرتيره الى باريس ليخبر النائب العام بالحادثة وعاد فوضع تقريراً مسهباً عما سمعه ورآه .

- ٧ -

لقد أجمع كل من حضر الحريق وسمع أقوال أمين الصندوق على اتهام حنة بإضرام النار فان كل القرائن كانت تؤيد التهمة ولا سيا فرارها .

أما حنة فانها حملت طفلها وسارت به هائمة على وجهها لا تعلم الى أين تسير . إلى أن انهكها التعب فجلست على العشب تستريح وهي ترى السماء لا تزال تتوهج بنيران المعمل .

وقد تحرك ولدها على صدرها ثم فتح عينيه وشكا لأمه ألم البرد فقبلته قبلات حنو لا يدرك أسرارها غير الأمهات وقالت له :

— إنك إذا مشيت يا ابني تدفأ فهلم بنا .

وقد أخذت بيده وسارت وإياه قانطة لا تعلم ماذا تصنع ولا الى أين تسير .

وكانت تمشي وهي تناجي نفسها فتقول :

— ترى لماذا هربت .. أكان ذلك من الخوف .. ولماذا اخاف ألعلهم يتهمونني حقيقة .. ألعلهم لا يثقون بأقوالي إذا قلت لهم الحقيقة ؟

وهنا ارتعشت فانها ذكرت ما قاله لها جاك وهو :

— إني اتخذت جميع الوسائل اللازمة لثبوت التهمة عليك .

فقالت في نفسها : رباه إنه أصاب فيما قال فانهم سيجدون زجاجات البترول فارغة ويذكرون تلك الأقوال التي قلتها لصاحب المعمل وهي تشبه الوعيد ويعلمون أنه طردني من الخدمة فيثبتون التهمة علي ويعزونها الى الانتقام .. رباه لقد قضي علي ولا بد لي من الإمعان في الهرب .

وقد جعلت تسير مسرعة مع ولدها الى ان طلع الصباح وأشرفت الشمس فتوقفت فجأة إذ رأت من بعد جنديين بينهما امرأة موثقة اليدين فوجف قلبها وارتعدت فرائصها إذ تمثل لها أن الجنود سيقبضون عليها كما قبضوا على هذه المرأة ويبعدونها عن ولدها وقد حادت عن طريق الجنديين ووقفت مختبأة وهي

ترتعش وتقول :

– رباه إني بريئة وذلك الوحش هو الذي ارتكب الجريمة ومع ذلك فاني أنا الذي تختبيء كأني صاحبة الجريمة .

نعم إني بريئة ولكنني مخطئة ايضاً فاني حارسة المعمل وكان يجب أن أبقى فيه وأن لا أهرب فكيف فاتتني هذه الحكمة ؟

وفوق ذلك فاني كنت حاضرة في غرفة صاحب المعمل حين جـــاءه امين الصندوق بالمال وأخبره بمقداره وهو نفس المقدار الذي عينه جاك في كتابه إلي فكيف لم أفطن لذلك وكيف لم ابق في المعمل فكنت اصيح بالشرطـة قائلة : هوذا القاتل وهوذا السارق بل إني كيف لم اتعلق بثيابه حين رأيته قتل الرئيس وفضحت امره ؟

نعم إنه كان قتلني كما قتل رئيسه ولكن أليس الموت أفضل ألف مرة من هذه التهمة الشائنة ؟

وقد قطع عليها ولدها حديث نفسها بقوله : انه جائع .

فسالت دموع تلك الأم المسكينة وقالت له :

– صبراً يا بني سأشتري لك طعاماً حين نصل الى اول قرية .

– إني تعبت فلا استطيع مواصلة السير .

– إني أحملك يا بني فلا تتعب .

فحملته وسارت به نحو ساعة وهي واهية القوى وقد قطعت قلبها شكوى ولدها إلى أن ظهرت لها منازل القرية وأنهك التعب قواها فأنزلت ولدها وقالت له : ألا تستطيع أن تمشي يا جورج،فقد وصلنا ؟

فحاول جورج أن يمتثل لأمه ولكنه لم يستطع فقالت له : انتظرني في هذة الغابة فأذهب وأحضر لك الطعام .

– نعم .

– ألا تخاف وحدك ؟

– كلا .

ثم اضطجع على العشب وعانق جواده فقالت حنة في نفسها : إنه سينام فلا

يشعر بغيابي .

وقد تركته وذهبت مسرعة الى دكان في القرية ولم يكن معهـــا غير بضعة دراهم فاشترت بها طعاماً .

وعادت الى ولدها فوجدته في مكانه نائماً نوماً عميقاً فلم توقظه وجلست بجانبه تفتكر بما اتفق لها وبما ستصير اليه الى ان غلبهـــا النعاس لما عانته من التعب فأطبقت عينيها ونامت بجانب ولدها .

* * *

ولنعد الآن الى المعمل فان قاضي التحقيق جـاء اليه بدعوة رئيس الشرطة وبدأ تحقيقه فسأل أحد الجنود قائلاً :

— هل فتشتم المعمل كما أمرتكم ؟

قال : نعم يا سيدي .

— ماذا لقيتم ؟

— زجاجات كان فيها زيت بترول .

— أحضرها لي .

فاحضر الجندي تلك الزجاجات التي صب جاك ما فيها على الأخشاب ونادى قاضي التحقيق أمين الصندوق فقال له :

— أتعرف هذه الزجاجات ؟

— نعم فإني رأيت حنة فورتيه تملأها ببترول كانت تفرغه من آنية ولا سبيل إلى الانخداع بها فإنها من الزجاجات الخاصة بالمياه المعدنية .

— أتذكر كم زجاجات ملأت ؟

— رأيتها وضعت خمس زجاجات على الأرض .

— حسناً والآن أرجوك أن تجهد ذاكرتك فتروي لنا نفس أقوال الوعيـد التي قالتها حنة فورتيه لصاحب المعمل لا معناها .

— إني ارويها بالتدقيق يا سيد فإن حنة بدلاً من ان تعتذر كما يجب ان تفعل وبدلاً من ان تلتمس من المسيو لابرو أن يغفر لها خطأها أظهرت قحـة عظيمة

وكلمته بغلظة فقالت :

« إنك تطردني فاحذر إذن فإن ذلك لا يعود عليك بالخير » وهو قول يظهر منه جلياً يا سيدي أنها كانت حاقدة عليه وأنها لم تفعل ما فعلته إلا بغية الانتقام.

– أتظن أن الانتقام وحده كان السبب في هذه الجريمة ؟

– هذا الذي أظنه يا سيدي .

– أما أنا فإني أظن عكس ظنك فإن المسيو لابرو قال إنه سيغيب يومين أو ثلاثة أليس كذلك ؟

– هذا الذي قاله لي ولجاك جيرود .

– أيمكن أن يعلم احد عودته الفجائية ؟

– كلا .

– وقد ثبت أنه حين أصيب بالضربة القاتلة كان داخلاً الى معمله فانهم وجدوا قرب جثته حقيبة السفر فلا شك أن الذي طعنه كان في مكتبه وهو لا يتوقع أن يراه فلماذا كان هذا القاتل في المكتب ؟

– لإحراقه .

فهز قاضي التحقيق رأسه وقال :

– لم يكن فائدة من إضرام النار في المكتب فان النار التي شبت في معمل الأخشاب كانت كافية لاتصالها بالمكتب .

فأطرق أمين الصندوق مفكراً ولم يجب .

فقال له القاضي : أتعلم كم كان يوجد من المال في الصندوق ؟

– مائتا ألف فرنك وكان يوجد ايضاً في صندوقي الخاص خمسة آلاف فرنك ولكن النار لم تلتهمها فاني كنت مسؤولاً عن الخمسة آلاف فرنك فوضعتها في منزلي ولا تزال فيه .

– أكانت هذه الأموال ذهباً أم أوراقاً مالية ؟

– كانت كلها أوراقاً مالية ما خلا ثلاثة آلاف فرنك .

– أكنت وحدك عالماً بما يوجد في الصندوق ؟

فتمعن هنيهة وقال : كلا فقد كان يوجد في غرفة الرئيس اثنان حين

أعطيته المال .

ــ من هما ؟

ــ جاك جيرود وحنة فورتيه .

فظهرت على قاضي التحقيق علائم الارتياح لاعتقاده أنه بدأ يكشف السر وعاد أمين الصندوق الى الحديث فقال :

ــ نعم نعم إن حنة كانت عارفة بوجود هذا المال في الصندوق و كذلك جاك. غير أن ذلك قضى على جاك المنكود فان النار لم تلتهمه إلا لأنه كان عارفاً بوجود المال فخاطر بحياته لانقاذ الصندوق .

ــ كيف اتفق وجود حنة فورتيه في مكتب صاحب المعمل حين دفعت له المال ؟

ــ ذلك لأن صاحب المعمل دعاها اليه كي يصدر لها أمراً بشأن سفره .

أأنت واثق من أنها عرفت مقدار ذلك المال ؟

ــ كل الثقة فاني ذكرت القيمة بصوت مرتفع .

ــ أكان مفتاح المكتب مع حنة ؟

ــ نعم يا سيدي بل كانت تحمل جميع مفاتيح المعمل .

ــ أكانت تقيم في المعمل وحدها في الليل ؟

ــ نعم يا سيدي .

ــ هل لك أن تخبرني عما تعرفه من أخلاق هذه المرأة ؟

ــ إنها كانت متكبرة طماعة شديدة الحقد .وتظهر بمظاهر لا تنطبق على حالتها الفقيرة .

ــ ألها بنون ؟

ــ لها ولدان أحدهما غلام يعيش معها والثاني بنت تعيش عند مرضع في الريف .

ــ أحق ما قيل أن زوجها قتل في المعمل ؟

ــ نعم يا سيدي ولكنه قتل بخطئه ولم يعين صاحب المعمل امرأته لحراسة معمله إلا لأن زوجها قتل فيه حتى أنه حين طردها كان يفتكر بمكافأتها وتعيينها

في خدمة تقيها شر العوز ولكن هذه المرأة الشريرة كافأته عن إحسانه بالقتل.
فالتفت قاضي التحقيق عند ذلك الى النـائب العمومي والى رئيس البوليس فقال لهما :
ـ ألا تريان ما رأيته فانه لم يبق مجال للشك ولقد كنت مصيباً في ما اعتقده وهو أن الجريمة لم تكن لمجرد الانتقام ؟
فإن حنة كانت تريد أن تنتقم وتسرق معاً فإنها بعد أن أعدت معـدات الحريق ذهبت الى الصندوق فكسرته وسلبت ما فيه وأضرمت النار .
فلما أرادت الخروج من مكتب المسيو لابرو فاجأها بدخوله فطعنته تلك الطعنة القاتلة ألا تريان ما أراه ؟
فوافقه الإثنان على رأيه ولكن النائب العمومي اعترض قائلاً :
ـ بقي علينا أن نعلم إذا كان الصندوق الحديدي من الطرز الحـديث فإذا كان ذلك فلا بد أن يكون لحنة شريك بالجناية فان المرأة لا تستطيـع وحدها كسر مثل هذا الصندوق .
فأجابه أمين الصندوق قائلاً :
ـ كلا يا سيدي فان الصندوق كان من الطراز القديم يسهل كسره لأقل عنف وقد طالما نبهت المسيو لابرو الى استبداله بسواه فلم يفعل .
أما حنة فانها قوية البنية لا يصعب عليها كسر مثل هذا الصندوق .
ـ إن السرقة ظاهرة في كل حال لأنه لا يوجد في الصندوق ثلاثة آلاف فرنك ذهباً فلو كانت باقية فيه لصهرت النار ذلك الذهب وظهر سائله .
ثم التفت النائب العام الى الطبيب الذي فحص الجثة وقال له :
ـ هل عرفت حين فحصك نوع السلاح الذي قتل به صاحب المعمل ؟
قال : نعم فإنه من نوع المدى الكبيرة ولكن الشفرة أصابت قلب المطعون فقتل في الحال .
ـ إذن يجب أن يكون للطـاعن قد طعن بملء قوته ولكن بقي علي أمر لا يزال مشكلاً علي ؟
فقال له قاضي التحقيق :

ـ ما هو ؟

ـ هو أن حنة كانت موقنة أن صاحب المعمل مسافر فإذا كانت هي السارقة لوجب أن تكون آمنة مطمئنة فلماذا تحمل السلاح ؟

ـ فأجاب رئيس البوليس : ألا تزال تعتقد أنه يوجد لها شريك ؟

ـ نعم فإني لا أعتقد ان امرأة تستطيع وحدها اتيان مثل هذه الجرائم .

فقال قاضي التحقيق : أنها قد تكون أحضرت ذلك السلاح كي تستعين به على كسر الصندوق .

وفي كل حال فإن الجريمة ثابتة عليها بدليل فرارها ولكن يمكن أن يكون لها شريك فهل تعرفون علائقها وقد كانت أرملة فهل كان لها عشيق ؟

فشهد كثيرون من الحاضرين بعفافها وعند ذلك دخل أحد العمال تصحبه امرأة فقال للقاضي :

ـ إن لدي برهان يا سيدي يدل أصدق دلالة على أن الجريمة كانت مدبرة من قبل .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ من امرأتي وهي بقالة فإنها هي التي باعت حنة فورتيه البترول وهذه هي امرأتي فسلها إذا شئت .

ـ أتعرفين حنة فورتيه ؟

قالت : إني أعرفها حق العرفان فقد كانت من زبائني .

ـ أتذكرين أنها اشترت منك زيت البترول .

ـ دون شك فقد كان ذلك منذ أربعة أيام بعد الظهر وقد جاءتني مع ولدها فاشترت مقدار خمسة ليترات فاستغربت شراءها .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها اشترت قبل يوم واحد مقدار خمسة لترات ايضاً وقد سألتها عن السبب فقالت لي : إن ولدها عثر بالآنية وهو يلعب فكب ما فيها .

ـ ماذا تعرفين من أخلاق هذه المرأة ؟

ـ إنها طباعة .

وعند ذلك روت له جميع ما دار بينها وبين حنة من الحديث على ما بسطناه في مقدمة هذه الرواية .

فلم يبق شك لدى القضاة بثبوت التهمة على حنة فورتيه وصدر الامر بإلقاء القبض عليها .

- ٨ -

في الساعة الأولى بعد ظهر اليوم نفسه كان رجل لا يزال في مقتبل الشباب وقد ارتدى أجمل الملابس ينزل من مركبة الى محطة مانت لازار .

وكان يحمل حقيبة سفر فدنا من أحد موظفي المحطة وقال له : أليست الآن ساعة سفر القطار الى الهافر ؟

ـ قال : نعم ولكن موعد قطع التذاكر فات فإن القطار على وشك السفر .

فقطب المسافر حاجبيه وقال :

ـ متى يسافر القطار القادم ؟

ـ قال : في الساعة السادسة ونصف .

فخرج المسافر من المحطة الى شارع امستردام وهو يقول في نفسه :

ـ لقد كنت أؤثر الإسراع بالرحيل ولكن لا بأس فسأغتنم فرصة هذا التأخر لآكل فإني شديد الجوع .

وقد ذهب الى أحد المطاعم فأكل وطلب أدوات الكتابة فأرسل نبأ برقياً الى فندق في الهافر يدعى فندق الأميرالية .

وفي الساعة السادسة ونصف ركب القطار وكان مقيماً في غرفة لم يكن فيها سواه ففتح حقيبته وأخرج منها أوراقاً مختلفة جعل ينظر فيها بإمعان .

وكانت هذه الأوراق رسوم آلة ميكانيكية وهو ينظر إليها ويبتسم ابتسام الفوز .

وقد عرف القراء دون شك أن هذا المسافر إنما كان جيرود بعينه وقد غير زيه وصبغ لون شعره .

فلم يعد يعرفه من رآه انه ذلك اللص السفاك الذي أحرق معمل رئيسه

وعرض مدام فورتيه المنكودة لتلك التهمة الهائلة .

وحكايته أنه حين اخترق النار وتوارى بين اللهيب موهماً رفاقه أنه يريد إنقاذ الصندوق كما تقدم كان غرضه من هذه الحماسة أن يوهم الناس أنه مات بالنار ولذلك استغاث حين سقط الجدار لوثوقه أنهم لا يستطيعون الوصول إليه .

ولكنه كان يعرف ذلك المكان الذي دخل إليه وجميع مخارجه حق العرفان فبعد أن استغاث بصوت خافت يدل على النزع خرج من نافذة في الكنيسة تؤدي الى بيت لابرو وخرج من ذلك الباب الصغير الذي كان يدخل منه صاحب المعمل حين يعود في الليل الى المنزل .

وذهب آمناً مطمئناً وهو واثق أن النار لا تبقي على شيء في المعمل وأنهم سيعتقدون أنه مات بالنار شهيد شجاعته وغيرته .

وقد تنفس الصعداء وسار تواً الى غرفتـــه فغير ملابسه ووضع الأموال والأوراق التي سرقها في منديل خبأه تحت ملابسه وعند الفجر ذهب ماشياً الى باريس وهو لا يشعر بشيء من التعب .

وكان أول ما فعله حين وصل الى باريس أنه ذهب الى حـلاق فصبغ شعره بلون السواد بعد أن كان أشقر .

ثم ذهب الى محطة سانت لازار وأرسل ذلك التلغراف الذي تقدم لنا ذكره الى فندق الاميرالية في الهافر وقد أمضاه باسم بول هرمان .

ولم يكن هذا الاسم الذي تسمى به من مخترعاته فقد وجد رجل من رفاقه في المهنة كان يدعى بهذا الاسم وقد توفي وكان جاك قد استولى على أوراقه لأنه كان يعيش وإياه في غرفة واحدة وقد مات الرجل في المستشفى وبقيت أوراقه في غرفة جاك .

وكان بول هرمان يشبه جاك بعض الشبه ما خلا لون شعره فلما صبغ شعره بات الشبه كثيراً بينهما .

* * *

ولنعد الآن الى حنة فقد تركناها نائمة بجانب ولدهـــا في الغابة وقد نامت نحو ساعتين .

فلما صحت كانت الشمس قد ارتفعت وجورج لايزال نائماً وهو معانق جواده فجعلت حنة تنظر إليه بحنو والدموع تجول في عينيها .

ثم انها لم تتمالك عن تقبيله فلما قبلته صحا وكان أول ما قاله حين فتح عينيه انه شكى من الجوع .

فاحتضنته وجعلت تطعمه مما اشترته وهي لا تأكل في حين أنها كانت أشد جوعاً من ولدها ولكنها لم تستطع أن تزاحم ولدها على طعامه .

وقد طال ذلك اليوم عليها حتى حسبته دهراً فإنها لم تكن تريد أن تدخل الى القرية في النهار .

حتى إذا أقبل الليل دخلت الى القرية وسألت فيها عن منزل الكاهن .

كانت هذه القرية تدعى شيفري وكان الكاهن يدعى فيلكس لوجيه وهو في الثامنة والخمسين من عمره باسم الثغر تدل ملامحه على السلامة وحسن الطوية .

وكان يقيم في منزله مع أخته وهي تزيده عامين ومع خادم لهما وكان عندهما في ذلك اليوم ضيف فتى وهو من المصورين .

فلما وصلت حنة الى منزل الكاهن سقطت جاثية على الأرض وقد خارت قواها واستنجدت بأهل المنزل فلقيتها الخادمة وقد أشفقت عليها إشفاقاً عظيماً وأسرعت الى الكاهن تخبره بأمرها فبادر إليها مع اخته واعتنى بها وبطفلها عناية عظيمة كادت تنسيها أحزانها .

- ٩ -

يذكر القراء أن أمين الصندوق أرسل الى أخت صاحب المعمل رسالة برقية يخبرها فيه بالنكبة التي داهمتها .

فلم تكد تلك الأخت الثاكلة تعلم هذه الفاجعة حتى أسرعت مذعورة الى باريس وجاءت منها الى المعمل فوجدته قاعاً صفصفاً لم تبق النار منه من شيء .

ولقيت هناك أمين الصندوق ينتظرها فأخبرها بجميع ما اتفق لأخيها ولمعمله وأن حنة فورتيه كانت الجانية في القتل والحريق .

فلم تصدق ما تسمع وقالت : أتقتل تلك المرأة اخي وهو لم يكن يريد لها

إلا الخير ؟

إن ذلك لا يحتمل التصديق وإن خطأ القضاء مشهور فلا بد أن تكون التهمة خطأ فإن المرأة لا تستطيع اتيان هذه المنكرات .

ـ إن الأدلة مجمعة على اتهامها بحيث لم يبق مجال للشك .

فلم تعترض اخت صاحب المعمل ولكنها كانت غير مقتنعة فقال لها أمين الصندوق :

ـ إن قاضي التحقيق يريد أن يراك وقد عهد إلي بإخبارك .

ـ سأذهب إليه .

ـ والآن فلنبحث في أعمال سيدي ورئيسي المأسوف عليه فان النار قد التهمت كل ما في المعمل وذهبت الدفاتر فريسة لها ولكني أستطيع تجديدها فاني أذكر جميع الحسابات .

ـ هل كان يوجد مال في الصندوق ساعة الحادثة ؟

ـ وا أسفاه يا سيدتي إنه كان يوجد مبلغ عظيم .

ـ أفقد ؟

ـ كله .

ـ إذن لقد بات المعمل مديناً .

ـ بمائتي الف فرنك .

ـ مائتي ألف فرنك ويلاه كيف ندفعها إن هذا محال إذ لا مال لي ولا بد لاسم اخي أن يهان .

ـ كلا يا سيدتي ومن يجسر على إهانة رئيسي العزيز ؟

ـ دائنوه .

ـ إنهم لا يبلغ الظلم منهم الى هذا الحد فانهم يعلمون أن أخاك كان مثال الشرف وهم يعلمون نكبته فلا تجدين بينهم من يلومه بل إنهم يشفقون عليه .

وفوق ذلك فان المعمل كان مؤمناً عليه وستدفع شركات التأمين ما يوازي ذلك الدين بحيث لا يكون اخوك مديناً لأحد .

ـ هل أخبرت شركات التأمين ؟

ـ نعم وقد جاء وكلاؤها في صباح اليوم .

فتنهدت وقالت : إذن لم يبق لابن أخي شيء من الثروة .

ـ ما خلا الأرض التي بني عليها المعمل .

ـ ولكن هذه الأرض لا تباع بسهولة على أن ابن اخي سيكون عنـــدي وسيكون مستقبله مضموناً باذن الله وفي كل حال فاني أشكرك لمـا اظهرته من الغيرة والاخلاص .

* * *

وبعد أن احتفلوا بدفن صاحب المعمل ذهبت اختـــه الى قاضي التحقيق فاستقبلها آسفاً لنكبتها وقال لها :

ـ أبدأ فأقول يا سيدتي إن هذه النكبة الفادحة التي البستك ثوب الحـــداد سينتقم لها فإني انتظر في كل ساعة أن تردني اخبار القبض على المرأة الجانية .

قالت : واأسفاه إن ذلك لا يرجع لي أخي المفقود .

ـ هو ذاك يا سيدتي لنكد الطالع فإن الانتقـــام والحزن لا يردان مفقوداً وقد كنت انتظر حضورك لأسألك عن زمن رجوع اخيك من عندك فقد قيل لي أنه ذهب لعيادة ولده .

ـ نعم يا سيدي وأنا الذي دعوته إلي غير أنه حين جاء ورأى ان الخطر قد زال عن ولده عاد في اليوم التالي بحيث لم يقم عندي غير ليلة .

ـ أتعلمين بأي قطار سافر ؟

ـ بقطار الاكسبرس الذي يسافر في الساعة الرابعة ونصف .

ـ إذن لقد كان يجب ان يصل الى باريس في الساعة التاسعة وقد تأخر فيها لأسباب لم نعلمها بعد فلما عاد الى المعمل استقبلته تلك المرأة بالنار والخنجر ؟

ـ أواثق يا سيدي من ان حنة فورتيه هي القاتلة ؟

ـ لم يبق لدي شيء من الشك ألعلك تعرفين هذه المرأة ؟

ـ نعم فهي امرأة عامـــل قتل في معمل اخي وكان اخي يهتم بمستقبلها كل الاهتمام .

ـ يظهر انك تجهلين بأن اخاك طردها من الخدمة لأنه لم يكن راضياً عنها .

ـ كلا إني لا أجهل ذلك ولكن اخي لم يكن مستاء منها بل انه كان يرى ان المنصب الذي كانت تتولاه لا يليق إلا بالرجال ولذلك اراد استبدالها وتعيينها لخدمة تريحها وقد طلب إلي يوم زارني ان أقيمها عندي .

ـ أكانت حنة عارفة بنوايا أخيك بشأنها ؟

ـ لا أظن .

ـ إذن لا شك انها فعلت ما فعلته بغية الانتقام .

ـ ألعلك واثق من ذلك ؟

ـ لقد قلت لك يا سيدتي انه لم يبق سبيل للشك لا سيما وأن فرارها قد ثبت جريمتها .

ـ لا ريب ان فرارها يحمل على الشبهات ولكنها قد تكون هربت لرعبها .

ـ ما الذي يدعوها الى الرعب ما زالت بريئة وفوق ذلك فان شراءها البترول لا يدل على ثبوت الجريمة فقط بل على انها ارتكبتها بعد التمعن والتروي .

ـ ما الذي دعا هذه الشقية الى الجريمة ؟

ـ الانتقام والسرقة .

ـ ألعلها سرقت ؟

ـ إن ذلك لم يثبت بعد ولكنه مرجح فان اخاك قتل في الرواق المؤدي الى مكتبه حيث يوجد المال فكيف اتفق وجود القاتلة هناك وأي غرض لها غير السرقة ؟

ـ وعلى الجملة فانك لا تتهم غير حنة فورتيه ؟

فنظر القاضي اليها نظرة الفاحص وقال :

ـ إنهم لم يتهموا سواها فهل توجسين شكاً بأحد ؟

ـ أرى انه لا بد لي يا سيدي أن اخبرك بكل ما أعلمه وأفتكر به فقد تداولت مع اخي مداولة طويلة يوم جاء لعيادة ولده فأخبرني أنه اخترع آلة ميكانيكية كان يرجو أن ينال منها ربحاً جزيلاً .

ـ هل أطلع أحداً على سر هذا الاختراع ؟

ـ نعم فإنه اطلع عليه رجلاً قد يكون خطر له أن يستأثر بالاختراع دونه فارتكب الجريمة لتحقيق أمنيته .

ـ من هو هذا الرجل الذي ائتمنه على سره ؟

ـ هو جاك جيرود نائبه في المعمل .

ـ إذا كنت تتهمين جاك يا سيدتي فأنت مخطئة خطأً عظيماً .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه مات شهيد غيرته وفي سبيل انقاذ صندوق اخيك .

ـ إذن أرجوك ان تعذرني لاتهامه فإني لم أكن عالمة بموته رحمة الله عليه .

ـ لا سبيل الى تخطئتك فأعذرك فإنك تحاولين مثلنا معرفة القاتل فهل لديك ما تخبرينني به أيضاً ؟

ـ كلا .

ـ إذن أنت مطلقة السراح يا سيدتي وإذا حدث ما يدعو الى سؤالك تشرفت بالكتابة إليك .

ـ ١٠ ـ

ولنعد الآن الى حنة فورتيه فإنها لقيت في منزل الكاهن كثيراً من العناية فبعد أن أكلت مع ولدها أدخلوها الى غرفة كي تستريح فيها بالرقاد وعاد الكاهن الى قاعة الاجتماع تصحبه أخته وضيفها المصور وهم يتحدثون بهذه المنكودة دون أن يعلموا شيئاً من أمرها سوى أنها قادمة من ارتوفيل وقد اتفقوا على أن هيأتها تدل على السلامة وأن الفقر أو الظلم قد دعاها دون شك الى المهاجرة مع ولدها فقرروا أن يساعدوها بما يتيسر من المال كي تستعين به على مواصلة سفرها .

وفيما هم يتحدثون أقبل ساعي البريد يحمل الى الكاهن جريدة كانت ترد اليه في كل يوم فأخذها وجعل يقرأ فيها بينما كانت أخته تحادث المصور .

وكان أول ما استلفت نظره في هذه الجريدة عنوان كتب بحروف كبيرة وهو « مقتل فظيع » .

فجعل يقرأ باهتمام حتى أتى على آخره فصاح صيحة دهش انتبه لها المتسامران

وسألاه عما قرأه فأعاد قراءة المقالة بصوت مرتفع .

وكانت هذه المقالة تتضمن حادثة المعمل بتفاصيلها واتهـــام حنة فورتيه بالقتل والاحراق .

وقد ذكرت الجريدة أوصاف حنة بالتدقيق وقالت أنها هربت مع ولدها الذي يدعى جورج وهو يبلغ الثالثة من العمر :

فكان دهش الثلاثة عظيماً لأنهم أيقنوا أن هذه الأوصاف تنطبق على أوصاف هذه المرأة التي لجأت اليهم لاسيا وأنهم علموا أن الغلام ابنها وأنه يدعى جورج فقالت أخت الكاهن :

— لم يبق ريب أن هذه المرأة بل هذه الذئبة المتلبسة بلباس الحمـــلان هي صاحبة الجريمة الهائلة .

فقال لها أخوها : صبراً يا أختي فإنها في ضيافتنا ولا يجب أن نتسرع باتهامها وسأعلم حقيقة أمرها .

— وإذا كانت مجرمة أتسلمها الى القضاة ؟

— إني لا أشي بها ولا أدعها تقيم في بيتي فليبحث عنها البوليس حتى يظفر بها .

* * *

وقد صبر الكاهن الى أن صحت حنة من رقادهـــا فاجتمع بها وقال لها : أرجو أن تكوني قد استرحت من عناء السفر .

قالت : نعم يا سيدي فقد عادت إلي قواي بفضلك .

— وقد بت قادرة على مواصلة السفر أليس كذلك ؟

فاحمر وجه حنة وتلعثم لسانها فلم تستطع الجواب فقال لها :

— أظن أنك لم تحضري الى هذه القرية بغية الإقامة فيها ؟

فأجابته بصوت يضطرب :

— بل هذا كان قصدي يا سيدي فإني حين طرقت بابك كنت قادمة لأتوسل اليك أن تسعى لي بعمل يساعدني على القيام بأود ولدي وابنتي .

— ألك ولدان ؟

— نعم يا سيدي أحدهما ولدي جورج الذي رأيته معي والثاني ابنة تبلغ

عاماً من العمر وهي عند مرضع في الريف .

– وأين أب ولديك ؟

– إنه مات .

– إذن أنت أرملة ؟

– نعم يا سيدي . .

– ولكني لا أستطيع أن أجد لك عملاً إلا إذا عرفت من أنت فهل لديك أوراق رسمية تدل على اسمك وشهادات تدل على سابق خدماتك فإنك غريبة في هذه القرية ولا يمكن إدخالك في خدمة أحد بدون هذه الأوراق .

فارتجفت حنة ولم تعلم بماذا تجيب فلم يخف اضطرابها على الكاهن وقال لها : ماذا تدعين ؟

– حنة .

– وما اسم عائلتك فإنك كنت متزوجة ولا بد أن يكون لك اسم عائلة ؟

– حنة فورتيه .

– وأنت قادمة من الفورتفيل ؟

فوقفت حنة مضطربة وقالت : يظهر أنك عارف بجلية الأمر .

– نعم أيتها الهاربة المنكودة إني واقف على الحقيقـــة وأعلم أن البوليس يبحث عنك في كل مكان .

– لماذا يبحث البوليس عني وبماذا يتهمونني ؟

– بإحراق معمل لابرو وبقتل صاحب المعمل .

– ولكنها تهمـــة زور وإني أقسم بالله الذي يسمعني وبولدي الذي لا أحب سواه في هذا الوجود أني بريئة من هذه التهمة .

وقد تأثر الثلاثة للهجتها لتبين الصدق فيها فنظر كل منهم الى الآخر ثم التفت اليها الكاهن فقال :

– إذا كنت بريئة كما تقولين فماذا دعاك الى الهرب ؟

– لماذا هربت .. نعم إنك مصيب في اعتراضك وهذا الذي يرجح ثبوت التهمة علي ولكني هربت لأنه كان لدي برهان جلي على ثبوت براءتي .

– وأين ذهب البرهان ؟
– التهمته النار فيما التهمت وإني سأخبرك يا سيدي بكل ما اتفق فإن جميع الأدلة تثبت التهمة علي ولكني بريئة .
– كيف يمكن يا ابنتي أن أثق بما تقولين ؟
– لا شك عندي أن ذلك صعب ولكني أتوسل اليك يا سيدي أن تسمع حكايتي ثم تحكم بما تشاء .

ثم قصت عليه بصوت مضطرب حكايتها منذ قتل زوجها بانفجار في المعمل الى غرام جاك جيرود بها وذكرت له أمر تلك الرسالة التي كتبها اليها يسألها فيها موافقته على الفرار .

« وهي الرسالة التي حشى بها ولدها جورج بطن جواده » .

وأخبرته بما اتفق لها حين رأت الحريقة وأسرعت الى المعمل فرأت جاك جيرود ورأت بجانبه جثة صاحب المعمل الى آخر ما علمه القراء من أمرها .

ولما أتمت حكايتها قالت له :

– إني لم أعلم الى الآن معنى رسالته وهذه الثروة التي كان يعرضها علي فإنها كانت ثروة ذلك المنكود لابرو التي كان عازماً على اختلاسها .

أما سبب هربي فهو أني حين رأيت الجناية الفظيعة قد حدثت وحين سمعت هذا الرجل يدعوني الى الفرار معه أو ينذرني بإلصاق التهمة بي وحين رأيت أن النار قد التهمت غرفتي وذهبت تلك الرسالة وهي كل براهيني على أنه هو الجاني . إني حين رأيت كل ذلك كبر علي الأمر فهربت وأنا لا أعلم ماذا أفعل ولا الى أين أسير فكان فراري أعظم مؤيد لتهمتي .

فلما أتمت حديثها قال لها الكاهن وقد وثق من صدقها :

– إن الأم التي تحلف بولدها لا تكذب وقد وثقت من صدق قولك إنما أشكل علي موت جيرود .

فقد قرأت في الجريدة أنه مات بالنار شهيد غيرته لأنه اخترق عبابها كي ينقذ صندوق رئيسه فإذا كان هو السارق وهو القاتل فكيف يخاطر بحياته الى أن يموت بالنار ؟

قالت أهو يموت .. أهو يذهب شهيد غيرته .. إن ذلك لا يحتمل التصديق.

– ولكن الجرائد روت هذا الخبر نقلاً عن سجل البوليس .

– إذن لقد قضي علي قضاء مبرماً فإذا كان جاك جيرود مات كما يقولون فلا يوجد قوة في الوجود تنقذني من التهمة والعقاب إذ لم يكن لي غير رجاء واحد وهو أن ذلك الشقي الأثيم لا يجسر على إنكار جريمته أمامي وقد مـــات هذا الأثيم فماتت بموته آمالي .

– سكني روعك يا ابنتي فإنك أخطأت دون شك بفرارك إذ كان يجب ان يجدوك في المعمل لأنك حارسة له فكان فرارك خطأ لا جريمة وما عـــدا ذلك فأنت بريئة كما يدل صوتك وعيناك .

– ولكن القضاة لا يسمعون هذا الصوت ولا ينظرون هذه النظرات .

– يجب أن تسرعي الى القضاة من تلقاء نفسك وتخبريهم أنك بريئة ولا أدري ما يكون من تأثير ذلك عليهم ولكني أرجو أن يحملهم على الاعتقاد ببراءتك .

– ولكني إذا سلمت نفسي ألقوني في السجن فافترقت عن ولدي .

– إن ذلك لا بد منه وا أسفاه فأسرعي يا ابنتي الى تسليم نفسك فإن ذلك خير لك من أن يقبضوا عليك وربما كانوا قادمين اليك هنا .

– أيقبضون علي هنا في منزلك ؟

– إن منزلي كمنازل أفراد الناس .

فبكت حنة بكاء يحمل على الإشفاق وقالت : ولكن ماذا أصنع بابنتي وهي عند المرضع وبولدي وهو معي ؟

وقد رآها ولدها تبكي فأسرع اليها وقال لها : لماذا تبكين يا أمي ؟

فضمته حنة الى صدرها وجعلت تقبله وتغسل وجهه بدموعها وعند ذلك قرع الباب الخارجي وسمع لغط من الخارج اضطربت له حنة وقالت :

– ويلاه إنهم قادمون للقبض علي .

وبعد هنيهة دخل الى الحديقـــة نحو عشرين رجلاً بينهم شيخ القرية وكثير من الجنود . –

وقد دنا شيخ القرية من الكاهن فحياه باحترام وقال له :

– أسألك المعذرة يا سيدي لدخولي الى منزلك مع الجند فإني قادم باسم الشرع .

فذعرت حنة لما سمعته وتراجعت الى الوراء فالتصق بها ولدها وأمسك بثوبها بإحدى يديه وهو ممسك بالأخرى الخيط المعلق به جواده. واستلفت هذا المنظر أنظار المصور فأخذ مذكرة بما رآه .

أما الكاهن فإنه أجاب شيخ القرية قائلاً :

– إني أعلم السبب الذي أتيتم من أجله فإنهم قادمون للقبض على امرأة تدعى حنة فورتيه .

– هو ذاك يا سيدي فإنها متهمة بثلاث جرائم وهي الحريق والسرقة والقتل.

فمشت حنة الى الشيخ وقالت له : ذلك كذب وافتراء فإني بريئة .

– ليس من شأني الحكم في براءتك فإن ذلك حق القضاة فهل أنت هي حنة فورتيه ؟

– نعم أنا هي .

– أما كنت حارسة معمل جيل لابرو في فورتفيل ؟

– نعم .

فأشار الشيخ إشارة الى زعيم الجنود فوضع يده على كتفها وقال لها : إني أقبض عليك باسم الشرع .

فأجابته حنة بلهجة القنوط : ليقبضوا علي وليزجوا بي في أعمق السجون وليحكموا علي بالإعدام ولكن كل ذلك لا ينفي براءتي أمام نفسي وأمام الله .

فأمر الزعيم جنوده أن يوثقوا يديها .

فذعرت وقالت : كلا كلا لا أريد أن أكون موثقة اليدين .

فجعل الطفل يبكي وقال لها الكاهن : لا تقاومي يا ابنتي وامتثلي للجنود فهذا قضاء الشرع .

وقد أوثقوا يديها وأمروها بالمسير فتعلق بها ولدها وجعل يناديها ويقول : لا تذهبي يا أماه فإني خائف .

ـ لا تبك يا بني وتعال معي .

فاعترضها زعيم الجند قائلاً :

ـ كلا إنه لا يذهب معك .

فرعبت حنـــة رعباً لا يوصف وقالت : أتفرقونني عن ولدي وهو لا يزال طفلاً !

ـ ذلك لا بد منه فقد صدر إلي الأمر بالقبض عليك وحدك وستذهبين أنت الى السجن وولدك الى ملجأ الاطفال الى أن تصدر أوامر أخرى .

فاصفر وجه حنة حتى بات كوجود الأموات وقالت :

ـ ولدي سيذهب الى ملجأ الأطفال ؟

ثم التفتت الى الكاهن وبسطت له يد المتوسل وقالت :

ـ التمس منك يا سيدي الكاهن أن تتوسط في أمري وأن تخـــبر هؤلاء الجنود أن الأم يستحيل أن تفترق عن طفلها .

فأجابها الكاهن قائلاً : يجب أن تمتثلي للشرع يا ابنتي ولا تخشي على ولدك فانه لا يذهب الى ملجأ الأطفـــال بل سأبقيه عندي الى أن تثبت براءتك كما أرجوه .

وإذا قدر الله أنك لا تستطيعين كشف تلك الظلمات المكتنفة بالجريمة وحكم عليك فاني أتعهد لك أني لا أتخلى عن ولدك جورج .

وتندمت أخت الكاهن منها فقالت :

ـ لا تضطربي ولا تبكي فان ولدك سيجد أماً تنوب عن أمه .

فشهقت حنة بالبكاء وقالت : رباه أقضي علي أن لا أرى ولدي ..

رباه إني بشر وذلك فوق قدرة البشر .

وكان الولد لا يزال يبكي فحملته أخت الكاهن وقالت له وهي تعانقه :

ـ إن أمك يا بني محتاجة الى السفر ولكنها ستعود قريباً فهل تريد أن تبقى معي ؟

ـ أأبقى معك ومع الكاهن ؟

قالت : نعم .

ـ أرضى إذا رضيت أمي ووعدتني أن تعود قريباً .

فقالت حنة بلهجة القنوط : خذوه .... خذوه . ورجائي أن تحبوه وأن تذكروا له دائماً أمه . .

نعم يا ولدي الحبيب إني أرضى أن تبقى مع الكاهن المحترم ومع اخته فإنهما سيقولان لك دائماً أن أمك التي تعبدك بريئة .. أسمعت .. إن أمك تعبدك فلا تنسها مدى الحياة .

ثم أخذته بين يديها فضمته الى صدرها وقبلته قبلات أسالت الدموع حتى من عيون الجنود ودفعته الى الكاهن ثم هربت بسرعة الى الجنود كأنها لم تعد تطيق أن ترى ولدها .

فسار بها الجنود والمصور واقف ينظر الى هذا المنظر المؤثر ويقول :

ـ إني سأصور من هذه الحادثة أبدع رسم وسيتحدث به الناس .

* * *

أما جاك جيرود علة هذه النكبة فإنه سافر باسم بول هرمان على باخرة تسير من الهافر الى سونهامبتون وذهب منها الى لندرا كي يسافر مع أول باخرة الى اميركا .

وقد قرأ ما كتبته الجرائد عن حريقة المعمل وعن توهم الناس أنه مات فيها .

وعن اتهام حنة فورتيه فاطمأن وسر لهذه النتيجة فلندعه الآن في مشاغله ولنعد الى حنة فورتيه فنقول :

ـ إنه حين اتصل بقاضي التحقيق نبأ القبض عليها أمر بأن يأتوه بها وتولى تحقيق حادثتها كما يأتي فقال :

ـ ما اسمك ؟

ـ حنة فورتيه .

ـ وعمرك ؟

ـ ستة وعشرون عاماً فقد ولدت في باريس في ١٥ اكتوبر سنة ١٨٥٣ .

ـ هل أنت متزوجة ؟

ـ إني أرملة وكان زوجي ميكانيكياً في معمل المسيو لابرو الذي يتهمونني

بأني أحرقت معمله وقتلته وسرقت ماله .
— إنك عالمة بما يتهمونك فبماذا تجيبين ؟
— بكلمة واحدة وهي اني « بريئة » .
— إذا كنت بريئة كما تقولين فلماذا هربت من المعمل مع ولدك بدلاً من أن تستنجدي حين شبت النار ؟
فسكتت حنة ولم تجب .
فقال لها القاضي بلهجة دلت على نفاد صبره : ما بالك لا تجيبين ؟
— وأية فائدة من الجواب فإنك لا تثق بصدقي ؟
— ذلك لأنك ستكذبين .
— كلا بل لأن الحقيقة غير واضحة وكل الأدلة تثبت تهمتي .
وكيف تثق بكلامي إذا لم يكن لدي حجة تؤيده لا سيما وأنت تعتقد بأني مجرمة وأنا بريئة .
— أتنكرين أنك قتلت صاحب المعمل ؟
— أنكره كل الإنكار .
— أتنكرين ايضاً أنك كنت تكرهينه ؟
— دون شك ولماذا أكرهه ؟
— لأنه طردك .
— كلا يا سيدي إنه لم يطردني ولكنه قال لي : إني لا اصلح لحراسة المعمل وأنه سيعينني في منصب آخر .
— ألم تحقدي عليه بسبب موت زوجك في معمله ؟
— كيف أحقد عليه بسبب موت لم يكن عليه شيء من التبعة فيه وفوق ذلك فإن المسيو لابرو كان لي خير نصير بعد وفاة زوجي .
— أتنكرين ايضاً أنك أحرقت المعمل ؟
— أنكر الإحراق كما أنكر القتل فاني بريئة من هذا الذنب الفظيع .
— هاتي برهانك إن كنت صادقة .
— كيف تريد أن أبرهن ؟

– بدحض الأدلة المثبتة جريمتـــك فانت اشتريت البترول مرتين في يومين وأفرغته من الآنية الى الزجاجات .

– هذا أكيد .

– وقد وجدت هذه الزجاجات فارغة في معمل الخشب وفي المكتب بعد أن أفرغت ما كان فيها فوق الخشب .

– ذلك زور أنكره كل الإنكار .

فنظر القاضي اليها نظرة ثانية دون أن تخفض عينيها فقال :

– إنك كسرت الصندوق لتسرقي ما فيه وقد عاد صاحب المعمل دون أن تتوقعي قدومه فقتلته لأنه فاجأك .

– إن اليد التي وضعت البترول هي نفس اليد التي قتلت ولكنها ليست يدي.

– أتحاولين إقناعي أنا ؟

– لقد قلت لك من قبل يا سيدي أنك لا تثق بأقوالي .

– ألم تنذري لابرو قبل الحادثة بقولك « إن ذلك لا يعود عليك بالخير ».؟

– نعم .

– ألم تكوني في مكتبه حين جاءه أمين الصندوق وأعطاه مائتي ألف فرنك فوضعها في صندوقه أمامك ؟

– نعم .

– إذن لقد سمعت الحديث وعرفت بوجود المال في الصندوق .

– هو ذاك واني أذكر ما سمعته من أمين الصندوق فهو لم يقـل مائتي ألف فرنك بل كان يوجد أيضاً مائة فرنك وعشرون سنتيماً .

فأجابها القاضي بلهجة المتهكم : إن ذاكرتك جيدة ومـا تولد الذنب إلا من هذه الذاكرة .

– ألا يمكن أن أذكر هذه الأرقام دون أن يكون قصدي سرقة المال ؟

– ولكن فرارك كان من أشد الأدلة على جريمتك .

– لا تقل إن الجريمة دفعتني الى الفرار بل قل الضعف فقد راعني ما سمعته من وعيد القاتل .

– أتدعين أيضاً أنك تعرفين القاتل ؟

– نعم وهو جاك جيرود .

– نائب رئيس المعمل ؟

– هو بعينه .

فهز القاضي كتفيه وقال :

– لو اتهمت غير هذا الرجل لأمكن النظر في التهمة ولكنك تتهمين رجلاً مات شهيد إخلاصه بالنار .

– نعم لقد علمت أنه مات .

– أتجسرين بعد ذلك على اتهامه ؟

– إني اجسر على قول الحق .

– ولكنه قول لا برهان عليه .

– لقد كان لدي برهان .

– ماذا جرى له ؟

– احترق بالنار حين احترق المعمل .

– تريدين أنه ليس لديك برهان .

– هو ذاك يا سيدي ولكن هل تريد أن تصغي إلي ؟

– قولي فاني مصغ .

فروت له عند ذلك جميع ما اتفق لها كما روته للكاهن ولكن القاضي لم يثق بصدقها كما وثق الكاهن فقال لها :

– لا عجب لحسن اختراعك فان من يرتكب مثل جرائمك لا يعجز عن التلفيق .

ولكني أعجب على ما أراه من سلامة عقلك وزلاقة لسانك كيف أنك تعثرين بمثل هذا الكتاب الذي أرسله اليك جاك جيرود ثم تضربين به عرض الحائط وتلقيه الى الأرض دون اكتراث .

ثم اني أعجب كيف أنك تقولين أن صاحب المعمل كان محسناً اليك ثم ترين رجلاً يقتله في معمله المحترق فلا تمدين يداً لنجدته ولا تستغيثين ولكنك قلت في

نفسك ، أن جيرود قد مات فسأتهمه عساي أنجو من الشرع .

فعضت حنة يدها من اليأس وقالت :

– إنني طالما قلت في نفسي ما تقوله الآن فاني أعلم أنه ليس لدي برهان على براءتي غير ما تدل عليه لهجتي من الصدق فاذا كنت لم تتأثر لقولي فقد قضي علي.

– دون شك إلا اذا انقطعت عن الاسترسال الى الكذب واعترفت بالحقيقة فقد يرحمك القضاة .

– لا أستطيع ان اعترف بجريمة لم أرتكبها .

فسئم القاضي سماع أقوالها وقال لها : ألك ما تزيدين على أقوالك السابقة ؟

– كلا ..

– ألا تزالين مصرة على إنكارك ؟

– دون شك .

– إذن سأتلو عليك إقرارك كي توقعي عليه .

وبعد أن وقعت قرارها ذهبوا بها الى سجن سانت لازار .

* * *

وكان الكاهن قد أفرغ جهده في التوسط لها لدى القضاة وإقناعهم ببراءتها ولكنه بدلاً من أن يقنعهم ببراءتها كادوا يقنعونه بأنها مجرمة فلم يفز لديهم إلا بأنهم أذنوا له بأن يربي ولدها فعاد الى اخته حزيناً وأشفقوا على هذا الطفل إشفاقاً عظيماً حتى أنهم اتفقوا على تبنيه اذا حكم على امه بالسجن لأمد طويل .

وبعد بضعة أيام حكم على حنة بالسجن المؤبد فأغمي عليها في الجلسة ولم تستفق من إغمائها إلا في سجن سانت لازار ولكنها اصيبت بحمى جعلت حياتها بخطر .

– ١١ –

والآن فلنتبع جاك جيرود الى تلك السفينة التي سافرت به من لندرا الى اميركا .

وقد كان راكباً في الدرجة الاولى وفيها كثير من المسافرين بينهم رجل كهل اميركي وابنة له حسناء أعجب جاك إعجاباً شديداً بجمالها وأدبها فكان لا ينفك عن النظر اليها حتى احمر وجه الصبية وباتت تجتنبه اتقاء لتلك النظرات .

وكان بين ركاب الدرجة الثانية رجل من العمال اختلط بركاب الدرجة الاولى قبل سفر الباخرة فأشعل سيكارة وجعل ينظر الى المسافرين بينما كان جاك واقفاً قرب الكهل الأميركي وابنته .

فلما عزمت الباخرة على الرحيل أقبل أحد عمالها وبيده ورقة كتب فيها أسماء ركاب الدرجة الأولى فجعل يقرأها بصوت مرتفع وكل ما ذكر اسماً أجابه صاحبه للدلالة على أنه من الركاب .

وقد ذكر اسم جمس مورتيمر وابنته نومي فأجابه الكهل الأميركي وعرف جاك اسمه واسم بنته ثم ذكر اسم بول هرمان وهو الاسم الذي تنكر به جاك فارتعش ذلك العامل الذي كان من ركاب الدرجة الثانية وقال في نفسه ، ماذا أسمع .. بول هرمان إبن خالي الميكانيكي الذي قيل أنه مات فما هذا الاتفاق الغريب !

ولكنني عرفت ابن خالي على طول اغترابنا ورأيته مرتين فلا أرى هذا الرجل المدعو باسمه يشبهه بشيء فهل ذلك من قبيل الاتفاق بالأسماء أم أن هنالك سراً خفياً .

* * *

وعند ذلك ذكر عامل السفينة اسم اوفيد سوليفو وهو اسم هذا العامل الذي نحن بصدده فأجابه بما يدل على حضوره ثم رفعت الباخرة مراسيها وأقلعت من الميناء .

وقد استاء سوليفو استياء عظيماً لانفصاله عن ركاب الدرجة الاولى ثم ضرب جبينه بيده كمن تذكر أمراً وقال :

— إن ركاب الدرجة الثانية لا يحق لهم الذهاب الى اماكن ركاب الدرجة الأولى ولكن هؤلاء يستطيعون المجيء الينا وعلى ذلك فاني أرسل الى بول هرمان من يخبره باسمي فيحضر إلي .

وأقام كل من الركاب في غرفته وسافرت الباخرة وسوليفو جالس يفتكر في هذا الاتفاق الغريب .

ثم صعد الى ظهر السفينة ودنا من المكان المخصص لركاب الدرجة الأولى وأقام ينتظر الى أن اتفق صعود ذلك الكهل الأميركي للتنزه فناداه بملء الأدب وقال له :

– أيأذن لي سيدي أن اثقل عليه برجاء ؟

قال : تفضل بقول ما تشاء .

– يوجد رجل بين ركاب الدرجة الأولى ذكر اسمه بين أسماء المسافرين ساعة السفر وهو اسم ابن خال لي كنا نحسبه ميتاً ولما كان نظـــام الباخرة لا يسمح لركاب الدرجة الثانية بالذهاب اليكم فرجائي اليك أن تخبره بأمري كي يأتي إلي.

– ماذا يدعى ابن خالك ؟

– بول هرمان .

– وأنت ؟

– اوفيد سوليفو .

– حسناً فأنا ذاهب اليه في الحال .

وقد نزل الأميركي الى القاعة العمومية وسأل أحد موظفي الباخرة أن يخبر بول هرمان بما انتدب اليه .

وكان جاك جالساً في القاعة يقرأ معددات الكلم في كتاب انكليزي فلما دنا منه العامل وسأله إذا كان المدعو بول هرمـــان ارتعش وقال له : نعم أنا هو فماذا تريد ؟

– قال : لا شيء يا سيدي سوى أن رجلاً من ركاب الدرجة الثانية يريد أن يراك .

– قال : إني لا أعرف أحداً من ركاب الباخرة فمن هو هذا الرجل ؟

– قال : إنه يدعى أوفيد سوليفو وهو ميكانيكي فرنساوي ولد في ديجون من أعمال شاطىء الذهب ويقول أنك ابن خاله وأنه كان يحسبك ميتاً .

– ابن عمتي .. اوفيد سوليفو .. حسناً فسأذهب اليه .

وقد خرج جاك من القاعة ولكنه بدلاً من أن يصعد الى ظهر السفينة ذهب الى غرفته كي يخفي اضطرابه وجعل يقول في نفسه :

ـ ما هذا الاتفاق أحقيقة أن اوفيد سوليفو ابن عمة بول هرمان الذي مات وتنكرت باسمه ؟

نعم فاني أذكر أن ام بول كانت من عائلة سوليفو وأن أوراقه معي فلاراجعها .

وقد راجع اوراق بول هرمان فوجد أن أمه حقيقة من عائلة سوليفو فقال في نفسه :

ـ والآن ماذا أصنع وإني اذا لم أذهب الى لقائه ولدت في نفسه الشك حتى أنه قد يستقصي عني ويفضح أمري .

فلا بد لي من أن أتلبس بلباس الجرأة وأن أذهب اليه فاقنعه أني بول هرمان.

ولكن كيف يمكن ذلك وهو يعلم يقيناً أن قريبه قد مات وفي كل حال فان نكد طالعي قد قاد هذا الرجل إلي ولا بد لي من أن أراه .

ثم مسح العرق الذي كان ينصب من جبينه وذهب الى لقاء سوليفو فلما رآه سوليفو بادره بقوله :

ـ أشكرك لتفضلك بالمجيء إلي فاني وإن لم أكن لم أرك منذ عهد بعيد فقد بت واثقاً من أن قلبي لم يخدعني فانك بول هرمان أليس كذلك ؟

ـ دون شك .

ـ أأنت هو بول اونوريه هرمان المولود في ديجون وابن سيزار هرمان ؟

ـ وابن كلير سوليفو .

ـ اخت أبي .

ـ إذن أنت ابن خالي ؟

ـ إني لا أستطيع أن أصف فرحي بلقياك فقد كنا نعتقد أنك من الأموات.

فضحك جاك وقال : كيف اتصل بكم هذا النبأ ؟

ـ هذا ما تحدث به الناس عندنا منذ خمسة أعوام ولكننا لم نكن على ثقة .

ـ ولكن كيف اتصل بكم هذا النبأ ؟

– لقد جاء أحد العمال من باريس الى ديجون فأقنع امك انك مت في المستشفى فحاولت المنكودة ان تكتب الى ذلك المستشفى لتتبيّن الحقيقة ولكنها اصيبت بالسكتة الدماغية لحزنها وعاجلها الموت فماتت بعد موت ابيك بعام ولا بد أن تكون عارفاً بكل ذلك .

– نعم ، نعم لقد عرفت ذلك في حينه فحزنت حزناً لا يوصف .

– ولقد ذهبت دون شك الى ديجون وورثت ما خلفته لك امــك ولكنه مال قليل فيما اظن ؟

– هو ذاك فلسنا من الأغنياء كما تعلم .

– ولكن القليل خير من العدم أما أنا فاني لم أرث شيئاً .

– كيف ذلك أمات أبوك ؟

– منذ عامين بحيث لم يبق أحد في المدينة من عائلة سوليفو سواي كما أنه لم يبق أحد من عائلة هرمان سولك .

أتذكر أني لم أرك ولم ترني منذ ستة أعوام ولو لم يذكر اسمك أمــامي لما عرفتك .

ولكن ما هذا التغيير الذي طرأ عليك بعد اجتماعنا الأخير في مرسيليا وما هذه النعمة البادية اثارها عليك من ملابسك فهل أثريت بعد افتراقنا ؟

– إني لست من أهل الإثراء ولكني لا أشكو من حــالتي فقد توفقت الى اختراع تمكنت به من كسب شيء من المال .

– لا استغرب ان تكون من أهل الاختراع فاني أذكر أنك كنت أحذقنا في مدرسة شالون ثم في مدرسة الصنائع والفنون .

– نعم إني لا ازال اذكر أيام هذه المدرسة والآن فأخبرني بماذا تشتغل ؟

– بمهنتي ذاتها .

– ما هي مهنتك ؟

– كيف ذلك أنسيت مهنتي ألا تعلم أني ميكانيكي ؟

فعض جاك شفته وقال : اعذرني فاني مشتت البال .

– ذلك يتفق كثيراً .

– وإلى أين مسافر ؟

– الى نيويورك لأشتغل بنفس المهنة .

– أترجو أن تجد عملاً فيها بسهولة ؟

– لا حاجة الى إيجاده فقـــد وجدته لأني سأشتغل في معمل رجل اميركي يدعى جيمس مورتيمر .

– أتعرفه ؟

– إني أعرفه بالنظر فهو ذلك الرجل الكهل المسافر على الباخرة الذي كنت واقفاً بقربه وقرب ابنته الحسناء .

ثم قهقه ضاحكاً وقال : لقد رأيتك تنظر اليها نظر المفتون وأعجبني ذوقك فانها أجمل من مرغريت .

– من هي مرغريت ؟

– أنسيت مرغريت ايتا التي كانت مفتونة بحبك ؟

فضحك جاك ضحكاً مغتصباً وقال : لقد كدت أنسى هذه الحادثة لتقادم العهد بها .

فدهش سوليفو وقال في نفسه : إنه نسي هـــذه الفتاة مع أن عهد حبه إياها غير بعيد كما يقول ، وأراه ينسى كل أمر حتى انه نسي مهنتي فكيف ذلك ؟

وقد رأى جاك اندهاشه وعلم أنه أخطأ خطأ ثانياً فأسرع الى تغيير الحديث وقال :

– إذن أنت ذاهب الى نيويورك للاشتغال في معمل جيمس مورتيمر ؟

– هو ذاك ، فقد اتفقت مع وكيله وجعلنا مدة الاتفاق ثلاثة أعوام ويظهر ان جيمس هذا من المخترعين وقـد توفق الى اختراع آلة للصقل على طراز جديد سيكون لها شأن .

فارتعش جاك وقال له : آلة للصقل ؟

– نعم ولا بد أن تكون عارفاً بهذه الآلات فانك اشتغلت بها في جنيف .

– هو ذاك فاني أعرف دقائقها .

– وأنا أيضاً ، ولذلك اتفقوا معي على راتب قدره خمسمائة فرنك في الشهر .

— ما هي هذه الآلة التي اخترعها الأميركي ؟
— إنه لم يخترع ولكنه أصلح الآلات المعروفة .
— أتعرف تلك الإصلاحات التي أدخلها ؟
فأخبره بكل ما عرفه ثم قال له : أتريد أن أنصحك أيها القريب العزيز ؟
— بماذا ؟
— بأن تشارك هذا الرجل فانك من أهل الاختراع كما تقول ومن أهل اليسار كما أرى ، وهو من أغنى الأغنياء فإذا شاركته فقد تتوفق الى الزواج بابنته .

وكان يحدثه وهو ينظر اليه نظرة الفاحص وقـد نزع جاك قبعته في تلك الساعة ليمسح العرق عن جبينه ، وكان قد صبغ شعره منذ خمسة أيام وأوشك تأثير الصباغ أن يزول فرأى سوليفو كل ذلك ولم يبقَ لديه شك أن الرجـل منتحل اسم ابن خاله .

فإن شعر قريبه كان أسود قاتماً فقـال في نفسه : لم يبقَ بد لي من معرفة حقيقة أمر هذا الرجل .

أما جاك فإنه صافح سوليفو واستأذن بالانصراف على أن يقابله في فرصة اخرى ثم انصرف وهو يقول في نفسه :

لا ريب أن الرجل مشكك بي كما رأيت من نظراته ، وإذا كان ريبه الآن ضعيفاً فلا بد أن يشتد وهناك الخطر .

وأما سوليفو فإنه أشعل سيكارة وجعل يسير ذهاباً وإياباً على ظهر الباخرة ويقول :

كيف ذلك ؟ انه لم يذكر اني ميكانيكي وكنا نشتغل في مهنـة واحدة ولا يذكر سابق غرامه بمرغريت .

وقد تحدث النـاس بأمرهما أعواماً وشعره أشقر ولكنه يصبغه في حين ان شعر بول أسود وقد أصبح من أهل الثروة في ستة أعوام ولا سبيل للعمال اليها في مثل هذا العهد القريب .

إذن لا شك أن هـذا الرجل منتحل اسم قريبي لشأن سري لا بد لي من الوقوف عليه ، فهي فرصة يجب أن أغتنمها .

وحبذا لو كنت قادراً على السفر في الدرجة الاولى لما فاتني شيء من أمره . ولكن هذه هي الفرصة قد دنت .

ذلك انه رأى رجـلاً يبلغ الخامسة والستين من العمر يصعد الى السفينة وهو يحمل كيساً من الجلد فقال في نفسه :

إني أعلم ما يوجد فيهذا الكيس فقد فتحه أمامي ورأيت فيه نحو ستين ألف فرنك من الأوراق المالية ، فإذا تمكنت من سرقة هـــذا الكيس أخذت ما فيه وألقيته الى البحر فتمكنت عند ذلك من مرافقة قريبي العزيز والسفر في الدرجة الاولى .

ثم جعل يسير ذهاباً وإياباً وقد استلفت نظره رجلان كانا مستندين الى حافة الباخرة وهما يتحدثان بصوت منخفض ، وكان أحد الرجلين من أهل كندا والآخر شاب يبلغ الخامسة والعشرين من عمره .

فوقف بجانبهما وأصغى الى الحديث فسمع الشاب يقول للكندي : إذن أنت مصاب بالحمى منذ عشرة أعوام ولا يشفيك منها غير هذا الدواء ؟

فأجابه الكندي قائلاً :

ــ هو ذاك ، فإني حين تشتد عليّ وطأتهـــا أشرب خمس نقط من الدواء فيزول تأثيرها .

ــ ما هو هذا الشراب ؟

ــ هو عصير نبات معروف في جبالنا .

ــ كيف تدعون هذا العصير ؟

ــ إن له أسماء كثيرة بينها اكسير الحقيقة .

وكان الفتى من الأطباء فقال له :

ــ إني لم أقرأ شيئاً عن هذا العصير فكيف دُعِي باسم اكسير الحقيقة ؟

ــ ذلك لأن له خاصة غريبة وهي أنه إذا وُضع منه قدر ملعقـة صغيرة في كأس شراب أو قهوة وُشرب يُصاب شاربه بجنون وقتي يدعوه الى الإباحـــة بكل أسراره ، فإذا زال هذا الجنون وهو لا يدوم أكثر من ربع ساعة ، نسي شاربه كل ما قاله فلا يذكر شيئاً منه .

فقال له الطبيب :

– الحق انه من أغرب ما سمعت .

وقال سوليفو في نفسه :

حبذا لو تمكنت من الحصول على هـذا الاكسير إذن لسقيت منه ابن خالي العزيز فيخبرني كيف أن شعره قد استحال لونه وكيف انه أصبح من أهل الثروة.

وعاد الاثنان الى الحديث وسوليفو الى الإصغاء ، فقال الكندي : وإن لهذا الاكسير ، اكسير الحقيقة ، مزايا اخرى وهو انه يشفي الصداع والجراح وآثار الحروق وكثير غير ذلك .

فخامر الشك قلب الطبيب فضحك وقال : إني أرى لاكسيرك قوة الآلهة .

قال : لا تضحك أيهـا الطبيب فإني لم أقل لك غير الحقيقة وإنك تستطيع تجربة هذا الاكسير ما زلت من الأطباء .

– ولكن أين أجده فأجرّبه ؟

– ألست ذاهباً الى نيويورك ؟

– نعم .

– إذن اكتب هذا العنوان .

فأخذ الطبيب دفتراً من جيبه فأملى عليه الكندي هذا العنوان: « شيشيلينو بشارع الحادي عشر نمرة ٢٤ » .

فقال له الطبيب : ما معنى شيشيلينو ؟

– هو اسم رجل من القرية التي ولدت فيها وهو مقيم في نيويورك وقـد برح كندا بعد أن جلب من جبالها هذا الاكسير وهو يبيعه بمقدار ثقله ذهباً .

– إنه كثير الغلاء ولكني سأشتريه .

وقد سمع سوليفو الحديث فكتب هذا العنوان وهو يقول في نفسه :

وأنا أيضاً سأشتري هذا الاكسير فأسقيه لقريبي وأعلم حقيقة أمره .

* * *

بينما كان هذا الحديث دائراً بين الكندي والطبيب كان جاك قد نزل الى قاعة الاجتماع ووجد فرصة صالحة لمحادثة نومي ابنة الاميركي ، وذلك أنها كانت تعزف

على البيانو نغماً فرنساوية وهو جالس بقربها .

فلما فرغت من عزفها أظهر استحساناً عظيماً للنغم ثم قال لهـا : يظهر يا سيدتي أنك أقمت في فرنسا بل في باريس نفسها .

فقالت له : كيف عرفت ذلك ؟

— من هـذه الموسيقى الشجيّة التي سمعتها ، فاني لم أسمعها قبل الآن إلا في اوبرا باريس بلدي العزيزة .

— أأنت فرنساوي ؟

— نعم يا سيدتي .

— لقد أصبت ، فاني أيضاً سمعت هـذه النغمة في اوبرا باريس فطبعت على ذهني .

— يظهر أن ذاكرتك عجيبة .

— إني أحفظ كل ما يروق لي سمعه ، وليس في باريس إلا ما يروق ويعجب.

— ألعلك أقمت مدة طويلة في باريس يا سيدتي ؟

— ثلاثة أشهر فقط ، بحيث اني لم أستطع في هـذه المدة الوجيزة من التمتع بجميع مناظر عاصمة العواصم ، وكنت أودُّ أن أقيم فيها عاماً ولكن أشغال أبي قضت علينا بالعودة الى نيويورك .

— وأنا أيضاً يا سيدتي أبرح باريس الى نيويورك ، ولكن دون أسف فاني ميكانيكي وأنا مسافر اليها لدرس ما يتعلق بصناعتي في أشهر معاملها ولا سيما معمل مورتيمر .

فنظرت الفتاة اليه مبتسمة وقالت :

— أتعني به معمل جيمس مورتيمر ؟

— نعم يا سيدتي ، فان لصاحب هـذا المعمل شهرة عظيمة في اوروبا وهم يعتبرونه من النوابغ .

— أتعرف هذا الرجل الذي تثني عليه هذا الثناء ؟

— كلا يا سيدتي ، وكيف أعرفه وهـذه هي المرة الاولى التي اسافر فيها الى اوروبا ؟

– ألعلك تريد زيارته في نيويورك ؟
– دون شك فسيكون أول من أزوره .
فابتسمت نومي أيضاً وقالت :
– إذن يسرُّك أن تجد من يعرّفك به ؟
– لا أجد سروراً أعظم من هذا .
– إذن فاعلم اني سأتولى تعريفك به ، واعلم أيضاً ان جيمس مورتيمر يحب الفرنساويين .
– إني أقبل بملء الامتنان ، فهل تعرفينه يا سيدتي ؟
– أعرفه وأحبه كثيراً فهو أبي .
فتكلف جاك الانذهال وقال : أبوك يا سيدتي !.. حبذا لو عرفت ذلك من قبل .
فضحكت نومي وقالت :
– أكنت تغير أقوالك فيه ؟
– إن أقوالي يا سيدتي لم تعرب إلا عن بعض اعتقادي بهذا الرجل العظيم .
– إذن تفضل يا سيدي بذكر اسمك .
– بول هرمان .
– تعالَ معي .

* * *

وسارت الفتاة مع جاك الى حيث كان يقيم أبوهـا مع بعض أصدقائه ، فقالت له :
– أرجوك أن تأذن لي يا أبي بأن اعرّفك برجل مسافر خصّيصاً الى نيويورك للتعرُّف بك وهو ميكانيكي مثلك يدعى المسيو بول هرمان .
فاستقبله الاميركي بملء الاحتفال، وبعد أن فرغا من حديث المجاملات شرعا بحديث الأشغال والآلات ، فجعل الاميركي يطنب بآلة الخيـاطة التي كانت مشهورة بأنها من صنع معمله .

وقد أفاض في وصفها وبيـــان ما ربحه منها ، حتى إذا فرغ من حديثه قال له جاك :

– إني أعرف هذه الآلة التي تتحدث عنها حق العرفان، ولكنها على اشتهارها لا تزال غير تامة .

– أتجد فيها عيباً من العيوب ؟

– لا أجد فيها غير عيب واحد وهي أنها ذات صوت يقلق السمع .

– تريد ان هذه الآلة يجب أن لا يكون لها صوت عنـد اشتغالها وهو ما أشتغل به منذ خمسة أعوام دون أن أظفر بنتيجة .

– ولكنك لم تبحث البحث الأكيد .

– ألعلك تمكنت من إصلاحها ؟

– ربما .

– أتسمح لي ان أسألك كيف ذلك ؟

– دون شك وسأوضح لك أمر هذا الاختراع بالتفصيل .

ثم شرح له بالتدقيق كيف أنه تمكن من جعل هـــذه الآلة صامتة ، فدهش الاميركي لما سمعه وقال له :

– إن اختراعك جليل ، وعنـــدي انه يجب أن تدعو هذه الآلة بالآلة الصامتة .

قال : بل إني أعاهدك على أن لا أبوح بهذا السر لأحد وإني سأتخلى لك عن أرباح هذه الآلة فانها مدعوة باسمك .

– ذلك أمر لا أقبله على الإطلاق .

– لماذا ؟

– لأن هذه الآلة ستأتي بأرباح عظيمة .

فابتسم جاك وقال : أظنك تبالغ يا سيدي ، ولكن على افتراض أن أرباحها ستكون كما وصفت فاني لا أرجع عما تعهدت به .

فقال الاميركي في نفسه :

الحق انه حاذق نبيل ، فلو كان شريكي على حذقه وذكائه وتولى إدارة معملي

لبلغت به أقصى غايات الفوز .

ثم قال له بصوت مرتفع : لا فائدة من الإلحاح فاني لا أقبل اقتراحك إلا بشرط .

— ما هو هذا الشرط ؟

— هو أن تشترك بأرباح هذه الآلة التي اخترعتها أنا وأتممتها أنت .

فهز جاك رأسه وقال :

— إني أشكرك لتبرعك هذا ، ولكن أية فائدة من الاشتراك بهذه الأشغال الطفيفة ؟ وفوق ذلك فإني لا أعلم إذا كنت سأقيم في أميركا .

فقالت له الفتاة : ألعلك انثنيت عن عزمك ؟ فلقد قلت لي كما أذكر انك عازم على الإقامة طويلاً بيننا .

— إن هذا قصدي ولكنه يتعلق بفوزي في بلادكم ، فاني عازم على الشروع بعمل هام إذا أفلحت فيه فقد أنشيء معملاً في نيويورك .

— ألعلك تستحسن مبدئياً إنشاء معمل عندنا ؟

— دون شك .

فأجفل الاميركي وخشي مزاحمته فقال له :

— ألعلك عازم على الاشتغال باختراع جديد ؟

— نعم وهو اختراع لا علاقة له بشيء في ماكينات الخياطة ، فاني أشتغل بآلة للصقل .

وكان جاك قد عرف مقاصد الاميركي من اوفيد سوليفو وأنه يشتغل بمثل هذه الآلة ، فكان لكلامه أعظم تأثير على الاميركي فاضطرب ، ولكنه أخفى اضطرابه وقال :

— إن هذه الآلة قد اخترعوها في جنيف وهي على أتم الإتقان فلا سبيل الى البحث فيها .

فابتسم جاك وقال : إن الآلة المستعملة في جنيف إنما تصقل الأجسام المسطحة وأما التي اخترعتها فانها تصقل الأجسام المسطحة والمقعرة على السواء .

فشعر الاميركي أن الدم قد جمد في عروقه وقال في نفسه : ألعله توفق الى

ما توفقت اليه ؟ فإذا اتفق ذلك كان من غرائب الاتفاق ، ثم قال له :

– ترى أيمكن صقل الأجسام المقعرة كما تقول ؟

– ذلك ممكن بدليل أني اهتديت اليه .

فاصفر وجه جمس وقال في نفسه ، إنه مزاحم شديد دون شك ويجب أن أسرع الى الاتفاق معه قبل أن يفوز بالسبق .

ثم قال له :

– أتأذن لي أيها الرصيف أن أكلمك بحرية وجلاء ؟

بل أرجوك :

– إذا كنت غير مخطىء فيما قلت وهو ما أعتقـــده لأنك برهنت لي عن ذكائك في الصناعة فقد توفقت الى اختراع جليـــل ستنال به ثروة عظيمة في زمن قريب .

ولكنك ذاهب الى نيويورك وأنت لا تعرف احداً فيها ولا بد لك من التمرن على أخلاقنا وعاداتنا ومصطلحات عمالنا قبل أن تخاطر بمالك في سبيل إنشاء معمل وهو يكلفك مالاً جزيلاً .

– هذا لا ريب فيه ولكني لا أجد طريقة اخرى .

– بل يوجد .

– ما هي ؟

– هي أنك تشاركني فأعهد اليك بإدارة معاملي كلها فتبدأ في الحال بصنع آلة الخياطة الصامتة وآلة الصقل وحينما تصل الى نيويورك نوقع على صك الشركة فيكون لنا نصف الأرباح وفوق ذلك فاني اعطيك الآن حوالة بخمسين ألف ريال على صديقي ريشار دافيدسون الصراف الشهير الجالس بيننا الآن .

فحاول جاك الاعتراض إخفاء لسروره ولكن ابنة الأميركي تداخلت بينهما وقالت له :

– أرجوك يا سيدي أن تقبل فإنك إذا رفضت الإشتراك مع أبي فكأنك ترفض صداقتنا .

فضحك الأميركي وقال : هوذا ابنتي قد اشتركت معي وهي لا تكتم عنك

ميلها الى صداقتك فإننا هكذا نربي بناتنا في اميركا ولو لم تكن قد أثرت عليها بأدبك لما قدمتك إلي أليس كذلك يا ابنتي ؟

قالت : نعم .

— أتقبل إذن شركتي أيها الرصيف ؟

— إن صداقة سيدتي خير عندي من كنوز الأرض .

فصافحه الأميركي قائلاً : هوذا شركتنا قد عقدت فقل لي الآن هل أنت متزوج ؟

فاحمر وجه نومي وابتسم جاك فقال : كلا يا سيدي .

— إذ سأخصص لك قسماً في منزلي فتقيم فيه أتقبل ؟

قال : إني أقبل يا سيدي مع الشكر ولا أدري كيف أعرب لك عن امتناني.

ثم قال في نفسه، أنه لا يمضي ثلاثة أشهر حتى أكون صهر هذا الأميركي الغني.

وقد انقضى ذلك النهار وجاك مع شريكه الجديد وابنته على أتم السعادة فلم يكن ينغص عليه نعيمه غير خيال ادوفيد سوليفو الذي كان يمر بذاكرته من حين الى حين .

— ١٢ —

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثاني كان الأميركي وابنته وجاك مجتمعين في القاعة العمومية يتحدثون .

وكان حديثهم قاصر على الشركة الجديدة حتى إذا فرغوا من ذلك الحديث صعدوا الى ظهر السفينة للنزهة وكان غاصاً بالمسافرين إذ صعدوا جميعهم للتفرج على باخرة عائدة من أميركا الى اوربا وهي مارة بالقرب من سفينتهم .

أما جاك فإنه غادر الأميركي وابنته ينظران الى السفينة وذهب للبحث عن اوفيد سوليفو .

وقد رآه بعيداً وهمّ بالذهاب اليه ولكنه توقف فجأة إذ رأى سوليفو واقفاً وراء رجل ورأى في يده خنجراً يحاول أن يخفيه .

فارتاب جاك في أمره وجعل يراقبه فرآه قد رفع رداء الرجل وجذب برفق

كيساً من الجلد كان معلقاً بمنطقه .

فقال جاك في نفسه ، يظهر أن هذا القريب العزيز قد أضاف الى مهنته مهنة اللصوصية وهي خير فرصة للظفر به فكأنما الأبالسة قد أقبلت لنجدتي .

وعند ذلك أسرع حتى بات على قيد خطوتين منه وهو لا يراه .

وقد اتفق في تلك الساعة مرور الباخرة القادمة من اميركا والتصاقها بالباخرة المسافرين عليها وكلتاهما فرنساويتان فعلت أصوات البحارة والمسافرين بالتحية .

فاغتنم سوليفو هـذه الفرصة وقطع بخنجره رباط الكيس دون أن ينتبه صاحبه الى ما فعل وأقفل يريد الرجوع الى غرفته فاعترضه جاك جيرود وبادره بقوله :

– ماذا فعلت أيها اللص ؟

فاصفر وجه سوليفو وقال له بلسان يتلعثم : ماذا تقول ؟

فقبض جاك على يده وسار به الى محل معتزل فقال له :

– أقول إني رأيت كل ما فعلت وإنك شقي محتال وإني اريد في الحال أن ترجع الكيس الذي سرقته الى صاحبه وإنك ارتكبت جريمة لا تستطيع أن تلتمس لها عذراً .

ولا أدري ما يمنعني من أن أذهب بك الى ربان الباخرة كي يؤدبك على هذه هذه الجريمة التي دنست بها عائلتنا .

قال : كلا .. إنك لا تفعل بل إنك ترحم ضعفي .

– أي ضعف هذا ؟ فقد راقبتك ورأيتك تسرق الكيس دون أن تضطرب يدك مما يدل على أنك متمرن على السرقات من عهد بعيد .

– بل هي أول مرة وإني اقسم لك على صدق ما أقول .

– اسكت واعطني هذا الكيس .

فأعطاه الكيس فقال له جاك : أتدري ما يوجد في هذا الكيس ؟

فأجابه : نحو ستين ألف فرنك .

– حسناً فانتظرني هنا .

– ماذا تريد أن تصنع ؟

– اريد ان ارد هذا المال الى صاحبه .

– ولكن ؟

– كفى ولا تزد كلمة .

ثم ذهب جاك الى الرجل الذي سرق منه الكيس فقدم له كيسه وقال له : ألعل هذا الكيس لك يا سيدي ؟

فبدأ الرجل يضطرب الى الكيس وقال : نعم إنه لي وقد سرق مني .

فقال له جاك : مما تشكو بعد أن رد إليك . هذا هو الكيس فافتحه وابحث إذا كان مالك فيه لا يزال على ما كان عليه .

فأسرع الرجل الى فتح كيسه وعد ما فيه فقال بملء الفرح: كلا إنه لا ينقص منه شيء فإن ما فيه يبلغ ستين ألف فرنك وهذا المال كل ثروتي التي جمعتها بعرق الجبين وقد خصصتها لابنتي ولكن كيف وجد هذا الكيس بيدك ؟

– تفضل واتبعني اخبرك .

ثم أخذ بيده وسار به الى اوفيد سوليفو الذي كان يراقب ما يجري وقد صبغ وجهه بصفرة الموت فقال له :

– هذا هو الرجل الذي سرقك .

وقد حاول الرجل أن يتكلم فقطع عليه جاك كلامه وقال له :

– إني أعرف هذا الشقي وأحب أن لا يقبض عليه مع أنه يستحق العقاب ولكني اؤثر ان يعترف لك بجريمته ويلتمس منك العفو .

فنظر اوفيد الى الرجل وقال له بلهجة المستعطف :

– نعم إني اعترف بجريمتي وألتمس منك العفو .

فقال له الرجل بلهجة المحتقر :

– إني اصفح عنك بشفاعة هذا السيد فاذهب الى حيث تريد ولكني سأذكر وجهك السمج . وإني ذاهب الى نيويورك وأعرف المستر جمس مورتيمر الذي ستشتغل في معمله فإنك أخبرتني منذ حين عن غايتك من السفر فأصغيت الى حديثك وأنا اعتقد أنك من خيار العمال على أني لا انكر أنك ماهر ولكنك سافل وكلمة مني تكفي لتنبيه رئيسك .

فتمتم اوفيد بكلمات لا معنى لها .

فمضى الرجل في حديثه فقال :

– لقد كان يجب علي ان افعل ...

وعند ذلك تداخل جاك فقال : إن في ما حدث خير عبرة له ورجائي أن تكتم أمر جريمته وأعيد عليك القول إني اعرف هذا الرجل وأهله فهم من خيار الناس فاذا فضحت أمره هتكت ستر تلك العائلة .

فأجابه الرجـــل : إني سأكتم أمره حرصاً على شرف عائلته وإكراماً لك فإنك رددت إلي ثروتي ولكني اريد ان اعرف اسم هذا الرجل فإذا أبى ان يخبرني باسمه بحثت عنه في سجل أسماء المسافرين .

فقال له جاك : إنه يدعى اوفيد سوليفو .

فاصفر وجه اوفيد من الرعب وقال الرجل وقد ذهل لسماعه ذلك الإسم :

– إني أعرف هذا الرجل وأذكر أنه من عمـــال شاطىء الذهب وإني قد صدر إلي الأمر مرة بالقبض عليه في باريس بتهمة السرقة ايضاً .

فجعل جاك ينظر الى اوفيد وهو مطرق الرأس لا يجسر على الإنكار ثم قال:

– إني لا اعرف من ماضي هذا الرجل مـــا تعرفه ولكني احتراماً لعائلته سأتولاه بحمايتي وأرجو ان تفي بما وعدتني به من كتمان امره .

قال : إني سأفي بوعدي وإني مدين لك بالامتنان وسأكتم أمره على أنه إذا عاد الى مثل هذه الفعلة المنكرة وعثرت به عاملته دون إشفاق .

ثم مد يده الى جاك مصافحاً وقال :

– إنك أحسنت إلي غاية الإحسان يا سيدي فاذكر أنك تستطيـع الاعتماد علي في كل شأن واني ادعى رينيه بوسك وأنا فرنساوي وقد كنت من ضباط البوليس ثم أحلت على المعاش وأنا سأقيم في الشارع الحـــادي عشر نمرة ٥٦ في نيويورك .

فقال له جاك : إني لا انسى اسمك ولا عنوانك ياسيدي وربما اضطررت الى الاستعانة بك يوماً فاني سأقيم ايضاً في اميركا والآن إرجوك ان تدعني مـــع هذا الرجل .

فتركه الرجل بعد ان نظر نظرة المحتقر الى اوفيدو وبقي جاك مع اوفيدو وهو مطرق الرأس فقال له :

– أهذا ما كنت أأمل أن اراه منك فإني لقيتك بعد هذا الفراق الطويل إتفاقاً فإذا بك لص ماهر قد دنست بأفعالك الشائنة عائلة لم تصم بوصمة عار .

وكان جاك يتكلم بصوت مرتفع فقال اوفيد :

– مهلاً أيها القريب فإني ما أقدمت على ارتكاب هذه الجريمة إلا وقد أغواني الفقر عليها فإني لست من الأغنياء كما تعلم وقد رأيت ثروة هذا الرجل فتولاني الضعف وطمعت فيها وفي كل حـــال فإني أشكرك لأنك حلت دون ارتكابي هذا الذنب .

– ألست آسفاً على المال الذي كنت سرقته ؟

فتردد اوفيد عن الجواب وقال له جاك :

– إنك حاولت أن تنال الثروة كيف اتفق وذلك بدليل ترددك عن الجواب .

– إن المال هو الرب الثاني .

– إن كيس ذلك الرجل لم يكن يحتوي إلا على ستين ألف فرنك وليس ذلك بثروة فإذا امتثلت لي منحتك ثروة .

– أحق ما تقول ؟

– دون شك .

– إنني لك أطوع من البنان .

– أتمتثل لي بملء الإخلاص وتكون طوعاً لي كما قلت ؟

– كيف لا أمتثل فإني أصبحت منذ الآن في قبضة يدك وإنك في كل ساعة تستطيع الانتقام مني ؟

– ولكني لا أفعل .

– هو ذاك وما حيلتي بذلك الرجـــل فإنه قد يخطر له أن يخبر رئيس المعمل بأمري .

– إنه إذا فعل فأنتَ هالك فإن رئيسك يبدأ بطردك من المعمل ثم ينفيك من الولايات المتحدة على أني أضمن لك تكتم الرجل ورضى جمس مورتيمر عنك .

— أأنت تضمن لي ذلك ؟

فقال له جاك بصوت منخفض : اصغ إلي فإني قد حكمت عليك وعرفتك كأننا قد عشنا معاً منذ خلقنا فإن سرقة اليوم لم تكن أول سرقاتك ولا تحاول الانكار فما أنا من الذين يعبثون بهم .

فإني لو أردت التخلي عنك لذهب بك الرجل الذي سرقته الى السجن .

أما وقد منعته أن يبوح بأمرك فلا بد لك من الامتثال لي في كل ما اريد .

— سأفعل ما تأمرني بفعله فقل ماذا تريد ؟

— اريد قبل كل شيء أن لا تكلمني إلا إذا كنا فردين مختلين وأن تظهر أمام الناس أنك لا تعرفني .

فإني لا أحب أن يقال أنه يوجد لص في عائلتي ويسهل عليك فهم ما أقول حين تعلم أني شريك مورتيمر الذي ستشتغل في معمله .

فدهش اوفيد دهشاً عظيماً وقال أأنت شريك مورتيمر ؟

— بل إني سأجتهد أن أكون صهره أيضاً وربما تيسر لي ذلك في أقرب حين.

— إني أهنئك بهذا الفوز المزدوج .

— نعم إنه كما تقول فاعلم أن مركزي في عائلة مورتيمر يجعل لي نفوذاً عظيماً على حاضرك ومستقبلك وذلك منوط بسلوكك فكن مستقيم السيرة واعمل بإرادتي أجعلك قبل شهر من رؤساء المعمل وأضاعف راتبك ولكني لا أفعل ذلك إلا إذا كنت لي بملء إرادتك .

وقد علمت أنك طماع وأنك تحب المال فسأروي غل طمعك وسأغنيك أترضى بهذا الاقتراح ؟

— كيف لا أرضى بل إني أرضى بملء الارتياح وقد رأيت أنك أنت أيضاً من أهل الطمع .

وذلك ظاهر للعيان فأنت محتاج الى إخلاصي وطاعتي وربما احتجت الى مشاركتي .

أقول هذا وأنا لا أعلم شيئاً من أسبابه ولا أحاول أن أعلم فليس ذلك من شأني فقد وهبتك نفسي وإرادتي فقل ماذا تريد أن أصنع ؟

ــ لا يجب أن تصنع شيئاً قبل وصولنا الى نيويورك سوى ان تمتثل لما أوصيتك به وهو أنك تظهر عدم معرفتي فإذا احتجت الى محادثتك أتيت اليك ولا تنس أنه في أول مرة يخطر لك عصياني أعاملك دون إشفاق ؟

ــ لماذا تنذرني وقد أقسمت لك يمين الطاعة ؟

ــ إني لا انذرك بل احذرك أما وقد اتفقنا على ذلك فلنبحث بسواه فقل لي كم لديك من المال ؟

ــ شيء لا يذكر .

ــ إذن خذ هذه الدنانير وأنفق منها عن سعة في الباخرة الى ان نصل .

ــ أشكرك يا ابن خالي العزيز .

ــ هذه آخر مرة احب ان اسمع فيها هذا اللقب إلا حين نكون وحدنا .

ثم تركه وذهب الى مورتيمر وابنته وكانا ينتظرانه في القاعة .

فلما خلا سوليفو بنفسه قال :

ــ لا أنكر ان هذا القريب العزيز قد استعمل معي القسوة وحرمني ستين ألف فرنك كنت قد غنمتها وباتت في يدي .

ولكنني قد اربح منه اضعافاً متى عرفت حقيقة سره إذ لا بد ان يكون له سر خفي .

وفي كل حـــال فلا بد لي من الصبر الى ان نصل الى اميركا وأسقيه من ذلك الاكسير الذي يدعوه أهل كندا اكسير الحقيقة والويل له متى وقفت على سره .

وأقام جاك كل مدة السفر يحادث جمس مورتيمر بالميكانيكيات والاختراعات ويحادث بنته بأرق احاديث الصبابة فإنها قد مالت اليه كل الميل .

فكان ابوها يرى ذلك منهـــا ويتغاضى عنها لأنه كان يود أن يكون شريكه صهره .

وفي اليوم التالي لوصولهم الى نيويورك تولى جاك إدارة المعامل ودخل سوليفو فيها بصفة عامل بسيط .

فلم يمض شهران حتى عينه جـــاك نائب رئيس براتب قدره ١٨٠ ريالاً أي تسعمائة فرنك في الشهر .

وفي الشهر الثاني طلب جاك من شريكه يد ابنته فأجابه الى ما طلب فتزوجها جاك باسم بول هرمان بعد أن أظهر اوراقاً رسمية دهش لها سوليفو حتى كادت ثقته تتزعزع .

ومرت الأيام ونجحت أعمال المعمل فنسي جاك كل ماضيه حتى ذنبـــه فلم يذكره إلا يوم قرأ في الجرائد الفرنساوية ان المدعوة حنــة فورتيه المتهمة بقتل لابرو وإحراق معمله قد ثبتت عليها التهمة وحكم عليها بالسجن المؤبد فلم يقرعه ضميره لهذا الحكم ولم يخالج قلبه شيء من الرأفــة بتلك المرأة التي ذهبت ضحية غدره بل إنه فرح بصدور هذا الحكم عليها لوثوقه من النجاة ولم يعد يفتكر بها بعد ذلك .

* * *

كان الكاهن وأخته والمصور قد حضروا محاكمة حنة فورتيه وسمعوا جميــع تلك البراهين الناصعة المتفقة على إثبات جريمتها وهم يعتقدون بارتكابها الجريمة .

فقالت أخت الكاهن : إني لم أر امرأة أشد منها دهاء، ولعلها تمكنت من خديعتنا لسلامة قلوبنا .

فأجابها أخوها قائلاً : يجب علينا أن ننساها وأن نهتم بتربية ولدها الذي بات كأنه ولدنا فلا يؤخذ هذا المنكود بذنب أمه .

وقد اتفقــا على أن تتبنى أخت الكاهن ابن حنة فتبنته رسمياً وبات يدعى باسم جورج داريه فأقام الغلام بينهما يتربى أحسن تربية .

أما حنة فلقد تقـــدم لنا القول انها أغمي عليها حين سمعت تلاوة الحكم وأصيبت بالحمى فنقلوها الى مستشفى السجن .

وكان الخطر عليها شديداً في البدء ولكنها تمكنت من مقاومة هــذا الخطر بفضل قوة بنيتها فشفيت من علتها ولكن ببطء .

غير أن الحمى كانت قد أثرت على دماغها فذهب رشدها ولم تعد تذكر شيئاً من الماضي والحاضر فأرسلت الى مستشفى المجانين وكان جنونها هادئاً فكان رئيس أطباء المستشفى يقول :

– إن هذه المرأة ستشفى من جنونها دون شك ولكن عهد جنونها قد يطول.

* * *

– ١٣ –

بينما كانت هذه المنكودة تقاسي في باريس عذاب السجن وقد ذهب عقلها لهول النكبة التي داهمتها ، كان جاك جيرود يتنعم بفوزه وبمـا لقيه من احترام الناس .

فبعد أن مضى عام على زواجه بابنة شريكه الاميركي ، وهو لم يتزوجها إلا طمعاً بمالها ، أفضى به الأمر الى انه أحبها فبات لهذا اللص السفاك قلب يشبه قلوب الناس وأصبح مفتوناً بحب امرأته .

وكان جاك منصرفاً الى إدارة شؤون المعمل الداخلية وشريكه يهتم بأعمالها الخارجية ، فكان دائم السفر الى المدن الاميركية .

وقد اتفق يوماً انه أصيب بعلة وهو في إحدى المدن فدعا اليه صهره ولم يجد جاك بداً من تلبيته فأمر سوليفو أن يتأهب لمرافقته بهذا السفر .

وكان سوليفو قد ترقى في المعمل حتى بات مفتشاً عاماً ، ولكنه كان يذوب حسداً من جاك ولا يفكر إلا بأن يسقيه جرعة من اكسير الحقيقة .

إلى أن أخبره جاك بعزمه على السفر وإياه ففرح فرحاً عظيماً وقال في نفسه:

لقد دنت الفرصة التي أنتظرها منذ عام وسأغتنمها في الطريق .

وكان قد اشترى زجاجة من ذلك الاكسير فوضعها في حقيبته وسافر مع جاك.

حتى إذا اختليا في القطار وضع جاك يده على كتف سوليفو وقال له :

– إننا وحدنا الآن ويسرني ان احادثك محادثة الأقرباء .

فأجابه سوليفو قائلاً : هذا أول يوم عرف قلبي فيه السرور منذ عام .

– كيف ذلك ؟ ألست راضياً على العيش في نيويورك ؟

– كيف لا أكون راضياً وقـد رقيتني فيها الى أعظم منصب أطمع به ؟ ولكني أردت بالسرور سرور المباحثة العائلية ، فانك أكرهتني على ان أتظاهر بعدم اتصالنا بصلة نسب .

– ذلك لا بد منه كما تعلم .

– نعم فقد عرفت السبب يوم كنا في الباخرة ، أما الآن فقد أصبحت السيد المطلق ولم يبقَ لديك ما تخشاه بعد أن أصبحت ثروة مورتيمر في يدك ويخال لي انه لم يبقَ ما يحول دون المجاهرة بقرابتنا .

– أية فائدة من ذلك ؟

– وإذا لم يكن من ذلك فائدة غير التقرّب منك والتنعّم بمحادثتك دون كلفة لكفى .

– لا يحق لك أن تشكو ، فاني إذا لم اجاهر بهذه القربى أمام الناس فقد عاملتك معاملة الأخ .

– ذلك لا ريب فيه وإني أشكرك عليه ، غير أني لا اؤاخذك إلا بمبالغتك بالتكتم .

– قل ما تريد قوله بجلاء .

– اريد أن أقول ان التكتم لا ينبغي أن يكون بين الأهل ، فانك لم تقل لي شيئاً عن ثروتك التي نلتها بعد أن فارقتك بخمسة أعوام ، وكنا كلينا من صغار العمال .

– لقد قلت لك فيما أذكر اني توفقت الى اختراع .

– هو ذاك ، ولكنك لم تقل لي ما هو هذا الاختراع .

– وأنا لا أعلم السبب في هذا الإلحاح فاني بعتُ ذلك الاختراع ولم يبقَ لي حق بأن أنسبه إليّ .

وقد حاول سوليفو أن يسأل عن السبب الذي يحمله على صبغ شعره ولكنه ارتدّ مسرعاً وأيقن أنه بتصريحه هذا يخطىء خطأ لا يغتفره له جاك .

فقال له جاك : ألا تزال تتهمني بالتكتم ؟ وهل بقي لديك ما تسأله عني ؟

– كلا .

فغيّر جاك الحديث وقال له :

– قل لي كيف تقضي أوقات فراغك في نيويورك ؟ فهل توفقتَ فيها الى إيجاد بعض الأصدقاء ؟

– إن الصديق بعيـد المنال في كل بلد ، ولكنني وجدت كثيراً من المعارف كانت تجمعني وإياهم موائد القمار .

– ألعلك من المقامرين ؟

– لا أنكر فان القمار عيبي الوحيد .

– إحذر فانه يلقي بك الى هاوية الإفلاس .

– لا خوف عليّ من الإفلاس فاني مفلس ، ولكن الحظ لا بد أن يسعدني يوماً كما يسعد سواي .

– تريد انه لا يسعدك الآن ؟

– هو ذاك .

– إحذر فانه قد لا يخدمك فلا يلقى في هذا القمار الشائن غير الخسران .

ولبثا يتحدثان أحاديث مختلفة الى أن وقف بهما القطار في محطة المدينة التي كانا ذاهبين اليها .

وهناك لقي جاك عمه وقد أُصيب بنزلة وافدة حالت بينه وبين القصد الذي كان قد سافر لأجله وهو شراء معمل كان معروضاً للبيع ، فتولى جاك وسوليفو هذه المهمة وفحصا الآلات فحصاً دقيقاً .

ثم عادا الى الفندق الذي أقاما فيه وطلبا الى صاحب الفندق أن يأتيهما بالعشاء الى غرفتهما .

وبعـد أن فرغا من العشاء أخذ جاك يفحص موجودات المعمل الذي كان عازماً على شرائه ، وهي مكتوبة مفصلة في دفـتر ، فكان منهمكاً في تثمينها كل الانهماك .

وبعد هنيهة جاءهما الخادم بالقهوة فوضع معداتها على مائدة وراء المائدة التي كان جالساً عليها جاك وتولى سوليفو صبها في الفناجين .

فاغتنم فرصة انشغال جاك بفحص الدفتر وانه لا يراه، فأخذ زجاجة اكسير الحقيقة وصبّ منها بضع نقط في فنجان جاك ثم قدم الفنجان فشكره وشرب كل ما فيه .

وبعد هنيهة بينا كان جاك يقرأ بإمعان وضع يده فجأة على جبينه وجعلت

عيناه تضطربان .

وكان سوليفو يراقبه ، ففرح فرحاً عظيماً لوثوقه من أن ذلك بـــدء تأثير الاكسير .

ولم يكن سوليفو مخطئاً في ظنه ، فان جاك وقف بعد ذلك وقفة غير مألوفة وجعل ينظر نظرة الحائر الى ما حواليه .

فقال له سوليفو وقد تكلف الانذهال : ماذا أصابك ؟

قال : إني شديد الظمأ فاسقني كأساً من الخمر .

فصبَّ له سوليفو خمراً في كأسه فشربها جرعة واحدة .

وعند ذلك جعلت يداه ترتجفـــان وقد احمرَّ وجهه واتقدت عيناه ، فقال له سوليفو :

— ماذا أصابكِ ؟ ألعلك مريض ؟

فقهقه جاك ضاحكاً وقال : أأنا مريض . . كلا ولماذا تريد أن أكون مريضاً؟

— لقد خيّل لي أنك تعبت لكثرة العمل وبتَّ محتاجاً الى الراحة .

— كلا إني لا أحتاج الى الراحة لأن العمل لا يتعبني ولكني ظمآن فاسقني من أفخر أنواع الخمور ولا تبالِ بالثمن فاني من كبار الأغنياء .

فقال سوليفو في نفسه :

لقد آن الأوان .

ثم صبَّ له خمراً في كأسه وقال له :

— لقد قلت انك من الأغنياء فانك لم تنل هذه الثروة إلا بفضل اختراعاتك دون شك .

— نعم فاني بعته لعمي مورتيمر .

— لا أقصد به اختراعك الأخير بل اختراعك الأول الذي استنبطته قبل أن تعرف عمك .

فضحك جاك ضحكاً غريباً وقال :

— هل رأيتك في حياتي قبل التقائي بك في الباخرة ؟ وهل كنت أعلم انه يوجد بين الناس من يدعى اوفيد سوليفو ؟

ثم مشى الى اوفيد وعيناه تقدحان شرراً وقال :

– أتحسب اني من مدينة ديجون واني ادعى بول هرمان .. كلا أيها الأبله فان بول هرمان قد مات في المستشفى وكنت أقيم وإياه في غرفة واحدة .

فلما علمت بموته في المستشفى أخذت أوراقه من حقيبته وتسميت باسمه كي أنقذ نفسي مما يتهددني من الأخطار .

ألم يخطر لك ذلك أيها الأبله ، فحسبتني قريبك وأنت لم ترني في حياتك ؟

ثم مشى أيضاً الى اوفيد مشية المتوعد بحيث اضطره الى التراجع مذعراً وقال :

– ألم احسن عملاً ؟

ألم أفعل ما يفعله كل خبيث محتال طامع ..؟

إني أنا الذي أحرقت معمل لابرو في فورتفيل ، وأنا الذي قتلت صاحب المعمل رئيسي،وأنا الذي سرقت اختراعه واختلست مائتي ألف فرنك من ماله.

وأنا الذي عدت الى المعمل المحروق فتظاهرت بالغيرة المتناهية وألقيت نفسي في وسط اللهب بغية إنقاذ الصندوق كي أدرأ عني الشبهات ثم وثبت من النافذة ونجوت ، والناس يحسبون أن النـــار التهمتني ، فحكم القضاء على حنة فورتيه بدلاً مني ..

ومنـــذ تلك الساعة مُحي اسم جاك جيرود من سفر الوجود فسافرت الى انكلترا باسم بول هرمان وقدمت الى نيويورك فالتقيت في الباخرة برجل يدعى اوفيد سوليفو فأقنعته اني قريبه ولم ينتبه الى صباغ شعري فلم يخـــامره شيء من الشك .

وقد علمت منه اموراً كثيرة عن جيمس مورتيمر وابنته فتزوجت البنت وشاركت الأب وأصبحت من أهل الملايين ومن أصحاب الشرف .

نعم إني الآن رجل شريف فانك لا تعرفني ولا يوجد غير حنة فورتيه التي تعلم أن جاك جيرود هو الذي ارتكب الجريمة وأن جميع النـــاس يعتقدون ان جاك جيرود مات تحت أنقاض المعمل .

أما الآن فاني بول هرمان شريك جيمس مورتيمر .

وعنـــد ذلك وضع يده على صدره فتنهد تنهداً طويلاً ثم سقط على الأرض لا يعي .

فأسرع سوليفو اليه وقد مُلىء قلبه ذعراً وخشي أن يكون قد مات فوضع يده على قلبه واطمأن لفوره إذ شعر بخفقان شديد فابتسم ابتسام المنتصر وقال :

— كلا انه لم يمت ولا شك ان ذلك من تأثير الاكسير فمتى عـــاد الى رشده لا يذكر شيئاً مما رواه عن نفسه كما قال ذلك الكندي الذي أرشدنا الى هـــذا الاكسير العجيب .

نعم يا جـــاك جيرود انك خبيث كما وصفت نفسك ولكني لست بأبله كما ادعيت وقد أيقنت لأول وهلة انك لست بول هرمان .

نعم انك يا جاك جيرود من الأغنياء ولكني سأنال نصيبي من ثروتك .

نعم انك ظفرت بي في تلك الباخرة بفضل تلك السرقة وأنا قد ظفرت بك أيضاً بفضل هـــذا الاكسير وان كل ما قلته سيبقى مطبوعاً على صفحات قلبي لا أنساه ما حييت وسنبقى قريبين إذا شئت ولكني سأنال من مـــال عمك أضعاف ما نلت .

ثم حمل جاك الى السرير وغطاه وذهب الى غرفته فنام نوماً هادئاً .

وفي صباح اليوم التالي صحا من رقاده وذهب الى غرفة جاك فوجده لا يزال نائماً فلم يوقظه مؤثراً أن يستيقظ من تلقاء نفسه وجلس على المائدة وجعل ينظر في قائمة موجودات المعمل .

وما زال على ذلك الى أن صحا جاك من رقاده فنظر الى مـــا حواليه نظرة الحائر وقال : أين أنا ؟

فأجابه سوليفو قائلاً : في مدينة كنجستون في فندق النجوم .

— لماذا نمت دون ان أخلع ملابسي ؟

— كيف ذلك ألا تذكر شيئاً ؟

فنهض جـــاك من سريره وقال : لا أذكر سوى اني كنت أشتغل وانك كنت بجانبي .

فابتسم سوليفو وقال : هو ذاك ، ولكنك بينما كنت تشتغل نهضت فجأة وقد جحظت عيناك ومشيت إليّ مشية المتوعد ، فانهلت عليّ بالشتائم حتى حسبت انك جننت .

فوثب جاك الى أرض الغرفة وقد ارتعد وقال : ما هذا الذي أصابني ؟

– إن الذي أصابك يشبه بدء السكتة الدماغية فانك تجهد نفسك بالعمل وذلك محظر عليك .

فأطرق جاك مفكراً ثم قال : لماذا لم تحضر لي طبيباً ؟

– لأن الحكمة قضت عليّ بذلك ، فانك كنت تقول أقوالاً ما أحببت ان يسمعها رجل غريب .

فاصفرّ وجه جاك وقال في نفسه : ترى ماذا قلت .. وما هذا الجنون ؟

ثم التفت الى سوليفو وقال له : هل كتبت أثمان الموجودات ؟

– نعم فلم يبق إلا ان تراجعها بحيث اننا نستطيع ان نذهب عند الظهر الى المعمل .

وقد أنجزا أعمالهما في ذلك اليوم وفي اليوم التالي عادا الى نيويورك فكان أول ما فعله سوليفو أنه أخذ ورقة وكتب عليها ما يأتي :

نيويورك في ٢٣ يونيو سنة ١٨٦٢

سيدي مدير مستشفى جنيف ،

لقد اتصل بي سنة ١٨٥٦ أن المدعو بول هرمان من أهل ديجون ، وهو ميكانيكي قريب لي قد توفي في المستشفى الذي تتولى إدارته ، ولكننا لم نعلم رسمياً خبر موته بحيث اننا لا نزال مشككين .

ورجائي اليك يا سيدي ان تتفضل بإخبارنا عن حقيقة أمر بول هرمان فإذا كان مات كما أشيع فأرسل الينا نبأ موته مسجلاً ، وقد أرسلت لك في طيه مائة فرنك للنفقات التي يقتضيها هذا البحث ، فإذا زادت القيمة عن النفقات فأرجو أن تعتبر الزيادة إعانة للمستشفى ، وتفضل بقبول احترامي .

اوفيد ساليفو

الشارع الثاني نمرة ٥٥ نيويورك

وبعد شهر ورد جواب مدير المستشفى وفيه تفصيل وفاة بول هرمان مسجلة بالمحكمة ففرح به فرحاً عظيماً وقال :

ـ لقد طالما قبض على جيرود وقد جاء دوري الآن فهو قد بات ملك يدي .

ـ ١٤ ـ

مضى على هذه الحوادث التي رويناها تسعة أعوام وجاءت تلك السنة الهائلة سنة ١٨٧٠ .

ففي الخامس من نوفمبر في ذلك العام كانت جنازة خارجة عند الظهر من كنيسة قرية شفري يسير وراءها الكاهن لوجيه الذي لجأت اليه حنة يوم فرارها.

وقد احمرّت عيناه من البكاء وكان يصحبه رجل في الخامسة والثلاثين من العمر وغلام في الرابعة عشرة وهو بلباس التلامذة .

فكان الرجل ذلك المصور الذي عرفناه والغلام جورج ابن حنة الذي تبنته اخت الكاهن فبات يدعى جورج داريه وكانت المتوفية اخت الكاهن .

وكان جورج قد ادخل في مدرسة هنري الرابع في باريس فلما نشبت تلك الحروب الهائلة بين الالمانيين والفرنساويين سنة ١٨٧٠ جاء به الكاهن الى قرية شفري حيث يقيم .

فبعد أن سكن ثائر الحرب أعاد المصور اتيان جورج الى مدرسته وعاد هو الى عمله في شارع رين .

إذ انه ورده كتاب من الكاهن يخبره فيه بوفاة اخته ، فجاء بجورج من المدرسة وأسرع به الى القرية فحضرا جنازتها .

ولما رجعو الى المنزل قال الكاهن للمصور :

ـ إنك تعلم يا بني ان اختي قد جعلت جورج وريثها وجعلتني وصياً على الغلام .

ـ نعم .

قال وأنا ايضاً سأقتدي باختي فقد كتبت ما أملكه لهذا الغلام الذي أحببناه بملء الحنو وقد عينتك وصياً عليه فهل ترضى بهذه الوصاية ؟

— دون شك فإني احبه أيضاً كما تحبونه .

— أشكرك يا بني فإني اعرف طهارة قلبك وقد كنت واثقاً من قبولك ولذلك سأجعلك وصياً عليه منذ اليوم وأعطيك كتاباً باسمه تحفظه عندك فلا تسلمه إياه إلا حين يبلغ الرابعة والعشرين من عمره فإنه يجب حين يبلغ هذا العمر أن يعرف الحقيقة بجملتها أتعدني أن لا تدعه يعلم شيئاً قبل بلوغه هذا العمر ؟

قال : إني أعدك وعد صادق .

فأعطاه الكاهن كتابين وقال له :

— إن أحدهما يتضمن وصيتي والآخر لجورج وفيه بيان حكايته فأرجو بعد موتي أن تبع كل موجوداتي ما خلا المكتبة فإنها تبقى لجورج .

— سأصدع لكل ما تأمرني به ألك ما توصي به غير هذا ؟

— كلا فإني أموت الآن مطمئناً على مستقبل جورج .

وبعد بضعة أيام توفي الكاهن ايضاً وأنفذ المصور الوصية .

* * *

في ذلك اليوم نفسه الذي مات فيه الكاهن ماتت ايضاً زوجة جاك جيرود تاركة لهذا المنافق المحتال بنتاً في الثامنة من عمرها هزيلة الجسم ضعيفة الدم .

وقد أسف هذا اللص عليها أسفاً عظيماً لأنه كان يحبها حباً صادقاً فلم يتعزى عنها إلا بابنتها .

وكان سوليفو لا يزال ملازماً له وقد عرف سره كما تقدم وأقام تسعة أعوام لم يبح له بكلمة من هذا السر فإن جاك كان يواصل إحسانه اليه فيلجمه ويعطيه كل ما يطلبه .

ولكن سوليفو كان من كبار المقامرين وكان سيء البخت في المقامرة غير أن جاك كان لا يتأخر عن سداد دينه فلا يجد سوليفو حجة لمناصبته العداء وتهديده بذلك السر الرهيب .

يذكر القراء أن لجيل لابرو صاحب المعمل الذي احرقه جاك قد مات قتيلا وترك غلاماً في الثالثة من عمره لم يخلف له من الثروة غير أرض المعمل .

وقد ربي عند عمته إلى أن بلغ العاشرة من عمره فأدخلته الى مدرسة هنري

الرابع حيث يوجد جورج ابن حنة فقضت الصدفة أن يجتمع الولدان ابن الضحية وابن القتيل وأن يكونا صديقين لا يفترقان .

وكان ابن لابرو يدعى لوسيان وقد سمع مراراً حكاية قتل أبيه من عمته فان عمته لم تكن تعتقد أن حنة فورتيه القاتلة بالرغم عن الأدلة المثبتة جريمتها .

وكانت واثقة من ان صاحب الجريمة إنما كان جاك جيرود فطبعت اقوال عمته على ذاكرته وكان أهم شاغل له بعد درسه كشف سر مقتل ابيه .

أما وقد أظهرنا للقراء الآن جميع اعضاء هذه الرواية فلنعد الى حنة فورتيه التي تركناها مجنونة في مستشفى السجن فقد حدثت حـــادثة كانت السبب في شفائها من ذلك الجنون وإليك تفصيل الحادثة .

انه في مدة حصار باريس اصيبت المستشفى التي كانت فيه حنة فورتيه بثلاث قنابل وقد سقطت واحـــدة منها في المكان المعد للمجانين فأحرقته وخربت جدرانه .

وكانت حنة واقفة تنظر الى النار تلتهم ذلك المستشفى فذكرتها تلك الحادثة حادثة إحراق المعمل وعادت اليها ذاكرتها في الحال فشفيت من الجنون .

وقد أنقذوها كما أنقذوا جميع المسجونات ونقلوهن الى سجن آخر فوضعت رأسها بين يديها وجعلت تفتكر في ماضيها فذكرت كل ما مر بها .

وقد دخل الطبيب اليها في اليوم التالي فرآها قد تغيرت تغيراً فجائياً وأن عينيها لا تدلان على شيء من الجنون .

فأقبل اليها يريد أن يسألها ولكن حنة قاطعته قائلة :

ـ ألست طبيباً يا سيدي ؟

فذهل الطبيب وقال : نعم .

ـ إذن أنا هنا في مستشفى .

ـ هو ذاك .

ـ لماذا لم يضعوني في السجن فإني محكومة علي .

ـ إنك في مستشفى المجانين وهو خاص بالسجن فكأنك فيه .

ـ إذن لقد كنت مجنونة .

فتردد الطبيب في الجواب ولكن حنة تولت عنه الكلام فقالت :
– نعم لقد كنت مجنونة فلا تحاول إخفاء ذلك عني على أني شفيت كما يظهر.
فإن ذلك الحجاب الذي كان يغطي عيني قد تمزق وتبددت الظلمات فعدت الى ذكر الماضي .
نعم إنهم حكموا علي بالسجن المؤبد لأنهم أتهموني بالسرقة والإحراق والقتل.
وقد اغمي علي حين سمعت هذا الحكم الجائر فلا اعلم ما جرى لي بعد ذلك حتى خيل لي أني نمت نوماً طويلاً فقل لي أيهـــا الطبيب كم مضى من الزمن على جنوني وكم مضى علي وأنا في هذا المستشفى ؟
فأجابها الطبيب قائلا :
– إنك هنا منذ ١٤ مارس سنة ١٨٦٢
– وفي أي سنة نحن الآن ؟
– في سنة ١٨٧١ .
فوضعت حنة يدها على جبينها وقالت :
– رباه أمضى علي تسعة أعوام وأنا مجنونة ألم يسأل عني أحد في خـــلال هذه المدة ؟
– كلا .
فأشهقت حنة بالبكاء وقالت :
– لقد كان لي ولدان أحدهما يدعى جورج والآخر بنت تدعى لوسي فماذا جرى لهما .. رباه أهما لا يزالان في قيد الحياة ؟
– لا أستطيع أن اجيبك على هذا السؤال ولكنك إذا كتبت للذين أقمت عندهم ولديك أجابوك .
– نعم نعم سأكتب ولكني احب أن أعلم ماذا يصنعون بي ؟
– وأنا احب أن أسألك في البدء كيف عاد اليك صوابك ؟
– لا أعلم سوى أني رأيت النار تلتهب في الجدران فذكرت للحال حريقة معمل فورتفيل .
– وهذا هو السبب في عود صوابك فإن ذلك يتفق كثيراً .

– أتظن أني شفيت تمام الشفاء ؟

– هذا ما أرجوه .

– إذن أرجوك أن تجيبني عما عساهم يصنعون بي ؟

– إنهم يرجعونك الى السجن بعد أن اقدم تقريري في شفائك حسب الحكم الذي صدر عليك .

– إنهم حكموا علي بالسجن المؤبد وقد يكون ولداي لقيا حتفهما دون أن أراهما أبَعْدَ هذا العذاب عذاب .

وعند ذلك جعلت تبكي بكاء يقطع القلوب من الإشفـــاق فتركها الطبيب وانصرف آسفاً عليها وبقيت وحدها فجعلت تقول :

– إني تركت ولدي جورج عند الكاهن في قرية شفري وقد وعدني هذا الكاهن الجليل بالعناية بولدي وهو موف دون شك بوعده .

فإذا كان ذلك كان عمر ولدي جورج أربعة عشر عاماً وعمر ابنتي لوسي اثني عشر عاماً .

أما ابنتي فلا بد أن تكون مرضعتها قد أشفقت عليها وربتها .. رباه أيتاح لي يوماً أن أراهما ؟

وبعد اسبوع كتب الطبيب تقريره عن شفاء حنـــة فأرسلت الى السجن فتمكنت فيه من الكتابة الى الكاهن والى مرضع بنتها ثم صبرت ثلاثة أيام على أحر من الجمر .

وفي اليوم الرابع ورد كتاب من كاهن قرية شفري يقول فيه أن الكاهن الذي كان قبله قد توفي وأنه لا يعلم شيئاً من الحادثة التي ترويها .

وفي اليوم التالي ورد اليها نفس الكتاب الذي كتبته الى المرضع تسألها فيه عن بنتها وقد كتبت إدارة البريد عليه « يرجع لأن صاحبه غير معروف » .

فكانت المنكودة تجن من يأسها وأصيبت بنوبة عصبية حتى اذا استفاقت منها قالت :

– لا بد لي من أن أجد ولدي وابنتي فإني لا أعدم وسيلة أستطيع بها الفرار من هذا السجن .

ولم يخطر لها في بال صعوبة الفرار من مثل هذا السجن بل انها لم تفتكر في طريقة الفرار غير أنها لم تيأس .

ثم أخذت تمعن الفكرة في سبيل الفرار فمضت الأيام وكرت الشهور وتوالت الأعوام وهي لا تهتدي الى مرادها .

وقد أقامت في السجن سبعة أعوام فوق الأعوام التسعة التي أقامتهـــا في المستشفى .

وكانت حسنة السلوك والسيرة فرأف بها مدير السجن واقترح عليها أن يدخلها ممرضة في المستشفى .

فوافقت على ذلك الاقتراح بالشكر فان الممرضات كان لهن امتياز عظيم على السجينات لا سيما وأنهن يقبضن راتباً شهرياً كسائر المستخدمين .

وبعد سنة رقيت فباتت رئيسة الممرضات فعينوا لها غرفـــة خاصة قرب الصيدلية وبرفقتها راهبة كانت تقيم في غرفة مجاورة لها .

وكانت واجبات حنة تقضي عليها أحياناً بالذهاب الى الإدارة والى الصيدلية وغيرها بحيث كانت تستطيـع الذهاب الى حيث شاءت في المستشفى لا سيما حين تكون مرتدية بثوبها الرسمي .

وقد كانت منقبضة الصدر منكسرة النفس تبدو الكآبة على وجهها الى أن أشرق وجهها يوماً بنور البشر كأنها ظفرت بحـل ذلك اللغز الذي تبحث عنه وهو فرارها من السجن والبحث عن ولديها .

ذلك أنها كانت علمت أن الراهبات المقيمات في المستشفى كان يصلين كل يوم في كنيسته ما خلا أيام الأحد فإنهن كن يذهبن الى كنيسة المدينة فيخرجن في الساعة السادسة ويرجعن في الثامنة .

فقالت في نفسها لا بد لي أن أخرج كما يخرج الراهبات بدلاً من إحداهن .

فلما خطر لها هذا الخاطر أخذت تسعى في تنفيذه..

وكانت قد أقامت في المستشفى ثلاثة أعوام بصفة رئيسة للممرضات بحيث باتت شبه طبيب فأخذت من الصيدلية زجاجة من شراب يخدر الأعصاب فيطيل النوم ودخلت بها الى غرفة الراهبة التي كانت مجاورة لغرفتها وأفرغت نصف هذه

الزجاجة في زجاجة من خمر الكنكينا كانت تشرب منها الراهبة كل ليلة قبل رقادها للتقوية .

وأقامت تنتظر الى الساعة العاشرة وهو موعد نوم الراهبة .

الى أن دنت تلك الساعة فنادتها الراهبة وكأس الخمر بيدها وقالت لها :

- أن غداً يوم الأحد ويجب أن أذهب صباحاً الى الكنيسة فأرجو أن توقظيني باكراً .

قالت : سأفعل .

فشربت الراهبة كل ما في الكأس وعادت حنة الى غرفتها فنامت .

وفي الساعة السادسة من الصباح دخلت حنة الى غرفة الراهبة فيلومين فرأتها مستغرقة في رقادها فتركتها وذهبت الى رئيسة الراهبات فقالت لها :

- أن الأخت فيلومين منهمكة في ضمد جرح أحد الجرحى وقد أرسلتني اليك ترجوك أن لا تنتظريها فإنها ستتبعك الى الكنيسة متى فرغت من شغلها .

قالت : حسناً فقولي لها أننا سنسبقها الى الكنيسة .

فعادت حنة مسرعة الى غرفة الراهبة فخلعت ملابسها العليا ولبثت ثياب الراهبة وقالت لأذهب الآن والله الواقي .

وبعد ربع ساعة ذهبت الراهبات الى الكنيسة وقد أخبرت الرئيسة بواب المستشفى أنه لا يزال يوجد راهبة ستتبعهن .

فلما خرجت حنة وهي بملابس الراهبة فيلومين لم يعترضها البواب لأنه كان ينتظر خروج الراهبة المتأخرة كما أخبرته الرئيسة وباتت حنة مطلقة السراح بعد ذلك السجن الطويل .

- ١٥ -

ولنرجع الآن اربعة اشهر الى الوراء ولنذهب الى نيويورك الى جاك جيرود أو بول هرمان صاحب المعامل الشهيرة والملايين الكثيرة فنقول :

كان جاك قد بلغ في هذا العهد الثالثة والخمسين من عمره وكانت ابنته ماري قد بلغت الثامنة عشرة .

وهي فتاة شقراء نحيفة الجسم جميلة الوجه غير أن اصفرار وجهها وضعف بنيتها كانا يدلان على أنها مصابة بعلة الصدر مثل امها فانها ماتت بهذه العلة .

غير أن هذه العلة لم تكن قد تمكنت من الفتـــاة بل كانت واقفة معها موقف المنذر .

ولذلك كان ابوها يوافقها في كل ما أرادت حذراً من استحكام العـــلة وهو يحبها حباً لا يوصف .

ففي ذلك اليوم كانت جالسة مع أبيها واوفيد سوليفو الذي تظاهر جاك بقرابته وبات من أهل المنزل فالتفتت ماري الى أبيها وقالت له :

— كم تبلغ ثروتك يا أبي ؟

فنظر كل من سوليفو وجاك الى رفيقه نظرة المنذهل !

أما ماري فإنها صبرت هنيهة ثم قالت بلهجة دلت على نفاد صبرها :

— لماذا لا تجيبني .. ابدأ بجاوبتي ثم انذهل بعد ذلك من سؤالي فإن اوفيد عالم بكل أعمالك وأنت لا تكتم عنه شيئاً من امورك فأجبني عما سألتك عنه ؟

— ولكن لماذا تريدين أن تعلمي مقدار ثروتي ؟

— لماذا ؟ لأني اريد .

— ليس هذا البرهان يا ابنتي .

— وأنا أجده برهاناً كافياً فإني اريد ان اعلم مقدار ثروتك ؟

— إذن فاعلمي يا ابنتي أن مبلغ إيرادنا مائة ألف ريال في العام .

— وعلى ذلك يكون مقدار ثروتك عشرة ملايين ريال ما عدا المعمل فيما أظن .

— هو ذاك .

— كم يساوي المعمل ؟

— مليون ريال ولو كان لسواي لاشتريته بهذا المقدار .

— إذن يجب أن تبيعه بهذا الثمن .

فنظر أبوها اليها نظرة المنذهل وقال :

— أتريدين أن أبيـــع معملي ؟

— نعم .

– ولكن ...؟

– لا تعترض فإنك غني عظيم ولا حاجة لك الى المعامل بعد هذه الثروة بل إني اريد أن تسرع ببيعه فان لدي مشروعاً لا يمكن تأجيله .

– ما هو هذا المشروع ؟

– هو أن نذهب الى فرنسا فنعيش فيها .

فدهشا الإثنان وقالا بصوت واحد فرنسا ..؟

– نعم فرنسا بلاد أبي فاني فرنساوية واحب فرنسا واريد أن اراها وأرغب أن أعيش وأموت فيها .

– ما دخل الموت يا ابنتي في حديثك ؟

فضحكت ماري وقالت :

– إني لا أحب أن اموت دون شك وإني لا اريد السفر الى فرنسا إلا لأني احب الحياة فان الضجر سوف يقتلني هنا وبت أشعر أن باريس تجذبني اليها كما يجذب المغناطيس .

بل أشعر أني إذا كنت في باريس تمكنت من التنفس بسهولة لا أشعر بها الآن.

– ولكني لا أجد يا ابنتي ما يمنعنا عن الذهـــاب الى فرنسا والإقامة فيها شهرين أو ثلاثة .

– كلا كلا ليس هذا الذي اريده بل اريد أن تصفي أعمالك وتجمع ثروتك فنسافر الى فرنسا حيث نقيم فيها بقية العمر دون عودة الى نيويورك .

فاعترضها سوليفو قائلاً :

– أنبيــع هذا المعمل ونبرح نيويورك .. ما هذا الرأي ؟

قالت : إنك مخير بالبقاء في نيويورك أما انا فاني اريد السفر الى فرنسا وإذا لم اسافر اليها اموت .

فقال لها أبوهــــا ألا تزالين تذكرين الموت فما هذه الأفكار المظلمة التي تتولاك اليوم ؟

– لا أعلم ما يجول في نفسي ولكنني أشعر أن الضجر يقتلني .

ثم جعلت تشهق بالبكاء فضمها جـــاك الى صدره وهو يكاد يذوب حنواً .

فكفكف دمعها وقال بصوت متهدج :

– سكني روعك يا اينتي.. ماري .. لا تبكي فان بكاءك يقطع قلبي وسأفعل كل ما تريدينه .. اطمئني يا ابنتي فسنذهب الى فرنسا .. ولكن مـاذا نصنع في باريس ؟

– نعيش فيهـا عيشة بذخ تناسب ثروتك فنشتري قصراً جميلاً في أحسن شوارع المدينة ونذهب الى الملاعب ونفتح قصرنا للزائرين .

– ولكننا لا نقيم فيها شهرين حتى نملها .

– إني لا أمل في تلك العاصمة الكبرى .

– أما أنا فاني امل من غير عمل .

– وأية فائدة لك بعد من العمل بعد أن اصبحت غنياً ؟

– إني لا اريد الشغل الآن للكسب ، ولكني تعودت العمل حتى الفتـه ولا صبر لي عنه .

فنظرت ماري اليه وقالت له وهي تبتسم :

– اذا كنت قد بعت معملك هنا فما يمنعك عن أن تنشيء مثله في باريس فانك من مشاهير المخترعين وقد وصلت شهرتك الى اوربا كما اعلم من جرائدها فستنال من الشهرة في فرنسا ما نلته في اميركا ..

هلم يا أبي ووافقني على اقتراحي وأسرع في بيع معملك مـا أمكن وأنت يا اوفيد ألا تسافر معنا ؟

فأجابها سوليفو سوف نرى .

فظهرت علائم الجزع على ماري وقالت بجفاء :

– كما تشاء فاني أرى من عينيك أنك ستبذل جهدك لتمنع أبي من تحقيق هذه الامنية ومع ذلك فانه سيوافقني بالرغم عنك فاني احب أن اسافر الى فرنسا لأن هواء هذه البلاد يحييني وإذا أبي ابى أن يذهب بي اليها أموت دون شك .

أعلمت الآن انه يستحيل أن يرفض طلبي فكف عن الاعتراض واعلم أننـا سنسافر بعد اسبوع .

ثم قامت فبرحت القاعة وهي تمسح دموعها .

ولما خلا جاك وسوليفو قال سوليفو :

— هل عزمت على تحقيق امنيتها ؟

— وهل نجد سبيلاً لعصيانها فإني إذا لم اوافقها مرضت وماتت دون شك .

— إذن ستسافر بعد اسبوع ؟

— هو ذاك .

فهز سوليفو كتفيه وقال :

— إن الحنو مستحب ولكن ليس الى هذا الحد .

— غير أن ماري مصيبة في اقتراحها فأي شأن بقي لي في هذه البلاد وعندي انه خير لنا أن نعود الى بلادنا فنعيش فيها بقية ايامنا وإني اعرف رجلاً مثرياً يرغب بشراء معملي فسأذهب اليه .

— وأنا اريد أن اكلمك .

— تكلم .

— ليس هنا .

— لماذا ؟

فخفض سوليفو صوته وقال :

— لأني لا احب ان يسمع حديثنا احد .

— ما هذا الشأن الخطير الذي تريد أن تحدثني به ؟

— سوف تعلم فهلم بنا الى غرفتك الخاصة فلا يسمعنا فيها أحد .

فتململ جاك ثم قال له :

— هلم واتبعني .

حتى إذا وصلا الى تلك الغرفة أقفل جاك بابها وقال له : إننا وحدنا الآن فقل ما تريد .

— لنتحدث إذن ، فقل لي هل أنت عازم عزماً أكيداً على مبارحة اميركا ؟

— نعم .

— لا بأس ولكن ماذا تريد أن تصنع بي ؟

— تسافر معنا .

— لا يروق لي أن أرجع الى بلاد يقبض علي البوليس فيها حين يشاء .

— لا تخف فقد سقط الحق عليك بذهاب المدة .

— هو ذاك ولكني اوثر أن أبقى في هذه البلاد .

— إبق فيها فإني أتوسط لك في خدمة من يشتري معملي براتب معين وبجزء من الأرباح فهل يوافقك ذلك ؟

— كلا .

— إذن ماذا تريد ؟

— اريد أن اشتري معملك .

فقهقه جاك ضاحكاً ثم قال له :

— لقد كنت أحسبك معدماً فقيراً فإذا بك أصبحت من أهل الملايين !

— كلا فليس لدي دراهم على ما تعهدني بل اني مدين بخسارة أمس ومع ذلك فاني سأشتري معملك .

— ما هذا اللغز ؟

— ليس هناك ألغاز فانك ستمضي لي صك ببيع المعمل ثم تمنحني خمسين ألف ريال لأديره وذلك ثمن سكوتي .

فوقف جاك مغضباً وقال :

— ويحك أي سكوت تعني فاني لا أكتم أمراً ولا أخاف شيئاً .

— هل أنت واثق مما تقول أيها القريب العزيز ؟

— ابحث في ماضيك واعلم يقيناً أنك لا تستطيع الرجوع الى فرنسا إلا إذا رضيت أنا أن ترجع .

فلم يفهم جاك شيئاً من مقاصد سوليفو وقال له : ماذا تريد بما تقول ؟

— أقول ان من كان يدعى جاك جيرود لا يجسر على أن يذهب الى فرنسا إلا إذا بقي اسمه مكتوماً .

فلما سمع جاك اسمه يلفظ أمامه وثب الى سوليفو فقبض على ذراعه وقال له :

— ويحك ما هذا الإسم الذي ذكرته ؟

— إني ذكرتك اسمك الحقيقي فكفى أيها القريب العزيز واخلع ثياب التنكر

فانك تدعي جـــاك جيرود وأنت الذي أحرقت المعمل في فورتفيل وسرقت صاحبه لابرو وقتلته .

ثم اخذت اوراق بول هرمـــان المتوفي في جنيف في ١٥ ابريل سنة ١٨٥٦ وتنكرت باسمه .

فذعر جاك ذعراً عظيماً وقال بصوت مختنق :

— من يقول هذا القول ؟

— أنا .

— وأية حجة لك على إثباته ؟

— لدي كثير من الحجج بينها شهادة المستشفى الرسمية بوفاة بول هرمان .

— ذلك كذب ونفاق .

— كفى يا ابن الخال تباهاً فاني عارف بكل شيء ومع ذلك فانك تستطيع الذهاب الى فرنسا دون ان يعترضك أحد بشرط أن أكتم أمرك فاذا كتمته لا يعلم أحد جريمتك ولا يخطر لأحد أن تلك المرأة المنكودة مسجونة بالنيابة عنك.

وكان جاك قد تمالك نفسه فقال له :

— إني أذهب بالرغم عن أبحاثك وأي عقاب أخافه بعد ذهاب المدة .

فضحك سوليفو وقال :

— إن سقوط العقاب بذهاب المـــدة إنما يصح في جرائم السرقة والإحراق والقتل وأما اختلاس الأسماء فلا ينطبق على هذه المادة من القـــانون فاذا بلغ الحكومة مبلغ بأمرك قبضت عليك وبحثت في حاضرك وماضيك .

فارتعد جاك وقال : أتكون أنت ذلك المبلغ ؟

— ذلك منوط بك فاذا لم تكترث لي أبلغت الحكومة حقيقة أمرك وإذا أجبتني الى طلبي كتمته ولا يجب أن تستاء لما تسمعه مني الآن او تحسبني من أهل الطمع .

فاني أعرف سرك المكتوم من عهد بعيد يتصل بعهد زواجك فلو كنت اريد الاستفادة من هذا السر لاغتنمت الفرصة .

أما الآن فانك مزمع على السفر وقد قضيت معظم عمري مرؤوساً فحق لي

بعد هذا الصبر أن اكون رئيساً وأنت غني فأعطني معملك وخمسين ألف ريال لأدير بها العمل او اضطر مكرهاً الى فضيحتك وإظهار اسمك الحقيقي بما لدي من البراهين .

فهلا اشتريت سمعتك وراحتك بهذا المبلغ الزهيد بالقياس الى ثروتك وما يكون من مصير بنتك إذا جردتك الحكومة من أموالك وزجت بك في ظلمات السجون فتمعن في الأمر تجد أنه خير لك أن نبقى صديقين .

فوقف جاك ونظر اليه نظرة النمر المفترس وهو يقول : مــــاذا علي لو قتلتك الآن ؟

— إن ذلك لا يفيدك فاني كتبت وصيتي وأودعتها عند أحد المسجلين وفيها حكايتك بالتفصيل والأدلة القاطعة على صحة ما رويته عنك بحيث لا يمضي على قتلي يومان حتى تفتح الوصية ويشتهر أمرك .

فقال جاك بلهجة القنوط :

— لقد فزت علي ايها الشقي .

— لا تعجب لفوزي فقد فزت قبلي والآن على ماذا عزمت ؟

— تعال معي .

— الى أين ؟

— الى دافيد سون صاحب المصرف الذي اودع أموالي عنـــده وبعد ساعة اعطيك خمسين ألف ريال ويكون المعمل لك .

— لقد أحسنت ونهجت مناهج الحكمة أما الآن وقد حدث ما حدث فلا بد من افتراقنا ولكني أرجو أن نبقى صديقين متصلين بالمراسلة .

وفي ذلك اليوم نفسه أصبح المعمل ملكاً لاوقيد سوليفو وبعد إسبوع سافر جاك مع ابنته ماري الى الهافر وفي آخر الشهر كانا مقيمين في قصر جميل بجوار حديقة مونسو .

وكان لجاك جيرود او لبول هرمان كثير من العلائق مع رجـــال المعامل وأصحاب المصارف وأهل الاختراع في باريس وكثيرون منهم زاروه حين كانوا يسافرون الى اميركا كما أنه كان مشهوراً بالثروة والاختراع ففتح أبواب قصره

لزائريه ولم يكد يختلط بالناس حتى اشيع أنه عـازم على إنشاء معمل عظيم في ضواحي باريس لاختراعاته .

وقد شرع جاك بالبحث عن أرض صالحة لبناء المعمل فيها فوجد على ضفاف السين في كوربفوا أرضاً موافقة تبلغ مساحتها عشرة آلاف متر فاشتراها لفوره وأخذ يهتم في البناء .

ولكنه لم يكد يشرع بالبناء حتى اقيمت قضية بشأن هذه الأرض تتعلق بحق المرور فيها .

فاضطر جاك الى البحث عن محامي ماهر للتخلص من هذه القضية واستشار أحد اصدقائه من اصحاب المصارف فأرشده الصراف الى محام فتي اشتهر شهرة واسعة في باريس على حداثة سنه .

قال أرشدني الى عنوانه كي أذهب اليه لفوري ؟

قال : انه يدعى « جورج داريه في شارع بونابرت نمرة ١٩ » .

فشكره جاك وذهب الى ذلك المحامي الفتي وهو لا يخطر له في بال انه ابن حنة فورتيه تلك الضحية التي أقامت في السجن من أجله عشرين عاماً .

* * *

ويذكر القراء أن جورج ابن حنة التي تبنته اخت الكاهن باسم جورج داريه وعهد به الكاهن الى المصور اتيان كاستل كان يتلقى دروسه في مدرسة هنري الرابع في باريس .

وقد درس الحقوق ونبغ فيها وكاد يبلغ الخامسة والعشرين من العمر في ذلك العهد ولكنه كان منذ عامين معدوداً بين كبار المحامين .

وكان يقيم في شارع بونابرت وقد فرش مكتبه خير فرش غير أن الذي كان يستلفت الأنظار في ذلك المكتب تلك المكتبة التي أهداها اليه الكاهن وعمود من خشب الابنوس وضع في أعلاه ذلك الجواد الخشبي الذي كان يلاعبه في حداثته .

وقد جلله بالسواد واحتفظ به الى الآن لاعتباره أنه تذكار من امه كلاريس

لأنه لم يكن يعلم أن امه حنة فورتيه .

ولم يكن عنده من الخدم غير طباخة في الخامسة والأربعين من عمرها فكان لا يأكل خارج البيت إلا حين يدعوه القيم عليه اتيان كاستل المصور .

فبينما كان جورج يراجع أوراق قضية دخلت اليه خادمته برقعة زيارة كتب عليها اسم بول هرمان .

وبعد هنيهة دخل اليه جاك جيرود فالتقى هذا الشقي بعد واحد وعشرين عاماً بابن ضحيته .

وكان جاك تجاوز الخمسين من عمره وقد ابيض شعره لأنه لم يعد يصبغه فلم يستطع أحد منهما أن يعرف الآخر فبدأ جاك الحديث فقال :

— لقد أرسلني اليك صرافي ادورد هلبرجر احد زبائنك وأنا فرنساوي الأصل أتيت حديثاً من أميركا فان صحة بنتي ورغبتها بالأقامة في فرنسا دعتني الى الرجوع الى الوطن .

ولكني على كوني من أهل الثروة لم أستطع العيش من غير عمل لتعودي مشاق الأعمال فاشتريت أرضاً في كوربفوا .

وما كدت ابدأ بانشاء معمل فيها حتى اضطررت الى إيقاف البناء لتعرض بعض المشاغبين لي .

وعند ذلك بسط له تفاصيل القضية وعرض عليه أوراقها ففحصها جورج وقال له :

— إنك مصيب وستربح القضية دون شك .

— أتريد أن تتولاها ؟

— دون شك ولكني أحتاج الى توكيل منك .

— اكتب ما تريد أن تكتبه فأوقع عليه .

فكتب جورج التوكيل وبعد أن أمضاه جاك قال له :

— إني اكون ممتناً لك إذا تكرمت بزيارتي لإفادتي عما يكون .

فشكره جورج لهذه الدعوة وافترقا .

وبعد شهر أيقن أخصام جاك أنهم خاسرون . فباشر البناء وكان جورج قد

زاره مرتين فاستقبل فيهما خير استقبال .

* * *

كان جاك يضطر أكثر الأحيان الى الإقامة خارج منزله للاهتمام ببنـاء معمله الجديد ، فكانت بنته تقيم وحدها في المنزل .

ولكنها لم تكن تضجر لأن أكثر بنات أصحاب أبيها كنّ يزرنها ، على ان هواء باريس لم يوافقها فان آثار العلة الصدرية ظهرت عليها، وكان أبوها يرى هذه الدلائل فيندعر ويأتيها بالطبيب بالرغم عنها فانها كانت تعتقد انها معافاة سليمة فتضحك من رعب أبيهـا لا سيا حين كان الطبيب يقول أمامها أقوالاً تدعو الى الاطمئنان ثم يكتب العلاج إذ لا بد من كتابته وينصرف .

وكانت ماري تحب البهرجة ، وقد اختارت لخياطة ملابسها أشهر خياطة في باريس وهي مدام اوغستين .

وكانت هـذه الخياطة على كثرة العاملات عندها مضطرة الى تعيين عاملات كانت ترسلهن الى بيوت زبائنها .

وكان بين عاملاتها فتاة تدعى لوسي وهي خير العاملات ، وقد حاولت أن تأتي بها الى مخزنهـا ولكن لوسي أبت إلا أن تشتغل في غرفتها في جزيرة سانت لويس .

وهذه الفتاة كانت تبلغ الثانية والعشرين من العمر وهي جميلة الوجه رشيقة القوام ساحرة اللحظ تدل عيناها على السلامة والطهارة .

وكان جميع العاملات يحببنها ويحترمنها لحسن سمعتها إذ لم يكن يزورها أحد.

ولكن صاحباتها كنّ يعلمن ان لها جاراً رساماً يدعى لوسيان لابرو يحبهـا ويريد الزواج بها .

- ١٦ -

وقد عرف القرّاء ان لوسيان لابرو هو ابن لابرو صاحب المعمل الذي قتله جاك جيرود واتهمت به حنة .

وحكايته انه حين ماتت عمته كان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره وقد علمته خير تعليم .

ولكنه كان وحيداً لا معين له فلم يفز الفوز الذي يقتضيه علمه لعدم وجود الواسطة ، فجعل يشتغل بالرسم ويعيش من عمله .

وقد قادته الصدفة الى المنزل الذي تقيم فيه لوسي الخياطة فاستأجر غرفة فيه ، وكان يراها أكثر الأيام على السلم فبدأ حبهما بالسلام فالابتسام فالكلام على حد قول الشاعر :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

الى ان تمكن منهما الحب ، وكان حباً طاهراً نقياً لا يُراد به غير الزواج .

وقد قال لها يوماً : اني احبك يا لوسي حباً صادقاً ومتى انتظمت حالي وبتُّ غنياً تزوجت بك ، أترضين ان تنتظري ؟

فأجابته قائلة :

– إنني احبك كما تحبني وأنتظر قدر ما تشاء ، ولكن لماذا تتمنى الثروة ؟ فانك مجتهد نشيط وأنا لست كسلى فإذا اشتغلنا معاً كان لنا ما يزيد عن نفقاتنا.

ولكني أرى انك لا ترضى بذلك ، فلماذا ؟

– إني لا أرضى بذلك لسببين : أولهما أننا متى تزوجنا يكون لك من أشغال البيت ما يلهيك عن غيرها من الأشغال ، والثاني هو اعتقادي أن الرجل يجب عليه وحده ان يشتغل لإعالة امرأته وبنيه ، وليس للمرأة غير أشغال البيت .

ومضى على ذلك عام ، فكانت لوسي صابرة خلافاً للوسيان فقد بدأ يسأم فان أرباحه لبثت قليلة لا تكفي العائلة ، فإذا تزوج يحلُّ به الشقاء مع أول ولد تلده له امرأته .

وكان كلا العاشقين قد حكى حكايته للآخر ، وقد عرفنا حكاية لوسيان أما حكاية لوسي فهي قصيرة تحكى بسطرين وهما :

ان مرضعة جاءت يوماً الى ملجأ الأطفال بطفلة يبلغ عمرها عاماً ونصف فربيت في الملجأ الى أن شبّت فخرجت منه واشتغلت بالخياطة .

ولا بد ان يكون عرف القرّاء ان لوسي هذه كانت ابنة حنة فورتيه وأخت جورج المحامي .

* * *

في الساعة التاسعة من صباح يوم كانت لوسي قد أتمت خياطة ثوب ، فحملته وخرجت به من غرفتها كي تذهب به الى مدام اوغستين .

وكانت غرفة لوسيان بجانب غرفتها فدخلت اليه قبل ذهابها فاستقبلها فرحاً مسروراً بلقائها .

غير أنها تأثرت تأثراً عظيماً لما رأته من اصفرار وجهه فقالت له :

– ما هذا الاصفرار الذي يتولاك يا لوسيان ؟ انك لا تزال ساهراً تشتغل كما أرى ، أما رجوتك ان تكف عن إجهاد نفسك بالعمل ؟

قال : يسؤني اني لم أستطع الامتثال ، فان لديّ رسوماً يجب ان اسلمها الى صاحبها في أقرب حين .

– ولكن هذا الاجتهاد قد يقتلك .

– ماذا تريدين ان أصنع ؟ فاني لم أدع معمـــلاً إلا ولجت بابه فلم ألقَ من أصحابه غير الوعود ، وأخاف ان يذهب العمر قبل تحقيق هذه الوعود .

وقد ساد السكوت هنيهة بينهما الى أن عادت لوسي الى الحديث فقالت :

– إني أراك مسترسلاً الى اليأس يا لوسيان ، وما هــــذا شأن المحبين ، فهل لم تعد تحبني ؟

– ما هــذا القول الجائر يا لوسي ! فانك تعلمين اني احبك بملء جوارحي ولكن ماذا تريدين ان أصنع ؟

– اريد ان تصنع ما يصنعه سواك ممن هم أقل كفاءة منك ، وأريد ان تعمل بقول الشاعر العربي :

أخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب ان يلجا

أريد أن تذهب في كل يوم الى هـــذه المعامل وأن لا تمل السؤال فلا بد أن تُجاب الى ما تطلب .

ــ ولكنني إذا قضيت النهار جائلا باحثاً عن عمل ثابت ، لا أستطيع العمل لأعيش .

ــ ألم أقل لك اني مقتصدة بعض الدنانير ، فلماذا لا تأخذها ؟ فاني اعطيها الى خطيبي اليوم وزوجي في الغد .

ــ كلا ، اني لا أقبل ذلك على الإطلاق .

ــ ما هذا العناد يا لوسيان ؟ أتأبى عليّ لذة مساعدتك لأني امرأة ؟

ــ كلا .. كلا ، لقد قلت لك مراراً اني لا أقبل .

ــ إذن لماذا لا تلجأ الى أصحابك الذين كنت وإياهم في المدرسة ؟ فانهم جميعهم من الأغنياء .

ــ لقد اجتمعت بهم كلهم ، فكانوا يستقبلونني بملء البشاشة الى أن يعلموا بعسري فيصدون عني حتى اضطررت الى اجتنابهم .

ــ أعاملوك كلهم بهذا الجفاء حتى ذلك الفتى الذي كنت تمدحه أمامي ؟

ــ أتعنين به جورج داريه رفيقيَ في مدرسة هنري الرابع ؟

ــ نعم فهل لقيته ؟

ــ كلا فاني لا أعلم أين يقيم لأني لم أرَه منذ ستة أعوام .

ــ ألعله في باريس ؟

ــ ماذا كان يدرس في المدرسة ؟

ــ علم الحقوق .

ــ إذا كان من المحامين كانت معرفة محله ميسورة .

ــ دون شك ، ولكنه سيكون مثل سواه من بقية الأصحاب .

ــ مَن يعلم ؟ فانه قد يكون من أهل المروءة وان قلبي يحدثني بأنه سيكون من خير أصدقائك ، فاذهب اليه يا لوسيان إني أرجوك .

ــ سأمتثل لأمرك أيتها الحبيبة وأبحث عنه منذ اليوم .

فابتسمت لوسي وقالت :

ــ لقد دخلت اليك منقبضة الصدر من اليأس ، وأنا أخرج الآن وملء قلبي الرجاء بوعدك ، فتوكل على الله وسنلتقي في هذا المساء .

ثم بسطت جبهتها لخطيبها فقبّلها وانصرفت بالثوب الى مدام اوغستين .

وكانت هذه الخياطة الشهيرة تقيم في شارع سانت اونوريه فذهبت لوسي اليها ودخلت بثوبها الى قاعة التجربة فوجدت فيها مدام اوغستين مع سيدة جميلة شقراء تبلغ الثامنة عشرة من عمرها .

وكانت من أفضل زبائن مدام اوغستين كما يظهر لأنها كانت تقيس لها الثوب بنفسها .

فلما رأت مدام اوغستين لوسي دخلت اليها ابتسمت لها وقالت : لقد أتيت حين الحاجة اليك ، فاني سأعطيك شغلاً مستعجلاً يقتضي له كثير من سلامة الذوق وهو ثوب رقص أي هذا الثوب الذي ترينني أقيسه للسيدة ماري هرمان .

فقالت ابنة جاك جيرود :

— أهي هذه المدموازيل التي ستتولى خياطة ثوبي ؟

فأجابتها الخياطة قائلة :

— نعم فانها أمهر العاملات عندي وأسلمهن ذوقاً وستخفف عنك مؤونة الحضور إلي فانها تذهب الى منزلك فتقيس لك الثوب حين إتمامه .

فقالت لها ماري :

— إذن سأنتظرك في قصر أبي فاني أكون فيه دائماً في الصباح وأرجو ان تنجزي خياطة الثوب في أقرب حين .

ثم انصرفت وهي تبتسم للوسي فشيّعتها مدام اوغستين الى الخارج بملء الإكرام .

وعادت الخياطة ففحصت الثوب الذي جاءت به لوسي وأثنت عليها لإتقان صنعه قائلة :

— هذا هو السبب الذي دفعني الى ان أعهد اليك بخياطة ثوب السيدة هرمان التي يصعب إرضاءها ، فهل رأيتها قبل الآن ؟

— كلا .

— إنها أميركية وأبوها من أهل الصناعة والاختراع وهو من أصحاب الملايين وقد برح نيويورك ليستوطن باريس .

أما ابنته فانهـا صعب إرضاؤها كما قلت لك وهي معذورة في ذلك بسبب مرضها فانها مصابة بعلة الصدر دون ان تعلم فأرجو ان تعتني بشوبها كل العناية ، وهذا هو عنوانها فاكتبيه .

فكتبت لوسي العنوان وانصرفت ، أما لوسيان فكان كل همه ان يعلم إذا كان جورج داريه مقيماً في باريس ، ويكفي لذلك ان يقرأ أسماء المحامين في الجدول المعلق في سراي الحقانيـة ، فإذا كان من المحامين فلا بد ان يكون اسمه مكتوباً في الجدول .

وقد تغدى في غرفته ثم ذهب تواً الى المحكمة فلقي رجـلا بملابس المحامين وسأله عن مكان الجدول كي يرى إذا كان اسم جورج داريه مكتوباً فيه .

فأجابه المحامي قائلاً : لا حاجة الى مراجعـة الجدول فان جورج داريه من زملائي وهو يقيم في شارع بونابرت نمرة ١٩ .

فشكره لوسيان وانصرف مسروراً برجائه ليقابل ذلك الصديق القديم .

أما جورج داريه فانه كان جالساً في مكتبه وهو منهمك في مراجعة أوراق فجاءت الخادمة وأخبرته بزيارة اتيان كاستل المصور والوصي عليه .

فأسرع جورج الى لقائه وقال له معاتباً :

— لقد مضى اسبوعان دون ان نراك .

فأجابه المصور بلهجة المؤنب : هو ذاك فاني كنت منهمكاً بإتمـام رسم ، ولكن المسافة بين منزلي ومنزلك غير بعيدة ، ألم تكن تستطيع زيارتي ؟

— لا تلمني فان أشغالي كثيرة في هذه الأيام .

— هذا الذي أتمناه ولا ألومك بدليل اني قادم للغداء عنـدك ، والآن فاعلم اني فرغت من الرسوم التي كنت أصنعها وقـد بقي عليّ رسم حادثة أخذت مذكرات بها منذ واحد وعشرين عاماً في منزل خالك كاهن شفري ، وأريد ان تساعدني .

— مُرْ بما تشاء فاني طوع لك فيما تريد .

— انك محتفظ كما أعلم بتذكار قديم من عهـد الحداثة وهو جواد من الخشب والكرتون كنت تلاعبه .

– هو ذاك ، فانه تذكار من أمي أعطتني إياه حين كنت طفلاً وأنا أحتفظ به الآن كأجلّ الآثار .

– اني اريد ان تسلفني هذا الجواد كي أتم به الرسم .

فدهش جورج وقال : ماذا تريد ان ترسم ؟

– حادثة محزنة مؤثرة، وهي جنود دخلوا الى منزلي للقبض على امرأة متهمة بجريمة وقد لجأت الى هذا المنزل، وأعضاء هذا الرسم كثيرون وهم المرأة المقبوض عليها والجنود وعمدة البلدة وخالك الكاهن وأنا وأنت .

– أنا ؟

– نعم أنت فانك كنت تبكي كأنك تتوسل الى الجنود ان يعفوا عن تلك المرأة المنكودة .

– أحدثت هذه الحادثة أم هي من مخترعاتك ؟

– بل حدثت حقيقة .

– وأنا كنت فيها ؟

– دون شك .

– ذلك عجيب ، فقد يقال ان حوادث الحداثة تنطبع على ذاكرة الأطفال فلا يمحوها كرور الأيام ، ولكني لا أذكر شيئاً مما تقول فكم كان عمري في ذلك العهد ؟

– ثلاثة أعوام ونصف .

– اني لا أذكر شيئاً من ذلك العهد.

– راجع ذاكرتك .

– لقد راجعت فلا أذكر .

– اني اعينك على التذكر ، فقد جرت الحادثة في الحديقة وكان بجانبك جوادك الخشبي ، ولذلك أردت ان آخذ منك هذا الجواد كي يكون الرسم طبيعياً .

– سأعطيك إياه بملء الرضى ، ولكنك قلت لي ان صور أمي وخالي وصورتك ستكون في هذا الرسم .

ـ وصورتك أيضاً .
ـ ماذا تريد ان تصنع بهذا الرسم أتريد بيعه ؟
ـ لماذا تسألني هذا السؤال ؟
ـ لأنه لا يوجد عندي الى الآن صورة من صنعك .
ـ يظهر أنك أصبحت من الأغنياء فانك تعلم اني أبيع رسومي بأغلى الأثمان .

فابتسم جورج وقال : اني أعلم ما تقول ، ولكني أعلم أيضاً انك ستعاملني معاملة الأصدقاء .

فضحك المصور وقال : ألم تعلم بعد اني لم اعد هذا الرسم إلا لأجعله هدية لك ؟ ولم اخبرك بذلك في البدء لأني أحببت ان اباغتك به ، فأعدّ له مكاناً منذ الآن .

فشكره جورج وقال له :

ـ أرى ان هذه المرأة التي قبضوا عليها لها الدور الأول في رسمك وقد قلت لي ان الحادثة حقيقة فهل تقول لي ماذا جنت هذه المرأة ؟
ـ إنهم اتهموها بثلاث جنايات وهي : الإحراق والسرقة والقتل .
ـ مسكينة .. انهم حاكموها دون شك .
ـ هو ذاك .
ـ وبماذا حُكم عليها ؟
ـ بالسجن المؤبد .
ـ ذلك يدل على انها كانت حقيقة مجرمة .
ـ دون شك ، فان القضاة أيّدوا جريمتها بالبراهين .
ـ أتعرف اسمها ؟
ـ كنت أعرفه ولكني نسيته لتقادم الأيام .

وعند ذلك دخلت الخادمة فقطعت عليها الحديث وقالت :

ـ يوجد بالباب فتى يريد مقابلتك وهو يدعى لوسيان لابرو .

* * *

فظهرت على جورج علائم الفرح والانذهال وقال : انه صديق لي من أيام التلمذة لم أرَه منذ خمسة أعوام ، فهل تعرفه ؟

فأجابه المصور قائلاً : أظن اني أعرف اسمه .

ـ أتأذن لي ان اقابله بحضورك ؟

ـ لا آذن لك فقط بل أرجوك .

فاستقبل جورج صديقه بسرور صادق وعرّفه بالوصي عليه ، ثم دار بينهما الحديث فقال له جورج :

ـ ألعلك مقيم في باريس أيها الصديق ؟

ـ نعم وذلك منذ سنتين .

ـ لقد كنت أعهد بك الميل الى الميكانيكيات فلا بد ان تكون الآن رئيساً لأحد المعامل .

ـ كلا واأسفاه .

ـ كيف ذلك ألم تبلغ بعد هذا الشأو على ما أعهده بك من المهارة والحذق !

ـ ذلك لأن هذه المهارة التي تصفني بها لم تفدني شيئاً لأنها غير مقرونة بالتوفيق ، بحيث اني اضطررت بعد استنفاد الحيل الى نسخ رسوم الآلات لأعيش منها .

ـ ألم يتوسط لك أحد في المعامل ؟

ـ لقد عملت كل ما يعمل حتى إذا قنطت أتيت اليك .

ـ لقد كان يجب ان تبدأ بي فاني لا آسف إلا على أمر واحد وهو تأخرك بقدومك إلي وساهتم بشأنك منذ الغد .

ـ هل خطر لك خاطر ؟

ـ نعم فهل ترضى ان تتولى إدارة معمل خاص بإنشاء آلات السكك الحديدية ؟

ـ ذلك كل ما أطمع فيه .

ـ إذن فاعلم اني أرجو ان أوفق الى تعيينك بهذا المنصب ، وذلك اني عرفت رجلاً من زبائني فرنساوي الأصل عاد من نيويورك الى باريس فأنشأ فيها معملاً

عظيماً لأنه من كبار الأغنياء ، وقد خدمته خدمة جليلة فهو لا يخيب رجائي دون شك ، أما هذا الرجل فانه يدعى بول هرمان .

ـ بول هرمان ! أهو شريك جيمس مورتيمر في نيورك ؟

ـ هو بعينه فكيف عرفت اسمه ؟

ـ لأنه أشهر رجال الصناعة فهو مخترع آلة الخياطة الساكتة وهو مخترع آلة الصقل التي كان أبي يشتغل فيها كما أخبرتني عمتي .

ـ إذن ستغدو يد هذا الرجل اليمنى .

ـ لا أعلم كيف أشكرك أيها الصديق فإنك إذا نجحت بسعيك المحمود أحييت ميت الرجاء في قلبي .

ـ أرجو ان يكون النجاح مضموناً فلا تقل كلمة لأحد عن اجتماعنا واعتمد علي وإنك ستتغدى معنا فنتم الحديث .

ـ ولكن ..

فقاطعه جورج قائلا :

ـ لا تعترض ولا تعتذر فإني لا أقبل لك عذراً .

وقال اتيان المصور :

ـ لقد قلت لنا منذ هنيهة أن أباك كان مخترعاً فهل أنت ابن جيل لابرو الذي احترق معمله منذ نيف وعشرين عاماً ؟

ـ نعم يا سيدي وان أبي المنكود مات قتيلاً في تلك الحريقة .

فدهش جورج وقال له :

ـ إنك لم تذكر لي شيئاً عن هذه النكبة من قبل .

ـ ذلك لأني كنت أجهل تفاصيلها فقد كتموها عني في بدء عهودي كي لا يؤثر علي الاضطراب أثناء دروسي فلم أعلم هذه الحادثة الهائلة إلا بعد وفاة عمتي .

فسأل جورج اتيان إذا كان قد عرف أباه من قبل ؟

ـ كلا ولكني سمعت الناس يتحدثون بهذه الحادثة فطبع اسم هذا الرجل الشريف على ذاكرتي .

ثم قال في نفسه ما هذا الاتفاق الغريب أيكون ابن القاتلة صديق ابن المقتول؟

وقال جورج :

ــ هل عوقب المجرم ؟

فأجابه لوسيان أن الجاني كانت امرأة وقد عوقبت بالسجن المؤبد .

ــ امرأة !

ــ نعم فإنها هربت بعد ارتكاب الجناية ولجأت الى منزل كاهن في قريةقريبة من باريس .

فنظر جورج الى اتيان نظرة السائل ؟

فأجابه اتيان قائلا :

ــ هو ذاك فان هذه المرأة هي نفس المرأة التي كنت احدثك عنها من قبل والذي لها الدور الأول في الرسم الذي أصنعه .

فقال له لوسيان : هل عرفت هذه المرأة يا سيدي ؟

ــ لقد رأيتها وكلمتها .

ــ أين كان ذلك ؟

ــ في قرية شفري وفي منزل كاهنها وهو خال جورج .

ــ ما هي صفاتها ؟

ــ إنها بارعة الجمال جذابة العينين وكان يظهر عليها أنها شديدة العذاب .

ــ إنها أنكرت جريمتها أليس كذلك ؟

ــ كل الانكار فهي تعتقد أنها بريئة .

ــ ربما كانت صادقة في مدعاها .

ــ ولكنهم حكموا عليها .

ــ ذلك لا يدل دلالة صادقة على ثبوت الجريمة فإن خطأ القضاء مشهور في كل البلاد .

ــ غير أن الأدلة كانت كثيرة قاطعة .

ــ وهذه الأدلة قد تكون كاذبة فهل اتبعت مجرى القضية يا سيدي ؟

ــ بملء الاهتمام .

ــ ماذا كان اعتقادك بتلك المجرمة ؟

– إنها قد تكون مذنبة ؟

– تقول إنهـا قد تكون فكأنك لا تجسر على الجزم كما جزم القضاة فتمعن اتيان هنيهة ثم قال :

– ذلك ممكن بل قد يكون مرجحاً .

– أما أنا فإني قرأت أوراق القضية وقد حفظت عمتي جميع الجرائد التي أسهبت في هذا الموضوع فاعتقدت بعد تلاوتها أن هذه المرأة بريئة وكان هذا اعتقاد عمتي فلقد كانت تقول قبل موتهـا أنه لا يمكن أن تكون حنة فورتيه مرتكبة الجرائم الثلاث .

فقال جورج أتدعى هذه المنكودة حنة فورتيه ؟

– قال : نعم .

فسأل المصور قائلا :

– أتعلم ماذا كان دفاعها ؟

قال : نعم فإنها كانت تتهم نائب رئيس المعمل بالقتل وهو يدعى جـاك وقالت أن هذا الرجل كان يظهر لها الحب ويدعوها الى مبارحة فرنسا بالأموال المسروقة وانه كتب لها « كما تقول » كتاباً يتضمن البرهان الجلي على سوء قصده ولكنها لم تستطع إظهار هذا الكتاب .

فقال له لوسيان :

– هو ذاك وإني واثق من أن الكتاب قد كتب وأن الجاني هو جاك جيرود دون سواه .

– ألعلك نسيت أن هذا الرجل مات شهيد غيرته وإخلاصه ؟

– كلا فإني وعمتي لا نثق بأن هذا الرجل مات وسأبذل جهدي في سبيل معرفة القاتل وإطلاق سراح تلك المنكودة المحكوم عليها ظلماً .

– وأية فائدة من إيجاد القاتل بعد أن مضى على الحادثة واحد وعشرون عاماً فإن الحكومة لا يحق لها مقاضاته لفوات المدة القانونية .

– لا ابالي بمحكمة القضاة فانني أنتقم لنفسي .

– أتعلم إذا كانت حنة فورتيه باقية في قيد الحياة ؟

ــ كلا ولكني سأعلم .

فقال له جورج :

ــ إنك إذا أحببت توليت عنك هذه المهمة وذلك سهل علي لكثرة اتصالي بالمحاكم والقضاة .

ــ أشكرك لإخلاصك أيها الصديق والآن فقد بحثنا كثيراً في شأني وأظهرت لي من المروءة ما قيدني بجميلك فلنبحث في شأنك فهل أنت راض عن حالتك ؟

ــ كل الرضى فان المسيو اتيان الوصي علي لا يزال من خير أصحابي وقد عرف الزبائن باب مكتبي فأنا دائم الشغل دائم الفوز وماذا عساي أتمنى بعد ذلك؟

ــ زوجة تشاركك في هذا النعيم .

فضحك جورج وقال :

ــ لا يزال الوقت فسيحاً لدي في شأن الزوجة وأظن أني سأبقى عازباً كما بقي المسيو اتيان فاني لا أزال الى الآن اوثر العزوبة على الزواج فهل أنت على هذا الرأي ؟

فاحمر وجه لوسيان وقال :

ــ كلا ولكني لا استطيع الإقدام على هذا الأمر الخطير الذي يدعونه بالزواج الى أن يحسن حالي .

وقد رأى جورج احمرار وجه صديقه فقال :

ــ أرى أن هذا هو الذي يمنعك الآن عن الزواج .

ــ هو ذاك فاني عدا عن فقري ليس لدي مركز يضمن نفقاتي وكذلك لوسي التي ستغدو امرأتي فانها فقيرة مثلي .

ــ من هي هذه الفتاة ؟

ــ هي صبية يتيمة ربيت في ملجأ اليتامى فلا تعرف اسم عائلتها ، ولكنها طاهرة القلب مجدّة في العمل تشتغل كالنحلة .

ــ أتحبها ؟

ــ بملء جوارحي ، فلا سعادة لي إلا بقربها .

ـ إذن أرجو ان أراك سعيداً في أقرب حين ، إذ لا يعوزك في سبيل هذه السعادة غير المنصب الذي ستتولاه قريباً إن شاء الله ، وأنا أدعو نفسي مقدماً الى عرسك .

* * *

وقد أقام لوسيان عند صديقه الى الساعة الحادية عشرة ثم ودعه وسار عائداً الى غرفته وهو يكاد يطير سروراً لما لقيه عند صديقه من الحفاوة والرجاء .

وكانت لوسي تنتظر عودته بملء الجزع وهي منقبضة الصدر كئيبة النفس . وما زالت تشتغل وتنتظر حتى سمعت وقع خطواته على السلم ، فأسرعت الى فتح باب غرفتها ونادت بصوت منخفض قائلة :

ـ أهذا أنت يا لوسيان ؟

فأسرع لوسيان اليها وقال :

ـ نعم أيتها الحبيبة .

قالت : لقد عذبتني كثيراً بهذا الانتظار فقد طال غيابك حتى اني خفت عليك خوفاً شديداً .

ـ لقد اخطأت بهذا الخوف يا لوسي فإني لم ألق غير السعادة أتأذنين لي أن أدخل الى غرفتك واخبرك بماذا حدث لي ؟

ـ ادخل فإني أسمع حديثك وأشتغل .

فدخل لوسيان وجلس على كرسي بجانب لوسي فقالت له :

ـ ارأيت صديقك جورج داريه ؟

ـ نعم .

ـ كيف استقبلك ؟

ـ بما كان يحدثك به قلبك فقد لقيته خير صديق عند الملمات .

ـ ألعلك تعشيت عنده ؟

ـ هو ذاك فاني خارج الآن من منزله .

ـ أوعدك بإيجاد عمل لك !

ـ وعدني أن يجعلني مديراً لمعمل عظيم يبنى الآن في ضواحي باريس فان

صاحب هذا المعمل وهو من كبار الأغنياء لا يخيب رجاء جورج .
فدقت لوسي يداً بيد وقالت رباه ما هذه السعادة فلقد صدق حديث قلبي .
والآن فاذهب يا لوسيان واسترح بالرقاد وفوق ذلك فاني لا احب أن يرانا الجيران معاً في مثل هذه الساعة .

* * *

كان جورج داريه وهو ابن حنة طاهر القلب طيب السريرة حسن المروءة .
وقد أثرت عليه حـــالة صديقه وبقيت هذه الصداقة راسخة في نفسه من عهد الحداثة .
ففي صباح اليوم التالي كان أول ما فعله أنه ذهب مسرعاً الى منزل بول هرمان أي جاك جيرود فلقي خادم غرفة جاك واقفاً عند السلالم وسأله عن سيده .
فأجابه أنه مسافر .
فاستاء جورج لهذا الاتفاق وقال له : ألعل غيابه يطول ؟
— لا أعلم يا سيدي ولكن الآنسة ماري لا بد أن تكون عارفة بنوايا أبيها وهي تستقبلك يا سيدي بملء الإرتياح دون شك فهل تريد أن اخبرها بقدومك؟
وكان جورج قد اختلط كثيراً بهذه العائلة وعرف حق العرفان شدة نفوز ماري على أبيها فنظر الى الخادم وقال :
— إذا كنت واثقاً من أني لا ازعجها بهذه الزيارة فأعطها رقعة زيارتي .
— تفضل إذن يا سيدي واتبعني الى قاعة الاستقبال .
وذهب الخادم الى سيدته فأعطاها الرقعة فأقبلت مسرعة الى حيث كان جورج ومدت اليه يدها مصافحة فقالت :
— إني على يقين بأن زيارتك ليست لي ولكنني أستقبلك بملء الإرتيـــاح فاجلس أمامي ولنتحدث .
قال : كيف أنت يا سيدتي ؟
— إني على خير عافية فاني ما لقيت من الصحة ما ألقاه في هذه الأيام .
وعند ذلك فاجأها السعال فقطع عليها الكلام حتى إذا خفت وطأته قالت: إني لا أشكو غير هذا السعال ولولاه لكنت بخير .

وكان جورج يعلم أنها مصدورة كما يعلم جميع الذين كانوا يزورون أباها .

ولكنها لم تكن تعلم شيئاً من علتها وتحسب أن هذا السعال عرض زائل .

فقال لها ألعلك تتعالجين يا سيدتي ؟

قالت: إني لا أصنع غير هذا فان الأطباء قد أزهقوا نفسي بأدويتهم وليس في الأمر ما يحتاج الى هذه العلاجات فان هذا السعال غير متأت إلا عن التهاب بسيط بالحلق .

فلندع هذا الحديث وأخبرني عنك فهل أنت قادم لزيارة أبي ؟

— نعم يا سيدتي .

— إنه مسافر وسيغيب ثلاثة أسابيع أي أنه لا يعود الى باريس إلا في أول الشهر القادم بحيث إني أشعر بضجر عظيم فاني ما تعودت الوحدة فقل لي ماذا تريد من أبي فاني اكاتبه ويكاتبني في كل يوم وسأذكر له زيارتـــك وأسبابها إذا أردت .

— لا بأس من الانتظار يا سيدتي فأوضح له أسباب هذه الزيارة .

غير أني أجد نفسي سعيداً باجتماعي بك فاني أرجو مساعدتك في شأن لي.

— قل يا سيدي فاني أساعدك خير مساعدة فما هو هذا الشأن الذي تريده ؟

— اريد أن تساعديني في تعيين فتى حاذق في معمل أبيك فانه تخرج من مدرسة الصنائع والفنون .

— ألعل هذا الفتى من أصدقائك ؟

— لقد كان صديقي منذ أيام التلمذة وقد اصيب بنكبة فادحة في أول عمره فقتل أباه وسرق ماله وربي عند عمته ولكنها كانت فقيرة بحيث انه لا يستطيع أن يعيش من غير عمل .

— إنك تسألني يا سيدي أن اساعدك في عمل إنساني أشترك فيه وإياك بملء الرضى .

فليعتمد صديقك علي فاني أضمن الفوز وسيعود والدي في اليوم الثاني من الشهر القادم فقل له أن يزورني في الثالث من ذاك الشهر .

فشكرها جورج وانصرف من عندها وهو واثق كل الثقة من نجاحها .

وذهب تواً الى منزله فكتب الى صديقه لوسيان عما اتفق فاطمأن بال لوسيان بفضل هذا الصديق الصادق ولم يبق له غير الانتظار .

* * *

وعلى ذلك فقد اجتمع أعضاء هذه الرواية على مرسح واحد وبدأت حوادثها الغريبة فان ابنة جاك جيرود قد التقت بجورج ابن حنة وستلتقي بلوسي الخياطة ابنتها ايضاً وبلوسيان ابن لابرو .

وقد أفلتت حنة فورتيه من سجنها ولبث جاك جيرود آمناً مطمئناً لا يخشى العواقب وظهور جريمته الهائلة .

- ١٧ -

تقدم لنا القول أن أشخاص هذه الرواية قد ظهروا على مرسح واحد وأوشك أن يتصل بعضهم ببعض فان جورج ابن حنة لقي لوسيان ابن لابرو وعشق لوسيان لوسي اخت جورج وطلبت ابنة جاك جيرود السفاك أن تقابل لوسيان ابن ذلك الذي قتله أبوها وهربت حنة فورتيه من السجن وذهبت تبحث عن ولديها جورج ولوسي وكلاهما لا يعلمان أنهما اخوان ولا يعرفان اسم أبيهما وامهما .

أما أمهما حنة فورتيه فقد تقدم لنا القول أنها هربت من السجن بملابس الراهبات .

وقد عرف القراء أنها على كونها مسجونة كانت رئيسة المرضات في مستشفى السجن وكان لها راتب إسوة بسائر المرضات .

وقد أخذت ما كان معها من فضلات ذلك الراتب وذهبت الى بائعة ملابس جاهزة فقالت لها :

– إني ذاهبة لزيارة امرأة فقيرة وأريد أن أشتري لها ثوباً يدفئها وقامتها مثل قامتي فأعطني ثوباً على قياسي .

فأعطتها البائعة الثوب فدفعت ثمنه وانصرفت فجعلت تمشي حتى وصلت الى مكان خلا من الناس فأسرعت الى خلع الثوب الرهباني التي كانت تلبسه ولبست الثوب الذي اشترته وأسدلت شعرها على جبهتها وصدغيها إخفاء لوجهها ثم سارت

تواً الى محطة السكة الحديدية .

وقبل أن تصل اليها سمعت صوت الجرس يقرع فيها فركضت مسرعة الى قاعة الانتظار وقالت لأحد الموظفين ، إني اريد السفر الى باريس فمن أين اشتري التذكرة ؟

فأرشدها الموظف الى محل بيع التذاكر وحثها على الإسراع لأن القطار كان على وشك السفر .

أما حنة فإنها وثبت وثباً الى شباك بيع التذاكر فاشترت تذكرة وأسرعت الى مكان الدرجة الثالثة في القطار فدخلت الى غرفة كانت فيها فتاة وامها وعند ذلك صفر القطار وسافر .

وكانت حنة تتمعن في أمرها وتضع خطة جديدة فإنها كانت تعلم أنهم سيعلمون قريباً بأمر فرارها من المستشفى .

ولم تكن مخطئة في ظنها فإنها كانت رئيسة المرضات في المستشفى وقد لاحظوا في الحال أن جميع المرضات قد حضرن ما خلاها فحسبوا أنها لم تستيقظ بعد .

فذهبت إحدى المرضات للبحث عنها في غرفتها فلم تجدها .

وبعد هنيهة عاد الراهبات من الكنيسة وكانت الرئيسة منذهلة لعدم حضور الراهبة فيلومين التي تنكرت حنة بملابسها فذهبت الىغرفة تلكالراهبة فوجدتها لا تزال نائمة ولكن نومها لم يكن طبيعياً .

ثم رأت أن ثيابها غير موجودة في الغرفة وأنه يوجد بدلاً منها ثياب حنة المرضة .

وبعد هنيهة أيقنوا من هرب حنة فهاج المستشفى لفرارها ولم تكن إلا ساعة حتى انتشر خبر فرارها في القرية .

وقد علموا بعد البحث أنها سافرت الى باريس ولم يسافر منها منذ ساعة غير قطار واحد .

فأرسلوا تلغرافاً الى إدارة الشرطة في باريس يسألونها فيه منع كل امرأة من ركاب الدرجة الثالثة عن الخروج من المحطة وسافر مندوب من قبل المستشفى

كان يعرف حنة بالقطار السريع .

فلم يكد يصل التلغراف حتى أسرع رجال البوليس وبلغوها حين وصول القطار ، ولكن حنة قد نجت منهم فانها توقعت تداخل البوليس وذلك أنه حين وصل القطار إلى سانت دنيس نزلت في محطتها فأخذ حارس الباب تذكرتها دون أن ينظر إليها فذهبت إلى باريس ماشية ودخلت إليها بعد ساعة .

وهناك تنشقت نسيم الحرية واعتمدت على أن لا تستريح قبل أن تبحث عن ولديها فسارت تواً إلى محطة فنسانت وهناك ركبت القطار المؤدي إلى شفري حيث تركت ولدها جورج عند الكاهن .

ولم تكن تخاف أن يعرفوها فانها تغيرت تغيراً عظيماً منذ عشرين عاماً وجنت تسعة أعوام وبلغت الثامنة والأربعين من عمرها فكيف يمكن أن يعرفونها .

غير انها كانت تخاف أمراً واحداً وهو انها لا بدّ لها من السؤال لتعلم ما جري لولدها فكانت تخشي أن تستلفت أسئلتها الأنظار فعولت على أن تنهج منهج الحكمة والتروي .

وقد وصلت إلى شفري وذهبت إلى بيت الكاهن وقلبها يخفق خفوقاً عظيماً حتى خيل لها أنه سيخرج من صدرها .

فانها كانت كل ما دنت من منزل الكاهن يتمثل لها الماضي فرأت أخت الكاهن تضم ولدها إلى صدرها وذكرت ذلك اليوم الهائل الذي وصلت فيه إلى منزل الكاهن وهي خائرة القوى يضنيها الجوع وولدها جورج بين يديها .

ولما دخلت إلى منزل الكاهن طرقت بابه ففتحت لها امرأة عجوز وقالت لها ماذا تريدين ؟

قالت : أريد أن أرى كاهن قرية شفري .

قالت : انه في الكنيسة فاذهبي إليه .

فذهبت حنة إلى الكنيسة وصبرت إلى أن انتهت الصلاة وتفرق الناس وحاول الكاهن أن ينصرف فدنت حنة واستوقفته .

فوقف الكاهن وقال لها : ماذا تريدين يا ابنتي ؟

قالت : أريد أن أكلمك يا سيدي فقد أتيت من باريس خصيصاً لهذا الغرض.

– قولي يا ابنتي ماذا تريدين ؟

– لقد عهدت إلي امرأة في باريس أن أسألك عن بعض أمور .

– ماذا تريدين أن تسألي ؟

– عن سلفك الكاهن السابق الذي كان كاهن هذه القرية سنة ١٨٦١ .

– أتعنين به الكاهن الوجيه الذي خلفته فانه مات في سنة الحرب وخلفته سنة ١٨٧١ .

– ألم يكن له اخت ؟

– نعم ولكنها ماتت قبله .

– ألم تكن اخته تتولى تربية غلام ؟

– نعم وهو ولدها كما قيل لي .

فارتعدت حنة وقالت في نفسها ، انه ولدي ثم أخفت اضطرابها وقالت : أتعلم ما جرى لهذا الغلام فإني ما أتيت إلى شفري إلا للسؤال عنه فهز الكاهن رأسه وقال : إني لا أستطيع أن أفيدك في هذا الشأن إفادة تذكر فإني حين أتيت إلى هذه القرية علمت ان ابن اخت الكاهن جاء إلى القرية لحضور مأتم خاله ثم عاد إلى باريس مع أحد أصدقاء الكاهن ولا أعلم غير هذا .

– ألا تعرف على الأقل اسم صديق الكاهن الذي أتى لحضور مأتمه ؟

– كلا .

– ربما كان عمدة القرية يعرفه .

– انه مات من عهد بعيد وقد خلفه اثنان إلى الآن .

– وخادمة الكاهن ماذا جرى لها ؟

– انها ماتت قبله وقبل اخته .

– ان اخت الكاهن كانت أرملة أليس كذلك ؟

– نعم .

– أماتت في شفري ؟

– نعم .

– إذن لا بد أن يكون اسمها مقيداً فيالكنيسة في سجل الأموات ومكتوباً على ضريحها ؟

– لقد تهدم وضاع كل شيء في زمن الحرب فقد حدثت هنا جملة معـــارك فتهدمت دار الحكومة وثلاثة أرباع منازل القرية واحترقت دفاتر الكنيسة بجملتها.

فقالت حنة بلهجة القنوط : إذن لا أستطيع أن أعلم شيئاً ؟

ولم يكن في كلام حنة ما يحمل على الريبة غير أن اضطرابها وإلحاحها دعتا الكاهن الى الإندهال فقال لها :

– أية فائدة شخصية لك بهذه الأسئلة ؟

فارتعشت حنة وقالت في نفسها :

– لقد أسهبت في القول كما يظهر فولدت في قلبك الشك ثم قالت له :

– لقد قلت لك يا سيدي الكاهن أني لا أسأل هذه الأسئلة لنفسي بل لصديقة عهدت إلي بالالحاح في سبيل معرفة ما جرى لهذا الغلام وإنما أردت معرفة اسم اخت الكاهن كي أعرف به اسم ولدها .

– يظهر أن لصديقتك فائدة في إيجاد هذا الغلام فما هي ؟

– لا علم لي بشيء من ذلك وكل ما في الأمر أنهم عهدوا إلي بقضاء مهمة وإني احاول قضاءها .

– وأنا لا أعلم غير ما قلته لك فسلي في القرية فقـــد تجدين من يخبرك بما تريدين معرفته .

ثم تركها وانصرف فركعت المنكودة عند باب الكنيسة وقالت : رباه ماذا اصنع إني لا أستطيع أن أسأل أحداً عن ولدي حذر الافتضاح وهذا الكاهن قد شكك بي .

ولكني علمت منه أمراً جديراً بالاعتبار فإنه قال لي أن ابن اخت الكاهن قد أتى الى القرية لحضور مأتم خاله الكاهن وقد قالت لي اخت الكاهن أنها ستربي ولدي جورج كأنه ولدها إذن لا بد أن يكون هذا الفتى ولدي وهو في باريس فأين أجده فيها ؟

إني قد أستطيع السؤال عنه ولكني أخاف أن يعلموا بأمري فإني هاربة من

السجن والشرطة يبحثون عني فإذا ظفروا بي أعادوني الى السجن .

وعند ذلك وقفت وقالت :

– كلا إني لا أجبن ولا أضعف ولا بد لي من أن أجد ولدي في باريس أما الآن فلأبدأ بالبحث عن بنتي .

وقد عادت الى باريس في الساعة العاشرة من الليل فلم تخرج من شارع الباستيل وهي عازمة أن تركب القطار في صباح اليوم التالي وتذهب الى جوانيي حيث تركت بنتها عند المرضع .

وفي صباح اليوم التالي سافرت الى جوانيي وذهبت الى منزل المرضع التي عهدت اليها ببنتها لوسي منذ عشرين عاماً .

وقد كانت واثقة من أنها لا تجد تلك المرأة لأنها كتبت لها وهي في السجن فأرجعت اليها إدارة البريد كتابها بعد أن كتب عليه أنها لم تجد المرسل اليه ولكنها كانت ترجو أن تقف من الناس على ما يرشدها على بنتها .

وقد كان أسفها عظيماً حين وجدت أن ذلك المنزل الذي كانت فيه المرضع قد انشىء في موضعه منزل كبير فطرقت الباب وسألت البوابة قائلة :

– اسمحي لي أن اسألك عن هذا المنزل فمتى تغير بناؤه ؟

قالت : منذ ستة أعوام .

– هل أنت من أهل القرية ؟

– إني اقيم فيها منذ اثني عشرة عاماً .

– ألم تعرفي امرأة تدعى أرملة فريمي كانت معدة منزلها لتربية الأطفال ؟

– نعم أذكرها فقد بنو هذا المنزل الكبير على أنقاض منزلها .

– ماذا جرى لها ؟

– إنها ماتت في سنة الحرب .

– ألم يكن لها ولد ؟

– نعم .

– أين يقيم ؟

– في المقبرة .

– أمات ولدها ؟

– نعم ولكن دون أن يأسف عليه أحد فهل أنت من أهله ؟

– كلا ولكني كنت أرجو أن اعلم منه ماذا جرى بطفـلة كانت تربيها امه وهي إبنة امرأة اضطرت الى مغادرة فرنسا .

– أكان ذلك من عهد بعيد ؟

– منذ اثنين وعشرين عاماً .

– إني لم أكن مقيمة في جوانيي في ذلك العهد وحين عرفت أرملة فريمي لم يكن عندها أطفال ولكن إذا لم تكن عائلة الطفلة قد اخذتها فان معرفة مكانها ميسور .

– كيف ذلك ؟

– ذلك أن ارملة فريمي لا بد ان تكون أخبرت الحكومة بأمر الفتاة حين تأخر أهلها عن دفع ما عليها والسؤال عنها فوضعتها الحكومة في احد الملاجيء وعلى ذلك يجب أن تسألي إدارة البوليس .

فتمكن اليأس من قلب تلك المنكودة وقالت في نفسها :

– إني فشلت هنا كما فشلت في شفري وإذا سألت البوليس فلا بد أن يسألني بأي حق أطلب تلك الفتاة المفقودة ؟

وكانت البوابة تراقب حنة فقالت لها : يظهر يا سيدتي أنـك فهمت ما قلته لك .

قالت : هو ذاك وسأعمل بنصحك .

ثم شكرتها وانصرفت قانطة فلم تذهب الى إدارة البوليس بل جعلت تجول بين أهل القرية وتسألها الأسئلة المختلفة فلا تقف منهم على شيء .

حتى إذا يئست من العثور على بنتها عولت على الرجوع الى باريس للتفتيش فيها على ولدها جورج .

وفي صباح اليوم التـــالي وصلت الى باريس وقد أنهكها التعب وهد الشقاء حيلها ولم تعلم الى أين تذهب فانها كانت تخشى في كل لحظة أن يفاجئها البوليس.

وكان لا يزال باقياً لها شيء من النقود فاستأجرت غرفة وفرشتها أبسط

فرش ودفعت قسطاً مقدماً من اجرة الغرفة بحيث لم يبق لديهـــا ما يكفيها إلا لقوت يومين او ثلاثة ورأت أنها لا بد لها من البحث عن عمل تعيش منه فتركت غرفتها وذهبت لتشتري عشاها فرأت على قيد خمسين خطوة من غرفتها بائع خمر كتب على باب دكانته هذا العنوان : (ملتقى الخبازين)
فدخلت الى ذلك الدكان .

- ١٨ -

كان لوسيان لابرو يشتغل بملء الجد وهو ينتظر بفارغ الصبر أن يحين ذلك اليوم الذي يستطيع فيه الذهـــاب الى ذلك المعمل الذي سعى صديقه جورج بتعيينه فيه .

وقد عمل بوصية جورج فلم يخبر أحداً بما اتفق له ما خلا خطيبته لوسي ومع ذلك فانه لم يخبرها باسم الرجل صاحب المعمل .

وكذلك لوسي فانها لم تكن من اهل الفضول فلم تسأله عن إسمه وكان جل ما تتمناه أن يسرع خطيبها بالدخول الى هذا المعمل فان ذلك يقرب زمن الزواج .

غير أنها كانت فرحة القلب يبدو سرورها بين عينيها وقد زادت نشاطاً على نشاطها وباتت تشتغل بهمة لا تعرف الملل .

وكانت قد أتمت خياطة ذلك الثوب الذي أوصتها عليه ماري بنت جـــاك جيرود كما يذكر القراء .

فأخذت الثوب بعد أن فرغت من مناولة طعامها وذهبت الى منزل ماري كي تقيسه لها .

أما ماري فإن السعال كان مشتداً عليها منذ اسبوع حتى حرمها الرقاد .

وكانت هذه العلة تغير أخلاقها فيهيج بها اليأس تارة حتى أنها تنقم على البشر والبشرية وتلين طباعها تارة حتى أنها كانت تذوب حنواً على البؤساء ولا يخطر لها غير صنع الخير والإحسان الى أهل البؤس والشقاء .

وقد كان ذلك اليوم من أيام نعيمها فإنها كانت جالسة في غرفتهـــا تناجي نفسها فتقول :

– إني غنية بحمد الله وقد وهب الله أبي ثروة عظيمة فلماذا لا انفق منها على المعوزين وقد غصت هذه العاصمة بأهل البؤس ؟

وفيما هي تناجي نفسها بهذه الأقوال دخلت اليها خادمتها وقالت لها : ان الخياطة قد جاءت بثوبك يا سيدتي لتقيسه لك .

وكانت هذه الخياطة لوسي نفسها فأمرت ماري الخادمة بادخالها .

ودخلت لوسي وقاست لها الثوب فأعجبت به ماري إعجاباً شديداً وجعلت تثني عليها بكلام يقطعه السعال ولوسي تأسف عليها لما رأته من علتها .

وبعد أن انتهت من ذلك الثناء قالت لها : هل تشتغلين منذ عهد بعيد عند مدام اوغستين ؟

قالت : منذ خمسة عشر شهراً .

– يظهر أنها تحبك كثيراً ؟

– لا أنكر أنها كثيرة الرأفة بي .

– وأنها تتمنى لو أنك تشتغلين في محلها ؟

– نعم ولكني اوثر ان اشتغل في غرفتي .

– إنك عائشة مع أهلك دون شك ؟

– ليس لي أهل يا سيدتي .

– كيف ذلك ألعلك يتيمة ؟

– لا أعلم سوى انهم وضعوني في ملجأ الأطفال حين كنت لا أبلغ غير عام من العمر .

– عجباً أيتخلى عنك أبوك وامك وكيف يرتكبان هذا الأمر المنكر ؟

– لا أنكر أن ذلك منكر ولكني لم يخطر لي مرة أن اذم أبي وامي فاني أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الام لا يمكن أن تتخلى عن بنتها طائعة مختارة فلا بد أن يكون الجوع أكرهها على ما فعلت ولا بد أن يكون أبي قد مات في ذلك العهد .

– ذلك لا ريب فيه ولكن ألم يخبرك أهل الملجأ كيف وجدت فيه ... ألم يكن لك علامة يمكن أن تعرفي بها عائلتك ؟

– لقد سألت عن كل ذلك يا سيدتي حين بلغت السن الذي علمت فيه مركزي فأجابوني أن الذي وضعني في الملجأ أخبرهم بحقيقة أمري ولكن نظـــام الملجأ يمنعهم عن أن يخبروني بهذه الحقيقة .

– ولكن ذلك محال .

– هذا الذي حدث .

– إذن أية فائدة من وضع علامة يميز بها هؤلاء الأطفال ؟

– الفائدة من هذه العلامة أنها تسهل على أهل الطفل إيجاده حين يريدون فانهم يقيدون في الملجأ عمر الطفل حين دخوله واليوم الذي دخل فيه والملابس التي كان يلبسها الى غير ذلك من التفاصيل ثم يدعون الطفل بنمرة فانهم كانوا يدعونني نمرة ٩ فاذا لم يطلبه أهله جعلوا له إسماً بدل النمرة وأطلقوا سراحه حين الرشد .

– كل ذلك غريب فكم لـــك من العمر يا لوسي ؟ وأرجو أن تسمحي لي بمناداتك دون لقب فما دفعني الى ذلك غير الحنو .

– إني ممتنة لك يا سيدتي فادعيني كما تشائين أمـــا عمري فهو اثنان وعشرون عاماً .

– لقد علمت من مدام اوغستين أنك احذق خياطة عندها فكيف لم تستقلي بانشاء محل الى الآن ؟

– ذلك لأني لا أستطيع إنشاء محل إلا بشرطين أحدهما الزبائن والآخر الرأسمال وليس لي واحد من الإثنين .

– ولكنك جميلة ماهرة حسنة السمعة فقد تتوفقين الى الزواج برجل يعطيك ما تحتاجين اليه من المال لإنشاء هذا المحل وبعد ذلك تأتي الزبائن .

فلما سمعت لوسي لفظة الزواج احمر وجهها وانتبهت ماري الى احمرارها . فابتسمت وقالت :

– لا أعلم إذا كنت منخدعة ولكن الذي أراه أنك تفكرين بهذا الزواج .

– كلا يا سيدتي إنك لست منخدعة فاني أفتكر بالزواج ولكن الذي احبه ويحبني فقير مثلي لا يملك شيئاً فهو صابر الى ان يسهل الله له بالزواج وغاية ما

يرجوه ان يوفق إلى خدمة على قدر استحقاقه ولكنني متى تزوجت به لا يأذن لي أن اعمل غير اعمال البيت .

– إنه قد يكون مخطئاً في ذلك ولكنني قرأت مادة في ذلك لا اعلم في أي قانون مفادها ان المرأة يجب ان تخضع لزوجها .

ولكنني في يوم زواجك اكون سعيدة بأن أهبك مهراً بشرط ان يأذن لك زوجك بأن تخيطي لي ثيابي وحدي دون سواي .

– سأستأذنه يا سيدتي وأبسط له كرم اخلاقك وأنا واثقة من انه لا يرفض لي هذا الرجاء والآن فمتى تحتاجين الى ثوبك هذا ؟

– يوم الخميس القادم فاني مضطرة الى حضور حفلة راقصة .

– سأنجزه يا سيدتي يوم الخميس وإني أستأذنك أن تسمحي لي بأن أحضر وألبسك إياه بنفسي حتى إذا وجد فيه عيب اصلحته .

– اشكرك وسأخبر مدام اوغستين اني لا احب ان يقيس ثيابي سواك .

– وأنا أكون سعيدة يا سيدتي .

– أين تقيمين ؟

– في شارع بوربون نمرة ٩ .

– حسناً فاني لا أنسى هذا العنوان ..

– الى اللقاء يا لوسي .

فودعتها لوسي وانصرفت شاكرة .

أما ماري فانها عادت الى الاكتئاب بعد انصراف ماري فقالت في نفسها :

مسكينة إنها ابنة لقيطة لا ام لها ولا أب ومع ذلك فانها سعيدة كما يظهر لا تتعذب عذابي ولا تضجر ضجري فانها تشتغل وترجو المستقبل وتحب وهي ايضاً محبوبة فمتى اعرف أنا الغنية معنى هذا الحب وأدرك سر هذه السعادة ؟

وهنا فاجأها السعال فوضعت منديلها على فمها ثم نظرت فيه فوجدت لطخاً حمراء فاصفر وجهها وقالت :

دماء من أين اتى هذا الدم إني أشعر كأن النار تتأجج في صدري بين عنقي. وقد سالت الدموع من عيني تلك المنكودة وقامت فشربت جرعة من

الدواء ثم عادت فجلست أمام النار تستدفىء وتقول وهي تتنهد :
نعم اني اريد ان احب أنا ايضاً .
وهنا تاهت في مجال التصور واسترسلت الى التفكير .

* * *

لقد تركنا حنة داخلة الى دكان بائع الخبز التي كان مكتوباً على بابها (هنا ملتقى الخبازين) .
وقد كانت داخلة لتأكل ما تيسر وتستريح .
أما عنوان الدكان فإنه كان ينطبق على مسماه لأنه لم يكن يفد اليه غير غلمان الخبازين .
وكان في كل شارع من شوارع باريس خمارة او خمارتان مثل هذه يجتمع فيها الخبازين ويروي كل منهم لرفاقه ما جرى له في ذلك اليوم من حوادث مخبزه .
فلما دخلت حنة كان قد التئم نظام الخبازين وجعلوا يتحدثون ويشربون فاستقبلتها خادمة وقالت لها :
— ادخلي يا سيدتي فانه لا يزال يوجد طعام .
وسمع احد الخبازين ما قالت وهو فتى في الرابعة والعشرين من العمر فقال لها:
— ادخلي يا سيدتي فإنك وإن لم تكوني من طائفتنا نستقبلك بملء البشر والارتياح .
فابتسمت حنة وجلست بجانب الفتى وطلبت طعاماً .
ثم جعلت تصغي الى حديث الخبازين وهي تأكل فسمعتهم يشكون ندور بائعات الخبز وأن اجورهن قد ارتفعت بسبب هذه الندور حتى باتت اجرة البائعة ثلاث فرنكات ونصف في اليوم .
وبعد هنيهة حاول ذلك الفتى الذي كان جالساً بجانب حنة أن يذهب فوضعت حنة يدها على كتفه وقالت له : أتسمح ان أقول لك كلمة ؟
قال : تفضلي بقول ما تشائين .
قالت : لقد سمعتكم تقولون أنكم محتاجون في مخبزكم الى بائعات فهل ذلك أكيد ؟

— دون شك ، ألعلك تريدين الاشتغال بهذه المهنة ؟

— نعم .

— هل كنت قبلاً من البائعات ؟

— كلا ولكن هــذه المهنة ليست صعبة وكل ما فيها هو ان أعرف عنوانات المنازل وذلك أمر أستطيعه بيوم ، فثق أن إدارة مخبزكم وزبائنه يكونون راضين عني لأني أشتغل لأعيش .

— هو ذاك غير أنه لا بد لي من إخبارك أن هذه المهنــــة إذا لم تكن صعبة فهي شاقة .

— لا بأس فإني قوية نشيطة .

— أتعرفين باريس ؟

— لا أعرفها حق العرفان ولكن زبائنكم لا بد أن يكونوا في شارع واحد .

— بل ان زبائن مخبزنا متفرقون .

— أين هي الإدارة ؟

— في شارع دوفين ولكن لنا زبائن لغاية شارع ماريس .

— لا بأس فاني أستطيع معرفة جميع المنازل في يوم او يومين، فهل تظن انهم يقبلونني ؟

— إني واثق من ذلك فإنهم يبحثون عن بائعات منــــذ ثلاثة أيام فإذا شئت خاطبت الليلة رئيسة المخبز في شأنك كي تأتي غداً .

— أقبل بملء الرضى وأكون لك من الشاكرين .

— إذن اعتمدي علي واحضري صباح غــد الى المخبز وسلي عن ليونيس أي عني والآن قولي لي ماذا تدعين ؟

— ليزا بيرين .

فكتب الخباز اسمها كي لا ينساه وانصرف .

وكذلك حنـــة فانها دفعت ثمن طعامها وذهبت الى غرفتها وهي تقول في نفسها :

وماذا علي إذا كنت بائعة خبز فإني أكسب ثلاثة فرنكات ونصف وقسماً من

غذائي ولا أشتغل غير خمس ساعات في النهار بحيث يبقى الوقت متسعاً فأبحث عن ولدي .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت الى المخبز فاستقبلتها رئيسته وقالت لها :

– أأنت هي التي كلمني عنها ليونيس ؟

– نعم يا سيدتي .

– أتريدين أن تكوني بائعة خبز ؟

– بل أكون سعيدة يا سيدتي إذا تكرمت بقبولي .

– ولكنك لم تشتغلي بهذه المهنة قبل الآن .

– كلا ، غير اني أرجو ان أكون أفضل المشتغلات بها .

– وهذا الذي أرجوه أنا أيضاً .

– إذن لقد قبلت طلبي ؟

– دون شك ، ولكني أقبلك على سبيل التجربة فأين تقيمين ؟

– في شارع السين نمرة ٢٤ فإني قادمة من بلدي حيث أقمت فيه ثلاثة أعوام.

– هل أنت متزوجة ؟

– إني أرملة .

– وماذا تدعين ؟

– ليزا بيرين .

– إذن لقد اتفقنا على سبيل التجربة كما قلت لك وستبدئين العمل منذ غد ، أما اليوم فانك تطوفين منازل زبائني مع خادمتي كي تعرفيها .

– في أية ساعة يجب ان أحضر الى المخبز ؟

– في الساعة السادسة صباحاً فتفرقين الخبز على الزبائن وتعودين في الساعة التاسعة للمحاسبة .

ثم ترجعين في الساعة الخامسة مساء فتفرقين خبز المساء على الزبائن أنفسهم فتشتغلين ساعتين أيضاً .

– حسناً يا سيدتي .

– أما اجرتك فستكون ثلاثة فرنكات ونصف مع رغيفين .

– لقد رضيت بهذه الاجرة .

– إذن اذهبي الآن مع خادمتي الى منازل الزبائن واجتهدي ان تحفظيها بذاكرتك فان خادمتي لا تستطيع الذهاب معك كل يوم .

* * *

وفي صباح اليوم التالي بدأت حنة عملها فأخذت الخبز وسارت به الى الزبائن. وكان من جملة زبائنها بنتها لوسي ، فصعدت الى غرفتها وطرقت بابها ، فلما فتحت لها لوسي دهشت لجمالها وأعطتها الرغيف .

فقالت لها لوسي: تعالي لأدفع لك الثمن ولكن ما لي أراك تلهثين من التعب؟

– ذلك لأن السلالم طويلة .

– إذن اجلسي واستريحي .

– أشكرك يا سيدتي فلا بد لي من العودة الى المخبز للمحاسبة .

وكانت كل من الاثنتين تنظر الى الاخرى وتشعر بميل اليها فقالت لها لوسي:

– يظهر انك لم تتعودي هذه المهنة .

– كلا يا سيدتي، ولكني سأتعودها فاني قوية نشيطة ولا بد لي من الارتزاق.

وكانت حنة تكلمها وعيناها تنظران الى داخل الغرفة فرأت فيها آلة للخياطة فقالت لها :

– ألعلك خياطة يا سيدتي ؟

– نعم وإني مستعدة لخدمتك .

– إني لا أستطيع ان ألبس مثل هذه الملابس الحريرية التي أراك تخيطينها ، فانك تشتغلين للغنيات كما يظهر .

– هو ذاك ، ولكن ذلك لا يمنع حين فراغي ان أشتغل للفقيرات بأرخص اجرة .

– إنك تحسنين بذلك غاية الإحسان ، فلا أجمل من الرفق بالفقير .

فحاولت لوسي تغيير الحديث فقالت: إذن أنت ستحضرين لي الخبز كل يوم؟

– الى ما شاء الله .

– إذا كان صعود السلم يتعبك فضعي الخبز عند البواب وأنا أدفع له الثمن

فيدفعه لك فما عليك إلا أن تقولي له اسمي وهو لوسي .

فارتعشت حنة حين سماع هذا الاسم واصفرّ وجهها وقالت : أتدعين لوسي؟

— نعم .

— إنه اسم جميل احبه ، فلا تدفعي شيئاً للبواب أيتها الحسناء فان صعود السلم لا يتعبني ، والآن أستودعك الله الى الغد .

ثم انصرفت وهي تقول في نفسها :

إنها تدعى لوسي كابنتي وقد أثار هذا الاسم العواصف في قلبي بل ان هيئتها أثرت علي تأثيراً لا ادرك سره فان اسمها كاسم ابنتي وعمرها كعمرها ولا بد ان تكون ابنتي جميلة مثلها ..

رباه ألا يتاح لي ان أجدها !.. وماذا جرى لها ؟.. أواه لو كنت أعلم أنها في قيد الحياة على الأقل فأطمئن ..

ولكني سأحضر الخبز كل يوم الى هذه الفتاة بنفسي فانها تذكرني ابنتي وقد جعلت حنة كل يوم تأتي بالخبز الى بنتها لوسي ، فلا هذه تعرف بنتها ولا تلك تعرف أمها .

ولكنهما كانتا تزيدان تعلقاً في كل يوم ولا سيا حنة فانها كانت تقف فتنظر الى لوسي تشتغل وهي تكاد تفترسها بنظراتها .

ولم تكن تجسر على أن تسألها عن ماضيها وفوق ذلك فأية فائدة من هذا السؤال ، فإذا كانت تدعى لوسي كابنتها فانه يوجد مئات من الفتيات يدعين بهذا الاسم .

وكانت ترى من حين الى حين لوسيان لابرو يجالس لوسي فلم يخطر لها في بال أن هذا الفتى الجميل إنما هو ابن لابرو الذي اتهمت بقتله ولقيت ما لقيته من العذاب بسبب هذه التهمة .

* * *

دنا موعد رجوع جاك جيرود من رحلته ، ويذكر القراء ان ابنته مــــاري قالت لجورج داريه حين طلب وساطتها في تخديم لوسيان بعمل أبيها :

— ان أبي يعود في اليوم التالي من الشهر فقل لصديقك يأتي إليّ في اليوم الثالث .

ففي اليوم الأول من الشهر ورد كتاب الى لوسيان من صديقه جورج يدعوه فيه الى الحضور للغداء في اليوم التالي .

فذهب لوسيان في اليوم المعين وكان أول ما قاله انه سأل صديقه جورج قائلاً:

– هل حدث أمر جديد ؟

قال : نعم ، فقد لقيت مدموازيل هرمان مرة ثانية فكلفتني ان أدعوك لتذهب اليها في الساعة العاشرة صباحاً ، وهي تقيم مع أبيها في شارع موريل ، فاطلب ان تقابلها باسمي وهي تعرفك بأبيها .

– أشكرك أيها الصديق ولا أنسى جميلك .

– وأنا أرجو ان تفوز ، وقد أعددت كتاباً للمسيو بول هرمان أظهرت له فيه ما أعرفه من أدبك وخبرتك وهـذا هو فخذه ولا تنس أن تذهب غداً في الساعة العاشرة من الصباح .

وفي اليوم التالي تأنق لوسيان بملابسه ، ولم يفعل ذلك ليروق في عيني ماري ولكنه كان يعلم أن النساء تروق لهن البهرجة وهو يريـــد إرضاءها لتساعده على أبيها .

وبعد أن فرغ من تأنقه دخل الى خطيبته فقالت له :

ـ هل أنت ذاهب ؟

ـ نعم فاني ذاهب لزيارة الرجل الغني صاحب المعمل الذي أخبرتك عنه .

ـ ماذ يدعى هذا الرجل ؟

ـ إن صديقي جورج سألني ان أكتم اسمه الى ان اعين في خدمته ، ولكني لا أطيق ان أكتم عنك أمراً فان هذا الرجل يدعى بول هرمان .

ـ بول هرمان المقيم في شارع موريل ؟

ـ نعم فهل تعرفينه ؟

ـ لا أعرفه ولكني أعرف بنته مدموازيل ماري فان هذا الثوب الحريري الذي أشتغل به إنما هو لها .

والآن فقد أصبحت واثقة من فوزك فان هذه الفتاة من خير الفتيات ولا بد ان يكون أبوها مثلها فاذهب أيها الحبيب وليبارك الله مساعيك .

فقبّل لوسيان جبين خطيبته وذهب الى منزل جاك جيرود أي بول هرمان.

وهناك استقبلته ماري ورضيت عنه لأول وهلة لِما رأته من جماله وحسن هندامه فابتسمت له وقالت :

ـ إن المسيو جورج داريه قد أوصى بك أبي يا سيدي وذلك كافٍ لأن يحترمك ملء الاحترام ويقدرك قدرك .

فقال لها لوسيان :

ـ إني أشكرك يا سيدتي لتفضلك باستقبالي وقـــد أخبرني صديقي جورج انك تفضلت بوعده بمساعدتك لدى أبيك الذي أتيت اليه بكتاب توصية من صديقي .

فأشارت ماري بيدها الى كرسي وقالت له :

ـ تفضل بالجلوس ولنتحدث ، فقد قال لي المسيو جورج انك من أهل الصبر والإقدام وأنك لم توفق حتى الآن الى عمل ينطبق على ذكائك واجتهادك وأنك ترغب ان يكون لك منصب في معمل أبي الجديد .

ـ إن هذا المنصب يضمن مستقبلي يا سيدتي .

ـ وقد أخبرت صديقك جورج ان لك كثيراً من المزاحمين في هذا المنصب الذي يتألب حوله الطامعون .

ولكنني وعدته ان اساعدك جهد إمكاني كي تفوز على مزاحميك الكثيرين ، ولذلك وجب أن تكون أول من يرى أبي .

ومن عادتي يا سيدي اني لا أتداخل في أشغال أبي ، غير أني سأتداخل هذه المرة إكراماً لصديقك وأستخدم نفوذي عند أبي .

وأنا التي سأعرفك به وأعينك في تحقيق أمنيتك .

ـ إن لساني لا يفي حق شكرك يا سيدتي فإنك أحييت ميت آمالي .

وكانت ماري تصغي الى حديث لوسيان وهي تشعر بخفوق في قلبها ولكنها لا تعلم سببه ولكنها كانت تجد به لذة فقالت له :

ـ إني سأفعل كل ما أستطيع فعله من أجلك وكنت أود ان احقق رجاءك اليوم فتذهب من هنا واثقاً مطمئناً .

غير أن أبي لم يعد من رحلته بعد فقد كنت أنتظر عودته اليوم ولكن وردني منه نبأ برقي يقول فيه انه سيتأخر يوماً في بلجيكا فلا يصل إلا في هذه الليلة .

فخاف لوسيان وتنهد ثم قال لها :

– لا بأس من صبر يوم يا سيدتي ويكفيني سعادة انك ستأخذين بناصري وسأطلب تحقيق رجائي أمامك .

فاحمرّ وجه ماري وقالت :

– وستفوز بتحقيق رجائك أمامي ، فاني أرجو ان يكون لتداخلي تأثير حسن لدى أبي فلا بد إذن من عودتك غداً .

فوقف لوسيان وقال : الى اللقاء غداً يا سيدتي .

– الى اللقاء ، ثم ضحكت وقالت : ولكني لا أعرف اسمك يا سيدي .

– لوسيان لابرو .

– إني لا أنسى هذا الاسم فاعتمد عليّ يا سيدي لوسيان .

فودّعها لوسيان وانصرف وهو يكاد يطير فرحاً .

أما ماري فانها خرجت في أثره ووقفت تشيعه بالنظر حتى إذا خرج من الباب التفت فالتقت النظرات فحيّاها وحيّته ثم دخلت الى غرفتها وهي تقول: لوسيان .. لوسيان.. إني لا أنسى هذا الاسم فان عيني هذا الفتى تدلان على سلامة الطوية والإخلاص وقد رأيته لأول مرة فخيّل لي كأنه صديق قديم .

نعم انه سيروق لأبي كما راق لي وسيعهد اليه بإدارة معمله. نعم ان ذلك لا بد ان يكون لأني اريد ان يكون .

* * *

وقد جاء أبوها في تلك الليـــلة كما أخبرها بالتلغراف الذي أرسله اليها من بروكسل ، فاغتم غماً عظيماً لما رآه من نحول بنته في غيابه ، فان هــذا الرجل السفاك على شره وآثامه كان له قلب أب يحب ويحن .

وكان عارفاً بمرض بنته غير أنه كان يأبى ان يصدق نفسه فيغالطها في حكمها ويعللها بالرجاء .

أما هذه المرة فقد تمثل له الخطر بملء ظواهره فأورثه ذلك الغم .

وبعد أن عانقها جلس بجانبها وجعل يسألها عما جرى في غيابه .

فأخبرته بكل ما حدث دون أن تذكر كلمة عن لوسيان فقد كان لهـــا في ذلك مأرب .

فضمها الى صدره وقال لها : حدثيني عنك يا ابنتي العزيزة فقد تركتك أحسن عافية مما أراك ؟

قالت : إنك مخطىء يا أبي ولا أنكر أني ضجرت بغيابك ولكن هذا الضجر لم يؤثر على صحتي أقل تأثير بل أشعر أني مرتاحة النفس جذلى وأن عافيتي خير مما كانت عليه من قبل .

وعند ذلك فاجأها سعال كان مكذباً لما قالته فكاد يجن أبوها إشفاقاً عليها. وصرفا تلك الليلة بأحاديث مختلفة دون أن تذكر له ماري شيئاً عن لوسيان.

- ١٩ -

في صباح اليوم التالي دخل جاك الى قاعة مكتبته وجعل يطالع الرسائل التي وردت اليه .

وكان أول ما أستلفت نظره غلاف عليه طابع بريد اميركي ففضه بيد ترتجف إذ عرف أن خطه كان خط اوفيد سوليفو وقرأ ما يأتي :

« يا ابن خالي العزيز

إن سفرك كان شؤماً علي فإن أشغال ذلك المعمل الذي بعتني إياه أخـــذ بالتناقص في كل يوم فان سفرك قضى على المعمل قضاء مبرماً وبات مستقبله حالك الظلام .

وقد بدأت أشعر بالأسف لأني لم اسافر وإياك الى فرنسا فان القرابة والصداقة جعلتاني شديد التعلق بك حتى اني لم اعد اطيق فراقك .

ومن يعلم فقد نلتقي لأن هذه الحالة لا يمكن ان تدوم .

الى اللقـــاء أيها الصديق وثق بأني لا ازال كما كنت ذلك الصديق المخلص والقريب المحب » .

« اوفيد سوليفو »

فلما قرأ جاك هذه الرسالة اصفر وجهه من الغضب ودعك الرسالة بيده وقال:
لقد خرب هذا الشقي معملاً ملأت شهرته الدنيا وقد ناله بالنصب والاحتيال دون أن يدفع درهماً من ثمنه .
وهو لم يصله الى هذه الحالة غير المقامرة فقبح القمار وقبح لاعبوه فإنهم يلقون بأنفسهم الى التهلكة وهم لا يشعرون .
وقد كنت أحسب أني خلصت من هذا الشقي الى ان وردني اليوم هـــذا الكتاب الذي ينذرني فيه بالحضور الى فرنسا وهو لا يريد بذلك إلا أن يحتال على حيلة جديدة يستنزف بها مالي لخسارته على موائد القمار .
قال هذا وطرح الرسالة في المستوقد وعاد الى الإهتمام بأشغاله ولكنه كان منقبض الصدر مقطب الجبين .
أما ماري فانها استيقت باكراً في ذلك اليوم فتأنقت بملابسها ونادت خادم غرفتها فقالت له :
أتذكر ذلك الرجل الذي جاءني أمس صباحاً ومعه كتاب من المسيو داريه؟
قال : نعم يا سيدتي .
— إنه سيأتي اليوم ايضاً في الساعة التاسعة ونصف ليرى أبي فمتى جـــاء فادخل به إلي فاني أنتظره في قاعة الاستقبال .
فانحنى الخادم وانصرف .
أما ماري فإنها لم تجلس في تلك القاعة بل ذهبت الى نافـــذة فيها مطلة على الباب الخارجي ووقفت تنتظر قدوم لوسيان فكان يخال أن الدقائق أعوام .
وبعد نصف ساعة قرع الباب الخارجي ورأت ماري أن الداخل كان لوسيان فوضعت يدها على قلبها .
وعند ذلك فاجأها السعال وجاء الخادم بلوسيان اليها فبذلت المنكودة جهداً عنيفاً كي تمنع السعال ثم ابتسمت للوسيان وقالت له :
— إن أبي قد عاد من رحلته بحيث اني استطيع ان اقدمك له الآن .
قال : ألعلك ذكرتيني أمامه يا سيدتي ؟
قالت : كلا فاني لم أقل له شيئاً ولكني وثقت أنه لم ينتخب أحـــداً بعد

لإدارة معمله .

وقد احببت أن اكلمه بحضورك فتعال معي واعتمد علي .

ثم مدت اليه يدها فشعر لوسيان أنها ترتجف في يده وخرجت وإياه من القاعة فأجلسته في غرفة بجانب مكتبة أبيها وقالت له : انتظرني هنا الى أن أدعوك .

وما كان أبوها ليخيب لها رجاء لا سيما حين علم أن جورج داريه قد أوصى بهذا الرجل الذي توصيه به فخرجت ماري مسرورة ونادت لوسيان فقالت له :

تفضل بالدخول يا سيدي فان أبي ينتظرك .

فدخل لوسيان فأعطاه كتاب صديقه جورج وتركتهما ماري فدار بينهما الحديث الآتي :

قال جاك : إنك تسألني منصب إدارة المعمل ؟

قال : هو ذاك يا سيدي فاني لا أنكر خطورة هذا المنصب ولكني أرجو أن اقوم بأعباء هذه المهمة خير قيام .

– إن جورج داريه يوصيني بك توصية الواثق من خبرتك فهل تلقيت دروسك في مدرسة الصنائع والفنون ؟

– نعم يا سيدي وزدت على ذلك أني درست دروساً خاصة بالميكانيكيات ولا سيا ما تعلق منها بالسكك الحديدية .

– وهل تعلمت الرسم ؟

– لو لم أكن رساماً لما تجاسرت على أن اعرض خدمتي عليك .

– كم يبلغ عمرك ؟

– سبعة وعشرون عاماً .

– هل أنت باريسي ؟

– إني ولدت بجوار باريس في فورتفيل .

فسقطت كلمة فورتفيل على جاك سقوط الميـــاه المثلجة على الرأس وقد ارتعش وقال :

– هل أبوك حي ؟

– كلا .

– ولكن امك لا تزال في قيد الحياة ؟

– لقد مات كلاهما فإن امي ماتت حين ولدتني وعندما مات أبي لم يكن لي من العمر غير ثلاثة أعوام .

– أتأذن لي أن أسألك ماذا كان يصنع أبوك ؟

– كان مهندساً وكان له معمل في فورتفيل .

فاصفر وجه جاك وقال له بصوت مضطرب :

ماذا تدعى ؟

– لوسيان لابرو .

فردد جاك اسم لوسيان لابرو وهو يشعر أن الدم قد جمد في عروقه .

وذهل لوسيان لما رآه من اضطرابه فقال له :

العلك تعرف أبي يا سيدي ؟

فملك جاك نفسه وقال :

إذا كان أبوك يدعى جيل لابرو فقد عرفته حق العرفان لانه كان من أصدقائي ؟

– نعم إنه يدعى جيل .

– وهذا هو السبب في اضطرابي حين سمعت اسمه فجأة فاني قرأت في اميركا خبر النكبة التي أصابته .

– إذن أنت تعلم كيف مات أبي ؟

فارتعد جاك وقال : نعم فقد قتل في معمله حين احتراقه وأذكر مما قرأته أن التي قتلته حارسة المعمل .

– هذا الذي ظنه القضاة بدليل حكمهم على حنة فورتيه أما أنا فلا أظنها القاتلة .

فارتعش جاك وقال : أتحسب أن هذه المرأة بريئة ؟

– هو ذاك .

– ولكن الأدلة على ارتكابها الجناية كانت كثيرة .

– وأنا علمت من عمتي أن هذه المرأة لا يمكن أن تكون القاتلة وأن القاتل

رجل له مأرب وفائدة من قتل أبي .

— من هو هذا الرجل ؟

— هو رجل كان نائب رئيس في المعمل وكان لأبي ثقة عظيمة به فباح له بسر اختراع جديد وإنما قتله كي يكون له هذا الاختراع .

— ماذا يدعى ؟

— جاك جيرود .

— ولكنهم يقولون أن هذا الرجل مات بالنار شهيد إخلاصه ؟

— وأنا لا أثق باخلاصه ولا اصدق خبر موته بل أعتقد ان هذا الشقي أشاع هذه الإشاعة إخفاء لجريمته .

— هل لديك برهان على ما تقول ؟

— كلا لسوء الحظ ولكن جاك جيرود كتب كتاباً الى حنة فورتيه وكان يهواها وهو يعترف بجريمته في ذلك الكتاب .

— إذن كيف لم تبرىء حنة نفسها باظهار هذا الكتاب ؟

— لأن النار التهمته في غرفتها .

فهز جاك رأسه وقال :

كل ذلك مبهم لأنه غير مبني إلا على الظن .

— هو ما تقول ولكن يبقى حديث القلب وهو لا يخطىء ولا بد أن يظهر النور يوماً وتنجلي هذه الحادثة فأنتقم لأبي المقتول .

فسال العرق البارد من جبين جاك وقال :

ولكن ماذا تستطيع أن تصنع فقد مضى على هذه الحادثة إثنان وعشرون عاماً فلو افترضنا أن جاك جيرود هو القاتل وأنك اهتديت اليه فإن الحكومة لا تعاقبه بعد فوات هذه المدة .

— إني لا ابالي بانتقام الشرع ولا أستعين بالقضاء فاذا عرفت مكان هذا اللص السفاك الذي لا بد أن يكون غير اسمه بعد أن اغتنى باختراع أبي وماله وبات له عائلة وأصدقاء فسأنتقم منه وحسبي انتقاماً أن تظهر جريمته ويفتضح أمام أهله وعارفيه .

فوقف جاك وجعل يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً إخفاء لاضطرابه ثم وقف وقال :

إني أستحسن منك إرادة الإنتقام لأبيك ولكني أشك في نيلك هذه البغية والآن لنعد الى حديثنا القديم فإنك تسألني منصباً يضمن لك حاضرك ومستقبلك وأنا اجيبك الى ما طلبت .

فأسرع لوسيان فأخذ يد قاتل أبيه بين يديه وشكره بالنظر إذ لم يجد كلمة تفي حق شكره .

فقال له جاك : إنك متعلم خبير بأعمالنا فسأجعلك مدير المعمل ويكون لك الكلمة العليا فيه فتختار من تريده من الرسامين والعمال ويعملون كلهم بأمرك.

أما المعمل فإن إنشاءه لم ينته بعد ولكني سأشتغل في منزلي فإني اعد فيه معدات الرسم واريد أن تكون معي الى أن يتم بناء المعمل .

أما راتبك فسيكون في البدء ألف فرنك في الشهر أيكفيك هذا الراتب ؟

— دون شك بل هو فوق مأمولي .

— أتقبل ؟

— بملء الامتنان .

— إذن نحن متفقان وسنبدأ العمل اليوم فتصحبني الى المعمل لأني احب أن أتفقد البناء .

— وأنا سأذهب فأتغدى وأعود في الحال .

— كلا بل تتغدى معي .

— إن فضلك يا سيدي قد ضيق نطاق شكري فلا أعلم كيف أشكرك لجميلك.

— إذا كان لا بد من الشكر يا بني فاشكر إبنتي وصديقك جورج بل اشكر كفاءتك .

والآن فقد اتفقنا وأنت تعرف طريق قاعة الاستقبال فاذهب اليها وانتظرني مع ماري وأخبرها أني سأوافيكما بعد هنيهة وأنك ستتغدى وإيانا .

فخرج لوسيان والدنيا لا تكاد تسعه لفرحه .

أما جاك جيرود فانه سقط على كرسيه واهي القوى وجعل يحدث

نفسه فيقول :

لوسيان لابرو .. إبن ذلك الرجل الذي قتلته .. ما هذا الإتفاق العجيب فان ابنتي تتولى حمايته إنه في منزلي وهو يعتقد أن حنة بريئةوأن جاك جيرود القاتل ويريد الإنتقام لأبيه بعد أن مضى اثنان وعشرون عاماً على قتله .

إنه إذا انتقم لا ينتقم مني بل من إبنتي بفضيحة أمري .. كلا إن ذلك لا يكون وأن هذا الفتى لا يجب أن يفارقني فسيقيم بجانبي بحيث لا تفوتني خافية من أعماله حتى إذا اضطررت الى قتله كما قتلت أباه فعلت وذلك حين يخامره أول شك بأني ادعى جاك جيرود .

* * *

كانت ماري تنتظر انتهاء المقابلة بفارغ الصبر لتعلم مـا يكون من لوسيان وأبيها فلما دخل لوسيان الى القاعة مشت خطوتين لاستقباله وفاجأته بقولها : قل عاجلاً ماذا حدث ؟

ـ لقد جرى الأمر طبق المراد .

ـ هل قبل أبي ؟

ـ نعم يا سيدتي فقد تعينت اليوم مديراً للمعمل .

فلم تستطع ماري مقاومة تأثرها حتى أنها اضطرت أن تستند الى الكرسي فقال لها لوسيان :

ماذا أصابك يا سيدتي ؟

قالت : لا شيء فإن ما تراه كان من تأثير الفرح فاني كنت أود ان يقبل أبي طلبك فاعذر ضعفي وقد زال هذا العارض البسيط .

قال : بقي علي يا سيدتي أن اعرب لك عن امتناني لتفضلك بمساعدتي فاني مدين لك بهذا الفوز ولا انسى جميلك ما حييت .

فابتسمت ماري وقالت :

سوف نرى إذا كنت تذكر .

فأخذ لوسيان يدها المضطربة بين يديه وأدناها من فمه فلثمها فشعرت ماري أن قلبها يخفق خفوقاً عظيماً وقالت في نفسها :

رباه أرى أني احبه بملء جوارحي .
ثم قالت له وقد تمالكت نفسها ، إذن ستستلم الأعمال قريباً ؟
ـ منذ غد يا سيدتي فاني سأذهب اليوم مع أبيك لزيارة المعمل .
ـ على ذلك ستتغدى معنا ؟
ـ نعم يا سيدتي فقد عهد إلي أبوك أن اخبرك بذلك .
ـ إذن اسمح لي أن ادعك وحدك هنيهة .
ثم تركته وذهبت فأمرت بإعداد كرسي له على المائدة وعادت الى أبيها فعانقها أبوها وقال لها :
العلك تحدثت مع الذي تحمينه وهل أنت مسرورة من ذلك ؟
ـ إن سروري عظيم يا أبي فوق ما تظن .
وقد نظر جاك الى إبنته فرأى دموع السرور تجول في عينيها فقطب حاجبيه وقد خطر له خاطر فجائي رعب له رعباً عظيماً حين فهم سبب هذه الدموع ولكنه تغلب على اضطرابه وقال لها : هلمي بنا يا إبنتي الى المائدة .
وقد جلسوا جميعاً على المائدة فدار الحديث بين جاك ولوسيان على امور تتعلق بصناعتها فكان لوسيان يجيبه على كل أسئلته بما يدل على حنكته وحسن اختباره وكانت ماري مشرقة الوجه تبدو علائم السرور الأكيد في عينيها .
وفي المساء حين فرغ لوسيان من أعماله ذهب تواً الى صديقه جورج فشكره وأخبره بما اتفق له ثم أسرع الى خطيبته وهو يخشى أن تكون قد قلقت لغيابه .

* * *

لم تكن لوسي وحدها في غرفتها فقد كانت معها حنة فورتيه التي باتت تدعى بعد دخولها في المخبز بالأرملة ليزا بيرين .
وكانت لوسي تشتغل في غرفتها وهي تصغي من حين الى حين علها تسمع خطوات لوسيان .
فلما دخلت اليها حنة قالت لها : ألعلك قادمة بخبز الصباح ؟
قالت : كلا أيتها العزيزة بل إني جئت اسألك قضاء أمر .
ـ إني اقضيه بملء الرضى إذا كان قضاؤه بامكاني فقولي لي ما تريدين ؟

ـ إني مررت بدكان أقمشة فلقيت ثوباً رخيص الثمن فاشتريته ورجائي أن تخيطيه لي .

دون شك فهل أحضرت القماش ؟

ـ هذا هو .

ـ ضعيه على المائدة الى أن افرغ من الثوب الذي اشتغل فيه فأضبط قياسك فهل تستطيعين الإنتظار ؟

ـ لقد فرغت من أشغالي اليومية وإني أستطيع الانتظار الى الصباح فلا يزعجك أمري .

فأخذت لوسي تشتغل بسرعة وحنة تنظر اليها نظرات حنة لا تعلم أسبابها .

ثم خطر لها ان تعلم شيئاً عن ماضي الصبية فقالت لها : العلك تشتغلين منذ عهد طويل بالخياطة ؟

ـ منذ ستة أعوام .

ـ أين تعلمتها أفي باريس ؟

ـ كلا بل في الملجأ الذي ربيت فيه .

فارتعشت حنة وقالت : أأنت ربيت في الملجأ ؟

فأجابتها لوسي بلهجـــة كآبة : نعم فاني ما عرفت أبي وامي وقد أرسلوني صغيرة الى ملجأ الأطفال .

ـ أكان ذلك من زمن بعيد ؟

ـ منذ واحد وعشرين عاماً .

ـ وكم كان لك من العمر في ذلك الحين ؟

ـ عام وبضعة أشهر .

ـ من الذي أدخلك الى الملجأ أهم أهلك أم سواهم من الذين عهد اليهم بتربيتك؟

ـ لا أعلم فانهم لا يخبرون المقيمين في الملجأ بأسرارهم .

ـ ولكن من الذي دعاك بهذا الاسم ؟

ـ لقد وضعت في الملجأ يوم عيد القديسة لوسي فربمــا دعوني بهذا الاسم لهذه المناسبة ؟

فقالت حنة في نفسها ، إذن إنها لا تدعى بهذا الإسم إلا اتفاقاً فالسلام على امالي .

وعند ذلك سمعت لوسي وقع خطوات على السلم فقالت كأنها تخاطب نفسها : هذا هو .

فقالت لها حنة : ألعلك تنتظرين زائراً ؟

— نعم وهو زائر تعرفينه فانه لوسيان .

— أهو هذا الشاب الذي يقيم بجوارك ؟

— هو بعينه فانه خطيبي وأنا أنتظره بجزع فانه ذهب في هذا الصباح لمقابلة رجل غني في شأن منصب سيتولاه عنده يتعلق عليه مستقبلي فانه إذا تعين بهذا المنصب تزوجني بعد عام .

وعند ذلك دخل لوسيان فرح القلب باسم الثغر وهو يقول : بشراك يا لوسي .

فأسرعت لوسي اليه تبكي سروراً وقالت له : ألعلك فزت ؟

— لقد فزت كل الفوز أيتها الحبيبة فقد نلت منصباً كان فوق مأمولي وقد تغديت عند صاحب المعمل وذهبت وإياه بعد الظهر لتفقد معمله الجديد ثم ذهبت الى جورج فأخبرته بما اتفق وأتيت بعد ذلك اليك فاعلمي يا لوسي أني تعينت مديراً للمعمل براتب قدره اثنا عشر ألف فرنك في العام .

فلم تكد لوسي تصدق مـــا سمعته وقالت : اثنا عشر ألفاً إن هذا الراتب وحده ثروة .

— إنه إذا لم يكن الثروة فهو بدءها فإني سأتزوج بعد عام وأرجو ان اقتصد بعد خمسة اعوام نحو ثلاثين ألف فرنك فأجدد في فورتفيل معمل أبي .

فارتعشت حنة حين سمعت كلمة فورتفيل وقالت له :

— أكان أبوك يقيم في فورتفيل ؟

— نعم .

— ماذا يدعى أبوك ؟

— جيل لابرو وقد مات قتيلاً منذ واحد وعشرين عاماً في معمله المحترق .

فشعرت حنة أن رجليها قد وهنا وأن الدم قد جمد في عروقها من الرعب فإن

هذه السجينة الهاربة المتهمة بقتل جيل لابرو وجدت فجأة ابن هذا القتيل .

وقد لحظ لوسيان أن حنة قد اهتمت لأمر والده فقال لها :

لقد كان لقتل أبي لغط عظيم إذ تحدث به جميع الناس فهل سمعت بقتله ؟

— نعم .

— وقد اتهمت امرأة بقتله أتذكرين ذلك ؟

— نعم اذكره .

— وقد حكم القضاة على هذه المرأة ولكن قلبي يحدثني بأنها قد تكون بريئة مما اتهمت به .

— ألا تعتقد ببراءتها ؟

— إني اشكك في ذلك ولا أزال مرتاباً بأمرها الى أن أرى ذلك الرجل الذي أظنه القاتل فقد اشيع أنه قتل بالنار شهيد إخلاصه ولكنني لا أظن ذلك إلا خدعة فعلها للتمكن من الفرار .

فاضطربت حنة وكادت تبوح بسرها وتذكر اسم جاك جيرود ولكنها خشيت شر العاقبة ولزمت الصمت فانها كانت تعلم أنه لا فائدة لها من الاقرار إذ لا برهان لها يثبت براءتها .

ومع ذلك فقد شعرت بسرور عظيم لأن ابن القتيل لم يتهمها كما اتهمها القضاء بل هو يحسبها بريئة .

وبعد سكوت قصير قالت له حنة :

— إذا وجدت هذا الرجل الذي تحسبه القاتل فماذا تصنع به ؟

قال : أستوثق في البدء أنه هو القاتل فأجزيه الشر بالشر وأطلب تبرئة تلك المرأة المظلومة .

— ربما كانت ميتة .

— قد يكون ذلك ولكني سأعلم حقيقة أمرها فإن أحد أصحابي وهو من المحامين سيبحث عنها ليعلم في أي سجن سجنت فإذا كانت لا تزال في قيد الحياة ذهبت اليها فسألتها عن الحقيقة وهي لا تكذبني فإذا أيقنت من براءتها وهو ما أرجوه لا أنفك عن البحث عن القاتل حتى أظفر به .

فحاولت حنة ايضاً أن تبوح بسرها وتقول له :

إن التي تبحث عنها ليست ميتة بل هي جالسة واياك وهي أنا .

ولكنها ضغطت على نفسها ضغطاً شديداً فتمكنت من الكتمان وقالت له :

إن لهذه المرأة المنكودة ولدين فماذا جرى لهما ؟

ـ لا أعلم .

فأطرقت حنة برأسها ولم تستطع أن تزيد حرفاً على ما قالت حـــذراً من الافتضاح .

أما لوسيان فانه التفت الى خطيبته وقال لها :

ألعلك مسرورة بهذا النبأ أيتها الحبيبة ؟

قالت : بل اني سعيدة ولا يعوزني شيء بعده من أسباب السعادة .

ـ ولكني لا استطيع ان أراك بعد الآن كما أراك الآن ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأن بول هرمان يريد ان اقيم بمنزل بجوار منزله كي أكون قريباً منه .

ـ إذا كان لا بد من ذلك يا لوسيان فلا بأس فان البعد عنك يحزنني ولكن عزائي فيه أنه عائد عليك بالخير على أنك ستخصص لي كل يوم أحد ؟

ـ دون شك وسأكون أسعد الناس في ذاك اليوم .أما الآن فسأخبر صاحب المنزل أني سأبرح منزلي منذ الغد .

فتنهدت لوسي وقالت :

أأبقى إذن وحدي ؟

فقالت حنة : كم تدفع اجرة غرفتك يا سيدي لوسيان ؟

ـ مائة وخمسين فرنكاً ولا يزال لي ثلاثة أرباع القسط الذي دفعته مقدماً وسأخسر هذه القيمة إلا إذا وجد مستأجر للغرفة .

ـ أنا استأجر غرفتك فلا تخسر شيئاً .

فسرت لوسي وقالت :

أحق ما تقولين ؟

قالت : نعم أيتها الحبيبة فإني يسرني ان اقيم بجوارك وإني احبك كما أحب

لوسيان وعلى ذلك فإنني سأحدثك دائماً به .

وقد اتفقوا على ان تقيم حنة في غرفة لوسيان وفي اليوم التالي كانت حنة مقيمة في تلك الغرفة .

- ٢٠ -

وفي ذلك اليوم نفسه بدأت اشغال لوسيان في منزل جاك فكانت ماري تتذرع بالحجج المختلفة للتقرب منه وكانت لوسي تنتظر يوم الأحد بفارغ الصبر لتجتمع بخطيبها فإنها لم تكن تراه إلا في ذلك اليوم لكثرة انهماكه في الأشغال .

وقد كان لدخول لوسيان في خدمة جاك تأثير عظيم على صحة ماري لم يخف على أبيها .

فاستنتج من ذلك أن عينيه لم تخدعاه في البدء وأن ابنته تحب لوسيان فكان يخشى غائلة هذا الحب وينتظر من حين الى حين أن تأتي اليه ابنته وتبوح له بسرها المكنون .

وقد مر على ذلك شهر دون ان تحدث حوادث تذكر سوى أن ماري زادت تعلقاً بلوسيان وأن لوسيان بدأ يشعر بميلها اليه فيغتم لذلك غماً شديداً لأنه كان يحب لوسي حباً لا يحيط به وصف ولا يتخلى عن حبها بأموال الأرض .

ولكنه كان يتعزى عن ذلك لقرب افتتاح المعمل ويرجو أنه متى أقام في ذلك المعمل أي في ضواحي باريس ابتعد عنها فخفف عندها هذا الميل بالبعد .

وقد صح حسابه في البدء فإن بعده عن ماري لم يخمد حبه في قلبها ولكنه خفف أشجانها فان لوسيان لم يكن يذهب الى منزل أبيها إلا في القليل النادر .

* * *

غير أن ذلك لم يطل فان ماري كانت تحبه دون أن تجاهر بذلك الحب وجعلت تذهب الى معمل أبيها في ضواحي باريس متذرعة كل مرة بحجة بغية أن تراه .

ففي يوم السبت مساء ورد الى لوسيان كتاب من صديقه جورج يدعوه فيه الى الطعام غداً ، أي يوم الأحد .

فلم يجد بداً من تلبية الدعوة وكان جورج قد علم بما لقيه لوسيان من الفوز لدى بول هرمان فقال له :

إني اهنئك بهذا النجاح الذي كنت أتوقعه فانه ينطبق على ذكائك وجدك .

قال : إني أشكرك أيها الصديق ولكني لا أنكر عليك أني من اهل المطامع.

— ألعلك طامع بإعادة معمل أبيك في فورتفيل ؟

— هو ذاك فانه واجب فرضته على نفسي ولا يهدأ لي بال قبل إتمامه وأرجو أن اتمكن بأعوام قليلة من اقتصاد نفقات بناء هذا المعمل فإن ارضه لا تزال لي .

— إني اثني عليك كل الثناء أيها الصديق وما زلنا نتحدث بالماضي فاني محدثك بما علمته عن تلك المرأة المتهمة باحتراق المعمل .

— حنة فورتيه ؟

— هي بعينها فإن هذه المنكودة سواء كانت مجرمة او بريئة فانها لقيت شقاء غظيماً وحكايتها أنها على أثر الحكم عليها اصيبت بالجنون .

فصاح لوسيان واتيان المصور الذي كان حاضراً قائلين :

مجنونة ؟

قال : نعم فقد بقيت في مستشفى المجانين عشرة اعوام .

— وبعد ذلك اخرجت منه ؟

— نعم فقد احترق المستشفى أيام الحصار فنقلوها الى مستشفى كارمون كي تقيم فيه بقية حياتها لأنها محكوم عليها بالسجن المؤبد .

فقال لوسيان : هل ماتت ؟

— كلا ولكنها هربت منذ شهرين متنكرة بملابس راهبة بعد أن شفيت من جنونها .

— ألم يظفروا بها حتى الآن ؟

— كلا ولكن لا بد لهم من العثور بها فقد أرسلوا أوصافها الى جميع الجهات ويعتقد رجال البوليس أنهم سيقبضون عليها قريباً لأنها لم تهرب من السجن إلا للبحث عن ولديها .

— مسكينة هذه الأم فقد كلموني عنها منذ بضعة أيام .

— من الذي كلمك عنها ؟
— امرأة قرأت قضيتها يوم محاكمتها فأخبرتني أن لها بنين .
— من هي هذه المرأة ؟
— بائعة خبز تدعى ليزابيرين .
وهنا انتهى الحديث بشأن حنة وأخذ الثلاثة يتحدثون بأمور مختلفة الى أن فرغوا من الطعام فاستأذن لوسيان صديقيه وذهب الى خطيبته .
وكانت لوسي تنتظره ومعها حنة التي لم تكن تفارقها بعد فراغهـــا من بيع خبزها فكانت تساعدها بأشغالها البيتية بل انها كانت تتولى كل امورها إذ شعرت بميل عظيم اليها فأصبح هذا الميل متبادلاً بين الاثنتين .
فلمّا دخل لوسيان حاولت حنة أن تنصرف ولكن لوسيان طلب اليها أن تبقى معها فوافقت على طلبه شاكرة ممتنة .
وقد تلطف معها بالحديث حتى أنه قال لها : إني أرجو ان تعيشي معنا في مستقبل الأيام .
فسرت لوسي لقوله وقالت : وأنا ارجو ان اجد بها تلك الأم التي لم أعرفها.
فأجابتها حنة قائلة : وأنا احبك كما لو كنت بنتي .
فقال لها لوسيان : أتذكرين حديثنا منذ بضعة أيام عن تلك المرأة المنكودة المتهمة بقتل أبي ؟ وهي بريئة في اعتقادي .
— نعم اذكره .
— إنها هربت من السجن منذ شهرين .
فقالت لوسي : إذن لقد باتت مطلقة السراح .
قال : هو ذاك ولكن عهد حريتها لا يطول فإنهـــا لم تهرب إلا للبحث عن ولديها ولا بد أن يهتدوا اليها خلال أبحاثها .
فارتعدت حنة وأدارت وجهها كي تخفي اصفرارها وأيقنت أنه لم يبق بد لها من المبالغة بالتنكر والاختباء .

* * *

في صباح هذا اليوم نفسه صحت ماري من رقادها مبكرة فلبثت في غرفتها

الى وقت الغداء وهي حزينة النفس منقبضة الصدر لما كانت تراه من عدم اكتراث لوسيان لحبها .

وقد أشكل عليها حل هذا اللغز فإنها كانت ترى نفسها صبية حسناء بل إنها كانت تبالغ أحياناً وتتمادى بإظهار ميلها اليه وعطفها عليه وهو واجم لاه كأنما قلبه قد من الصخر أو كأنه لم يجدها جديرة بغرامه ، فتتأجج في قلبها عاطفة الكبرياء وتحقد عليه ، ثم يدفعها الحب الى ان تلتمس له عذراً فتجده بسرعة وتقول في نفسها :

إنه يحبني دون شك كما احبه ولكنه لا يجسر على ان يطارحني غرامه لما بيننا من تباين المقام فإنه يجدني غنية ويجد نفسه معدماً عند أبي ...

نعم هذا هو عذره ولا بد لي من البيان بجلاء فإني إذا لم اكن له كنت للموت .

وفيما هي تناجي نفسها بهذه الأقوال جاءتها الخادمة تدعوها من قبل أبيها للغداء فذهبت اليه واستقبلها باسماً ولكنه قال لها بلهجة تبين فيها القلق :

— لماذا لزمت غرفتك اليوم فهل انت متوعكة المزاج ؟

— لم يكن هذا السبب داعياً الى انحباسي في غرفتي بل إني لزمتها للتمعن والتفكير .

— بماذا كنت تفكرين يا ابنتي ؟

— أتأذن لي يا أبي بالحرية في المقال ؟

— لا آذن لك فقط بل هذا الذي أريده .

— إذن فاعلم يا أبي أني سعيدة بك سعيدة بحنوك ولكن حنو الأب لا يكفي لإملاء ما في قلب فتاة صبية من الفراغ ، وقد بلغت من العمر تسعة عشر عاماً . ألم تفكر يا أبي بتزويجي ؟

فطوق جاك عنق بنته وقال لها :

أتريدين ان تفترقي عني أيتها الحبيبة ؟

ألا تعلمين ان وجودك بقربي هو الذي يثير في نفسي ما ترينه بي من الهمة والنشاط والإقدام والمطامع وانك إذا ابتعدت عني خمدت هذه العواطف في نفسي وشعرت انه لم يبق لي غير الموت ؟

ـ ولكن ألا يمكن يا أبي ان أتزوج وأبقى قريبة منك ؟

ـ أليس الأفضل ان نبقى كما نحن ؟

ـ إن من يسمعك تقول هذا القول يا أبي يحسب انك مفرط في محبة ذاتك ، فقد خطر لك دون شك انه قد يأتي يوم يصبح فيه قلبي لسواك .

ـ لا انكر ان هذا الخاطر خطر لي مراراً ولكنني ما فكرت فيه مرة إلا حسبت نفسي شقياً فكنت احاول إبعاد هذا الفكر ، ومع ذلك فقد خطر لي خاطراً ايضاً .

ـ ما هو يا أبي ؟

ـ هو اني خصصت لك مالاً وفيراً ورجوت ان ازوجك رجلاً نبيلاً تفاخرين به النساء .

ـ أية فائدة من ذلك يا أبي فاني لا اريد المفاخرة بل السعادة .

ـ وأي نبيل يراك ولا يحبك أليست السعادة في الحب ؟

فسالت الدموع من عيني ماري ونظرت الى أبيها فقالت :

إننا مختلفان رأياً بالزواج يا أبي فاني لا ابغي رجلاً نبيلاً ولا يروق لي الغنى بل اريد أن يكون لزوجي ثلاث صفات وهي الحرية والعزيمة والشجاعة ومن اجتمعت فيه هذه الصفات كان خير الرجال ولو كان من صغار العمال .

فأيقن جاك أنها تعني لوسيان وشعر برعب عظيم حين خطر له أنه سيزوج بنته ذلك الفتى الذي قتل أباه .

وقد ساد السكوت هنيهة بينهما الى ان عاد جاك الى الحديث فقال :

أتذهبين اليوم للنزهة ؟

قالت بل نذهب للزيارات إذا شئت يا أبي فاني مدينة بزيارة لمدام وليمسون .

ـ حسناً فانك بينما تكونين عندها أذهب انا لزيارة جورج داريه فاني لم أره بعد عودتي .

فأشرق وجه الفتاة حين سمعت اسم جورج داريه لاعتقادهـا انهما سيبحثان بشأن لوسيان وقالت له : إني سأصحبك يا أبي اليه وهو سيشكرك لإجابتك طلبه بشأن لوسيان .

— بل أنا يجب أن اشكره فقد أرشدني الى خير عامل .
— يظهر أنك راض عن لوسيان ؟
— كل الرضى فانه من أنشط العمال وأحذقهم .
— وفوق ذلك فانه حسن التربية رقيق الحاشية مهذب النفس وقد عرفت هذه الصفات فيه لأول وهلة فصح ما توسمته فيه .

فلم يجبها أبوها ولكنه حدق بها فاحمر وجهها وندمت لاندفاعها بالثناء على لوسيان .

وبعد نصف ساعة كانت مع أبيها في منزل جورج داريه المحامي أي ابن حنة وكان هناك وصيه المصور اتيان فعرفه بها ودار الحديث بينهم على امور مختلفة الى أن ذكروا لوسيان وما لقيه في بدء عهده من الشقاء فسألت ماري جورج قائلة :

إن لوسيان لا عائلة له أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدتي فقد حدثت جناية جعلته يتيماً .

فارتعدت ماري وقالت جناية ...!

إنه لم يذكر لي شيئاً من ذلك ، أروى لك هذه الرواية يا أبي ؟

فأجابها أبوها : دون شك يا ابنتي ولكني ما احببت أن أقص عليك هذه الرواية المحزنة .

— ولماذا لا تخبرني بها ؟ فإني أنا ايضاً توسطت في شغله واحب أن اعلم من أمره ما تعلمون فأنسيه تلك النكبات السابقة .

ثم التفتت الى جورج وقالت له : أرجوك أن تقص علي خبر هذه الفاجعة .

فقال لها جورج : إني أستطيع يا سيدتي أن ارويها لك بملء الإيجاز وهي أن والد لوسيان عاد الى معمله ليلة عند انتصاف الليل فوجد معمله يحترق وقتل فيه .

— ولكن هذه الرواية ليست محزنة بل إنها هائلة أليس كذلك يا أبي ؟

فضبط جاك نفسه إخفاء لاضطرابه وقال : إنها هائلة دون شك .

فقالت ماري : ولكن من الذي أضرم النار في المعمل وقتل صاحبه ؟

— إذا صدق حكم القضاء كان القاتل امرأة وهي حارسة المعمل .

— رباه أيمكن ان تقدم النساء على مثل هذه الجرائم الفظيعة إنها نمرة ضارية!
— أو أنها شهيدة مظلومة يا سيدتي .
— ماذا تعني بذلك يا سيدي ؟
— أعني ان لوسيان علم من عمته ان هذه المرأة لا يمكن ان تكون القاتلة .
— ألم تستأنس المحكمة بهذا القول ؟
— كلا فإن جميع الأدلة كانت تثبت الجريمة على المرأة .
— إذن كيف يشكك لوسيان ببراءتها ؟
— ذلك أنه يعتقد بأن حكم القضاة كان من قبيل الخطأ الفجائي وهو يرجو أن يقابل حنة فورتيه المتهمة ويعرف منها القاتل الحقيقي ولكنه يستحيل عليه الآن ان يرى هذه المرأة .

فسال العرق البارد من جبين جاك وقال : كيف ذلك فان المجرمة يجب أن تكون في السجن .

هو ذاك غير أنها فرت من سجن كلرمون الذي كانت مسجونة فيه .

فاصفر وجه جاك حتى بات كالأموات وقال بصوت خافت : أهربت ؟

— نعم ولكنهم سوف يقبضون عليها وقد كان أسف لوسيان شديداً حين أخبرته بفرارها فانه كان يرجو أن يقابلها ويقف منها على الحقيقة .

فقال جاك : ولكن لنفرض أنه لقيها وأنها أخبرته عن القاتل الحقيقي وأنه وجد ذلك القاتل فكيف يستطيع أن ينتقم منه وقد فاتت المدة المفروضة في القانون لمعاقبة المجرمين .

— بل إنه يستطيع الانتقام ، فان هذا القاتل اذا كان قد تسمى باسم آخر وبات غنياً بفضل ذلك المـــال الذي سرقه انتقم منه بفضيحته فان مثل هذه الفضيحة قد تكون شراً من العقاب وقد تدعو المصاب بها الى الانتحار .

فقالت ماري : إني اتمنى الفوز للوسيان بانتقامه فان انتقامه لأبيه عدل .

فأطرق جاك برأسه لكلام بنته وعاد جورج الى الحديث فقال :

إن غرض لوسيان أن يقتصد ما يمكنه اقتصاده في كل عام حتى إذا جمع المبلغ الذي يريده بنى معملاً فوق تلك الأرض التي احترق فيها معمل أبيه إحياء لذكره.

فقالت ماري : وذلك أيضاً مما يستحق عليه الثناء ولكن انتظـــاره سوف يطول إلا إذا اراد أبي .

فقال لها أبوها :

كيف ذلك يا ابنتي ؟

– لقد قلت لي منذ يومين ان نطاق أعمالك قد اتسع حتى أنك سوف تضطر الى إنشاء معمل آخر متسع فلا تشغل معملك الحالي إلا بآلات السكك الحديدية، ألا يستطيع لوسيان أن يدير هذا المعمل الجديد ؟

– دون شك وسأعتمد عليه دون سواه في إدارته .

– إذن اجعله شريكاً لك فيه .

فدهش جورج والمصور لكرم اخلاق ماري وبدأ جـــاك يعترض فقال : ولكن ..

غير ان ماري قطعت عليه الكلام قائلة :

لا تعترض يا أبي فإنك وافر الثروة ولوسيان من أهل النشاط والإقدام كما تصفه فلماذا لا تشاركه بمالك وهو يشاركك بحذقه وجده وشبابه ؟

فقال لها جورج :

إنك ترتأين خير الآراء يا سيدتي غير ان أباكِ لا بد له من التفكير والإمعان في مثل هذا المشروع الخطير .

– لا أرى فائدة من التفكير بعد ما ثبت لأبي ان لوسيان من احذق أهل صناعته ، وإذا كان ذلك فهو المغبون بالشركة ولا غبن على أبي فقـــل يا أبي واعتمد على هذه الشركة .

فابتسم جاك وقال :

لا احب إلي من إرضائك يا ابنتي فاني اوافق مبدئياً على ما اقترحته ولكن لا بد للتفكير في مثل هذه الأمور فان التسرع في كل أمر غير محمود .

وقد قال هذا القول ووقف يحاول الإنصراف فقالت ماري :

أريد قبل انصرافنا يا أبي ان اثقل على المسيو اتيان فاني احب أن ازين قصرك برسوم كبار المصورين فهل يأذن لي المسيو اتيان ان أسأله قضاء امرين ؟

فقال لها اتيان :

تفضلي يا سيدتي ومري بما تشائين .

فأجابته قائلة :

أريد اولاً أن يكون عندي بعض رسومك ثم اريد ان تختار لي ما تستحسنه من رسوم سواك .

فشكرها المصور لحسن ظنها به وانصرف جاك مع بنته .

فلما خلا جورج بإتيان قال له :

أتعلم ماذا اكتشفت بهذه الزيارة ؟

— كلا .

— رأيت ان الفتاة مندفعة بالثناء على صديقي لوسيان كثيرة الرغبة في خيره.

— وأنا رأيت ما رأيته .

— بل إني رأيت أنها تحبه ، ألا ترتئي رأيي ؟

— دون شك .

— وأخيراً اظن أن لوسيان سيتزوجها .

— أما انا فلا أظن هذا الظن .

— لماذا ؟

— لأني رأيت أباها خلال الحديث يتململ .

— ماذا استنتجت من ذلك ؟

— استنتجت ان رأي المسيو هرمان مخالف لرأي بنته .

— ولكنه يحب بنته .

— دون شك ولكني رأيت انه يحب ذاته اكثر مما يحب بنته .

— وعلى الجملة فإنك لم تشعر بميل اليه .

— لا انكر ما تقول على أني قد اكون مخطئاً بتسرعي في الحكم عليه وأنا لم أره غير هذه المرة .

ولكنك تعلم ان المرء لا يستطيع مقاومة شعور قلبه وأنا من الذين يعتقدون بصواب الحكم الأول وحكمي الأول على بول هرمان أنه قد يكون من أهل الذكاء

والإقدام ولكنه يضمر غير ما يقول .

* * *

أما جاك وابنته فإنها ركبا المركبة التي كانت تنتظرهما عند باب منزل جورج فسارت بهما وكلاهما صامت واجم .

وكانت ماري صامتة لأنها شعرت باندفاعها في ما اقترحته على أبيها بشأن لوسيان وخشيت أن تدعو هذه الجرأة جورج والمصور الى انتقادها .

وأما ابوها فقد راعه ما علمه من فرار حنة من السجن فكان يحدث نفسه فيقول :

ان حنة فورتيه هربت من السجن وهي ستأتي الى باريس وتعرفني فيها وهناك الخطر الهائل فما هذه الأخطار التي لا تنفك تداهمني في كل يوم ومن كان يخطر له أني سأرتجف رعباً بعد واحد وعشرين عاماً أمام حنة فورتيه ولوسيان لابرو ؟

وكان يحدث نفسه بهذه الأقوال والعرق ينصب من جبينه وهو ينظر الى بنته نظرات تشف عن الخوف فتطبق ماري عينيها كي تتمادى في محادثة نفسها دون أن تزعجها هذه النظرات .

وعاد جاك الى مناجاة نفسه فقال :

إنهم سيقبضون على هذه المرأة وهذا الذي أرجوه ولكن ما يكون مصيري إذا عرفتني قبل القبض عليها ؟

وقد كان شديد الرعب من حنة ولوسيان وزاد رعبه افتكاره بالكتاب الذي أرسله اليه اوفيد سوليفو فإنه كان يخشى كل يوم أن ترد اليه أخبار حضوره فقد أخبره في ذلك الكتاب عن عزمه على الحضور فماذا حدث في اميركا مما يدعو هذا الرجل الى مبارحتها والعودة الى باريس .

إنه دون شك اندفع في المقامرة بعد استقلاله بالمعمل فجعل يخسر ويستدين حتى خسر قيمة كل ذلك المعمل العظيم .

وقد اصاب جاك في ظنه فان اوفيد حين استفحلت خسارته باع المعمل وخسر معظم قيمته فلم يبق له من ثمنه غير ثلاثمائة ألف فرنك فقال في نفسه ، لقد آن اوان عودتي الى فرنسا .

وفي اليوم التالي خسر كل ما بقي معه فلم يتردد لحظة وأسرع الى بيع ساعته وما كان عنـــده من المجوهرات وركب باخرة كانت مسافرة في ذلك اليوم الى الهافر وهو يقول في نفسه :

لا انكر أني اخطأت بخسارتي المعمل فقد كان بوسعي ان اعيش من دخـــله عيش السعداء .

ولكن ابن خالي العزيز لا يزال من كبار الأغنياء وسيكون لي واياه شأن ولكني سأكون الفائز لا محالة .

- ٢٠ -

ففي صباح يوم جاء اوفيد سوليفو الى شارع موريلو في باريس وطرق باب منزل جاك ففتح له البواب وقال له :

ماذا تريد ؟

— اريد مقابلة بول هرمان .

— إنه ذهب مبكراً الى المعمل ثم ارشده الى مكانه ، فذهب اوفيد سوليفو مسرعاً الى ذلك المعمل لمقابلة صاحبه .

وقد دخل اوفيد سوليفو الى غرفة ابن خاله جاك جيرود وأقفل الباب من ورائه . وكان جاك في تلك الساعة يقفل خزائنه الحديدية وظهره الى الباب فلما سمع صوت فتح الباب التفت فاصفر وجهه وصاح صيحة دهش إذ رأى اوفيد سوليفو واقفاً في وسط الغرفة وهو مكتوف اليدين وقبعته على رأسه .

أما اوفيد فانه حيى جاك ووقف ينظر اليه وهو يبتسم .

وكان دهش جاك عظيماً فقال له : أهذا انت ؟

قال : إني بنفسي يا ابن خالي العزيز ولكن مالي أراك منذهلاً لمرآي فإن من رآك تستقبلني بهذا البرود يحسب انك غير راض عن زيارتي .

وقد كان اضطراب جاك عظيماً فانه تشاءم بقدوم اوفيد وعده مقدمة لمصابه فلما ثاب من دهشته تقدم منه فصافح يده وقال له : لماذا رجعت الى فرنسا ؟

— لأني لا استطيع الاقامة في اميركا .

– ولماذا أتيت إلي ؟

– لأسألك تعييني في معملك .

– إذن لقد كنت صادقاً فيما كتبته لي فان ذلك المعمل العظيم الذي تخليت لك عنه ...

– قد لعبت به أيدي سبا .

وعند ذلك اخذ كرسياً وجلس بجانب جاك وقال :

هذا الذي اتفق لي ايها الصديق ولا انكر أني لست من رجالك في ميدان الأعمال وإدارة الشؤون .

– ليس هذا بالسبب الذي يدعو الى إضاعة المعمل بهذا الزمن الوجيز ، ولكن السبب الأكيد هو أنك من زمرة المقامرين .

– بل اني من اشدهم ولعاً بهذه العادة الذميمة ولم اصب بهذه الخسارة الكبرى إلا لسوء بختي فاني منذ فارقتك لم يتفق لي اني ربحت مرة واحدة وهذا من غرائب الاتفاق فكان فراقك شؤماً علي .

– أفقدت كل ما اعطيتك ؟

– لم يبق لي غير ريال واحد وهذا الثوب القديم الذي تراني ألبسه .

غير أني لا اكترث لفقري فانك غني بحمد الله وقد زادت ثروتك بهذا المعمل العظيم الذي انشأته فانه اعظم من معملك القديم في نيويورك وهو يتسع لمثلي دون شك .

فارتعد جاك وقال بلهجة المذعر :

أأنت تشتغل هنا .. في معملي ؟

إن هذا محال .

– ولماذا تحسبه محال ؟

– لإن مدير هذا المعمل ابن الرجل الذي قتلته فاذا اشتغلت معه فيه وكنت وإياه كل يوم فقد تبدر منك بادرة تفضح امري .

– ولكن هذه البادرة لا تبدر مني فلا سبيل الى الخوف .

– إني لا أستطيع قبولك في الحالتين .

– لماذا ؟
– لأني لا أريد ، وفوق ذلك فاني غير مدين لك بشيء فقد اجبتــــك في اميركا الى كل ما طلبته وأعطيتك ثروة عظيمة فماذا تريد مني بعد ذلك، أيكون الذنب ذنبي إذا قامرت وخسرت تلك الثروة ؟
– ولكنك لم تجبني الى ما طلبت لمحض كرمك ومروءتك بل لأنك كنت مرغماً على إجابة سؤالي وأما الآن فانك انت نفسك تكره ان تدع قريبك فقيراً معدماً لا يملك قوت ليلة إلا إذا نسيت ما بيننا من صلة النسب .
– إنك تريد ان تقول بأني مقيد بارادتك وأنك تريد ان تضع السكين على عنقي كما فعلت في نيويورك .
– لا تقل هذا القول ايها القريب العزيز فاني لا يخطر لي في بال أن اتوعدك ولكني اذكرك فقط بما بيننا .
– بل انك تقول في نفسك اني عارف بسره وأن قلبه يهلع خوفاً مني واني اريد ان انال منه ما اريد .
– ليكن ما تفترضه أتحسب أني غير مصيب ؟
– بل أرى أنك خائن سافل تريد ان تحتال علي .
– وأنا أرى ان هواء فرنسا قد غير اخلاقك فما كنت من أهل البذاءة في اميركا وكان لك حنو على أهلك .
فغضب جاك وقال له : كفـــاك مزاحاً فاني لا احب المزاح فاني لست في قبضتك كما تظن .
– أحق ما تقول ، وكيف ذلك ؟
– ذلك أنك تستطيع فضيحتي بكلمة تقولها ولكنك لا تستفيد شيئاً .
أتحسب أني اطيق احتمال مثل هذه الفضيحة وأبقى في قيد الحياة كلا فإنك حين تقول كلمتك وتفشي ذلك السر الذي تتهددني كل يوم بافشائه اطلق النار على رأسي فأموت ولا تنال درهماً من ثروتي فانها تعود بجملتها الى ابنتي .
ولذلك كان الأفضل أن تكتم سري حرصاً على حياتي فانك إذا اسأت إلي اسأت الى نفسك .

فأيقن اوفيد أن جاك يفعل ما يقول وأنه إذا دفعه الى اليأس كانت الخسارة عليه فغير لهجته في الحال وعاد الى اللين والمسالمة فقال :

ولكنك طاهر القلب حسن المروءة فلا تتخـــلى عني ولا تدع يد الشقاء تصل إلي .

– كلا إني لا أتخلى عنك بل ادعك تعيش عيشاً سعيداً .

– أأكون بعيداً عنك ؟

– نعم فاني لا احب ان نجتمع إلا في القليل النادر .

– ولكن أية فائدة من هذا الحـــذر فاني شديد التكتم فاذا كان لا بد من الافتراق فاسمح لي على الأقل ان أزورك في منزلك وأن ارى ابنتك التي احبهـا حباً أبوياً وإن تكن لا تحبني .

– سننظر في ذلك بعد حين .

– ليكن ما تريد والآن قل لي ماذا تريد ان تصنع بي ؟

– سأعين لك دخلاً يبلغ اثني عشر ألف فرنك في العام .

– ألف فرنك في الشهر إن ذلك قليل ولكن النفس إذا رددتها الى القليل تقنع وإذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون .

– وسأعطيك خمسة آلاف فرنك لانشاء منزل تقيم فيه أضيف اليها راتب أول الشهر .

– وعلى ذلك فسأقبض الآن ستة آلاف فرنك وأحضر كل شهر فأقبض ألفاً.

– كلا إنك لا تحضر الى هنا بل أنا ارسل لك راتبك الى حيث تشاء .

– إذن ترسله الى منزلي الذي سأنشئه ولكنك إذا كنت لا تسمح لي بأن أزورك فانك تزورني فيما اظن .

– سأزورك ولكن اذكر أني اعطيتك لأول وهلة كل ما يمكن إعطاؤه واعلم يقيناً انه إذا خطر لك ان تنذرني بعد الآن تكون العاقبة سيئة على الإثنين .

ثم ذهب الى صندوقه فأخرج منه أوراقاً مالية قيمتهـــا ستة آلاف فرنك ودفعها اليه .

فأخذها اوفيد شاكراً وقال له :

والآن فاني ارجوك أن تتغدى وإياي إحتفالاً بالتقائنا بعد ذلك الغياب .

ـ يستحيل ذلك اليوم ومتى استأجرت منزلاً ازورك فيه .

ـ إذن نحن متفقان الآن وأنت غير حاقد علي فاذا احتجت إلي يوماً فاذكر أني لا ازال ذلك الصديق .

وعند ذلك قرع باب الغرفة ودخل الخادم فقال لجاك : إن المسيو لوسيان لابرو يريد يا سيدي ان يراك .

فارتعش اوفيد حين سمع هذا الاسم وكاد يفترس لوسيان بنظره حين دخوله . ثم استأذن بالانصراف وقال له :

إني منصرف يا مسيو هرمان ورجائي ان لا تنسى ما وعدتني به .

وعند ذلك برح المعمل وركب الترامواي عائداً الى باريس وهو يقول في نفسه : لقد صدق جاك فان ابن القتيل يشتغل عند القاتل ولذلك ابى ان يأذن لي بالاشتغال في معمله .

ولكن كيف أذن له ان يشتغل بمعمله وهو يعرفه لا بد ان يكون هناك سر خفي ولا بد لي من إدراك هذا السر والاستفادة منه .

أما جاك فانه بعد ان فرغ من شغله مع لوسيان وخلا بنفسه جعل يفتكر باوفيد ويقول :

لا شك أن للشيطان دخلاً في اموري فاني لا ارى امامي كيف اتجهت إلا ما يذكرني بالماضي فهذا لوسيان لابرو يقيم عندي وهذه حنة فورتيه قد هربت من سجنها وهذا اوفيد قد عاد من نيويورك وأي خطر أشد من هذا الخطر فان كلمة واحدة يقولها اوفيد للوسيان كافية لفضيحة امري .

وقد كنت احسب أني قيدت اوفيد في اميركا بقيود من الذهب ولكنه قطع تلك السلاسل وعاد إلي أشد فقراً مما كان بل إنه عاد ينذرني فامتثلت له وخفت منه وكيف لا اخاف وقد اجتمع هؤلاء الثلاثة معي في بلد واحد . .

أواه إن الخطر شديد لا ينجني منه غير قتل الثلاثة وكيف لي بالوصول الى قتلهم ؟

وقد لبث هنيهة يتمعن في امره ومصيره ثم وقف فجأة وقال :

لماذا اليأس فان اوفيد قد قيدته بالذهب ولوسيان يعتبر أني المحسن اليـــه ويبارك تلك الساعة التي عرفتني فيه .

وأما حنة فلا بد ان يقبضوا عليها ويعيدوها الى السجن فلماذا اليأس ولماذا الخوف بل يجب ان أحمد الصدفة التي سهلت لي معرفة هذه الأخطار لاتقائها .

* * *

بعد ذلك بخمسة أيام وصل الى جاك هذه الرسالة :

« يا ابن خالي العزيز

لقد وجدت منزلاً في شارع كليشي نمرته ١٩٢ ارجو ان اتمكن من استقبالك فيه في وقت قريب » .

فعرف جاك ان الرسالة من اوفيد فمزقها في الحال وألقاها في النار بعد ان حفظ العنوان في ذاكرته وأقام ذلك اليوم يلهي نفسه بالعمـــل كي لا يذكر حوادثه السابقة .

وكانت ابنته ماري لم تر لوسيان غير مرة واحدة بعد المقابلة الأخيرة .

ولكنها أظهرت له من التودد واللطف ما اخافه حتى أنه بات يجتنب مقابلتها جهد إمكانه .

فكانت تحبه بالسر حباً برح بها وزاد تمكن العلة منها فشحب لونها وغارت عيناها ونحل جسمها .

كل ذلك والأطباء يختلفون اليها فيصفون العلاجات وينصرفون فيقرأ ابوها في عيونهم قولهم .

زوّجها فإن الزواج يفيد اضعاف ما تفيدها علاجاتنا .

ولبثت ماري على هذه الحالة الى ان صممت على مكاشفة أبيها بأمرها .

وقد دخل الى غرفتها يوماً وهي على اشد حالات الضنك فذاب فؤاده إشفاقاً عليها ودنا منها فأخذ يدها بين يديه وقال لها بصوت مضطرب :

ألعلك محمومة يا ابنتي ؟

— قليلا .

وعند ذلك فاجأها السعال فقال لها : أتتوجعين ؟

– كثيراً يا أبي .

فسالت دمعة على خد أبيها السفاك وقال :

أين محل الألم يا ابنتي ؟

– في القلب .

فارتعش جاك وقال لها :

ولكنك لم تذكري هذا الألم قبل الآن لا لي ولا للأطباء ؟

– ذلك لأنه من عهد قريب وأنا لا أجد بداً من الإقرار لك يا أبي بكل أمري.

– تكلمي يا ابنتي تكلمي .

– إن علتي يا أبي بدأت من يوم قلت لي أنك تريد تزويجي بأحد النبلاء .

– هو ذاك فإني اريد ان تكوني أسعد امرأة تحسدها النساء .

– إذن فاعلم يا أبي انه لا يجب ان يخطر لك هذا الخاطر فان تحقيقه محال، فإني لا اكون سعيدة إلا إذا تزوجت الذي احبه .

– ومن هو الذي تحبينه يا ماري ، أهو لوسيان لابرو ؟

فغطت ماري وجهها بصدر ابيها وقالت :

إنك عالم بالحقيقة .

– كلا ولكني حزرتها .

– نعم إني احبه فوق حبي لحياتي .. نعم إني لا احب سواه في هذا الوجود ما خلاك يا أبي فاني احبك ما حييت .

فاصفر وجه جاك وقال :

ولكن هذا الحب جنون .

فشهقت ماري بالبكاء وقالت :

لا تقل لي هذا القول يا أبي فلا يوجد قوة تنزع حبه من قلبي فقد تمشى في جوارحي وامتزج بدمي .

وبعد فكيف تدعو هـذا الحب جنوناً فاذا كان لوسيان فقيراً فنحن أغنياء ولدينا من الثروة ما يكفينا ويكفيه .

وإذا قلت إنه من عامة الناس فهل نحن من النبلاء إنه ذكي الفؤاد حسن الإدارة

كثير النشاط طاهر النية .

على أنه لو لم يكن له شيء من هذه الصفات لأحببته فقد نفذ حبه الى قلبي كما ينفذ نور الشمس الى الآنية فيملأها شعاعاً .

وأنت تقول يا أبي أنك لا تحب ان افترق عنـك وذلك لا يتيسر إلا إذا زوجتني بلوسيان فانك تشركه بأعمالك ونعيش جميعاً في بيت واحد وأنا الضامنة أنه سيحبك كما احبك ألا تستحسن ذلك يا أبي ؟

فوجم جاك ولم يجب .

فقالت له ماري ، قل أتحبني يا أبي ؟

– أتسألينني إذا كنت احبك ومن احب إذا لم احب ابنتي ؟

– إذن لا تحب أن أموت ؟

– أنت تموتين يا ابنتي ولمن اعيش بعدك .. انه لو كان لي ألف حياة لفديت بها حياتك .

– إني لا أسألك ان تمنحني حياتك بل ان تجعل لوسيان ولدك فاذا رضيت أن تصاهره فاعلم يقيناً ان العافية ترد إلي وإذا أبيت ان تكون عمه كأنك قد قتلتني بيدك إذ لا بد لي من الموت أترفض بعد الآن ؟

فأخذ جاك رأس بنته بين يديه فقبلها وقال :

سليني كل ما تشائين ما عدا هذا الزواج .

– لماذا ؟

– لأن لوسيان لابرو لا يمكن أن يكون زوجك .

– ولكني لا أرضى زوجاً سواه .

ثم وضعت يدها على قلبها وقالت بصوت خافت إني لا أنساه .. إني سأموت.

وقد ألقت رأسها على الكرسي وأغمضت عيناها إذ اغمي عليها فكاد أبوها يجن من رعبه وركع أمامها وهو يقول :

ماري .. حبيبتي ماري .. إني اريد كل ما تريدينه .. ماري اصغي إلي .. ماري إني أرضى ان تكوني امرأته .

غير أن ماري لم تجبه ولبثت مغمضة العينين فاشتد رعب جاك وقبض على

يديها فوجدها باردتين فصاح صيحة قنوط وقال :

ويلاه إنها ميتة .. رباه إني قتلتها .

ثم وثب الى الجرس فجعل يدقه بعنف حتى كاد يكسره فأسرعت اليـــه خادمة ماري ودنت من سيدتها تفحصها .

وعند ذلك تحركت ماري حركة خفيفة فبرقت اسرة أبيهـــا وقال : إنها كانت مغمياً عليها .. لقد عادت الى رشدها.

ثم حملها بين ذراعيه ووضعها على سريرها وقد رأى نقطـــة دم بين شفتيها فجعل يبكي بكاء الأطفال .

أما ماري فانها فتحت عينيها وأجالت في تلك الغرفة نظراً حائراً ثم نظرت الى أبيها وقالت بلهجة السائل :

لوسيان .. لوسيان .

فأجابها أبوها : نعم يا ابنتي وستعيشين لتحبيه .

وكأنما هذا الكلام قد كهرب الفتاة فعانقت أباها وهمست في أذنه قائلة : أترضى بزواجنا ؟

— نعم ارضى .

— أحق ما تقول ؟

— إني اقسم لك .

— إذن أنا سعيدة وستعود إلي قواي مع العافية فاني لا اريد ان أموت .

* * *

وبعد أن اطمأن جاك على بنته غادرها في سريرها وبرح غرفتها وهو يقول في نفسه :

ليكن ما يكون فان هذا الزواج لا بد منه فان عليه تتوقف حياة بنتي وأنا اضحي نفسي من أجلها .

وفوق ذلك فان هذا الزواج الذي اخافه قد يكون خير واق لي من انتقام لوسيان .. إذا قدر له ان يعرف حقيقة امري فانه لا يقبل افتضاح عمه وامرأته نعم إن ماري ستكون الملاك الذي يحرسني .

وعند ذلك ذهب الى لوسيان وسأله ان يأتي معه الى غرفته .

وكان مضطرباً لا يعرف ما يقول وكيف يبدأ الى ان ذكر ما حدثه به عمه جمس مورتيمر في الباخرة حين كان مسافراً الى اميركا فهان عليه الأمر وعزم على أن ينهج منهاجه فالتفت الى لوسيان وقال له :

لقد سألتك يا لوسيان ان تأتي معي لأني احب ان اكلمك بشأن خطير فهل أنت راض عن منصبك عندي ؟

قال : كيف لا أرضى يا سيدي فاني اكسب بفضلك ما يزيد زيادة عظيمة عن حاجتي حتى اني استطيع اقتصاد ثلثي راتبي بحيث سأغدو غنياً بعد بضعة اعوام .

— وهذه الثروة ستفيدك في تحقيق امانيك التي اعرفها .

فنظر لوسيان اليه نظرة اندهاش ومضى جاك في حديثه فقال :

إني أراك قد اندهلت لما قلته لك ولكن اندهالك يزول حين تعلم أني اجتمعت بجورج داريه وعلمت منه انك تريد إنشاء معمل في أرضك في فورتفيل إحياء لذكرى أبيك .

— هو ذاك يا سيد فان هذا كل ما اطمع فيه .

— وإني معجب بك اشد الإعجاب ومستحسن لخطتك ودليل ذلك اني سأعينك على الاسراع بتحقيق هذه الأمنية .

— أنت يا سيدي وكيف ذلك ؟

ذلك يكون بأبسط الطرق فأنت ترى ان المعمل الذي تشتغل فيه قد ضاق عن اشغالنا الكثيرة وقد حان الزمن لاشتراء أرض صالحة لبناء معمل جديد .

— لقد أصبت يا سيدي إذ لا بد من إنشاء هذا المعمل فهل وجدت تلك الأرض؟

— نعم وهي أرضك .

— ولكنك تعلم يقيناً أني لا اريد بيعها .

— وأنا لا اقترح عليك شراءها منك .

فزاد اندهال لوسيان وعاد جاك الى حديثه فقال :

لقد تمعنت كثيراً في أمري وأنا كما تعلم من أهل التفكير فوجدت اني بحاجة

الى رجل حاذق مجرب يكون شريكي في أعمالي وهذا الشريك هو أنت .
– أنا .. أنا شريكك .. ولكن ارضي يا سيدي لا تساوي قيمتها جزءاً من ألف من قيمة معملك الذي تريد ان تشركني فيه .
– إني أعرف ذلك حق العرفان فاسمع يا لوسيان ما اقترحه عليك .
– إني سأنشيء في أرضك معملاً أعظم من معملي هذا وأجعلك مالكاً لهذا المعمل بصك قانوني بحيث تصبح قيمة معملك موازنة لقيمة معملي وبذلك تتم الشركة فيشتغل المعملان وفي آخر كل عام نقتسم الأرباح مناصفة فما تقول بهذا الاقتراح البسيط ؟
– أقول يا سيدي إني أسمعك وأحسب نفسي حالماً .
– كلا فاني لا أقول لك غير الحقيقة .
– إذن إني لا اجسر على قبول اقتراحك فاني لم اعمل بعد عملاً استحق به مثل هذه المكافأة .
– أتعلم كيف توصلت الى الثروة يا مسيو لابرو أتعلم كيف توصلت الى مشاركة جمس مورتيمر في حين اني لم اكن غير عامل بسيط ؟
– بالعمل والجد .
– ذلك لا ريب فيه ولكنني لم افز بالعمل على الطريقة التي تعرفها بل ان جمس مورتيمر حين رأى اني من أهل الجد والإقدام ازوجني بنته وأشركني بأعماله.
فارتعش لوسيان ولم يجب .
فقال له جاك :
لماذا لا أنهج منهج جمس مورتيمر فاني اراه لباب الصواب بل لماذا لا أقتدي بكرمه فان نصف ثروتي التي سأشركك فيها سيكون مهر ابنتي ؟
أتكون الآنسة ماري امرأتي ؟
فابتسم جاك وقال :
دون شك وأي مانع يحول دون هذا الزواج فإن ابنتي قد اختارتك زوجاً لها وباحت لي بسرها فلم يسعني إلا الموافقة على رأيها لأني أجدك أهلاً لها ويسرني أن ادعوك صهري لأني احبك .

فقال له لوسيان :

يسرني جداً يا سيدي ان أرى منك هذا العطف كما يسوئني ان أرفض هذا الاقتراح .

فعجب جاكِ لرفضه وقال له :

لماذا ؟

– لأني حريص على شرفي .

– يظهر أنك لم تفهم كلامي فقد قلت لك أن ماري تحبك وقد اختارتك وفضلتك على سواك .

– إنك تنهج معي يا سيدي منهجاً من الحرية لا يسعني معه إلا الشكر والامتنان غير أن قلبي مقيد .

ألعلك تحب ؟

– نعم احب فتاة أقسمت لها أن اتزوجها ولست من أهل الحنث .

– لا شك أن هذه الفتاة التي احببتها لا ثروة لها .

– هو ذاك يا سيدي فإنها فقيرة معدمة .

– ولكن يجب ان تعلم يا بني أن الحب يزول والمال يبقى .

– ما خلا محبتي فهي خالدة في قلبي .

– تمعن يا بني فان ماري تحبك .

– ألم تقل لي يا سيدي أن الحب يزول ؟

– ولكن تلك المنكودة تحبك حباً لا يحيط به وصف وهي ستموت دون شك متى عرفت رفضك .

– لا أخال ذلك يا سيدي وفي كل حال ارجوك أن لا تلح علي .

– لا الح ولكني اقول لك ايضاً أن مستقبلك منوط بهذا الزواج فتمعن .

فانحنى لوسيان وانصرف وبقي جـاك في غرفته فجعل يسير ذهاباً وإياباً ويناجي نفسه فيقول :

إنه يحب غير ابنتي .. إنه يحب فتاة فقيرة .

إنه يأبى ان يتزوج ماري اي أنه سيكون السبب في موتها ..

كلا إن ذلك لا يكون فان ابنتي قبل كل شيء في الوجود وليمت العالم كله بشرط أن تحبي .

- ٢١ -

كانت ماري تنتظر عودة أبيها بملء الجزع وكانت قد استراحت بالرقـــاد بضع ساعات فعادت اليها قوتها .

وبعد الظهر ذهبت الى الخياطة فوجدت عندها لوسي فسرت لمرآها وقالت لها: إني إذا كنت قد سررت بلقائك .فلا بد لي من تأنيبك .

قالت : لماذا يا سيدتي التأنيب ؟

ـ لأنك لم تزوريني بعد أن قست لي الثوب الأخير .

ـ ذلك لأنه لم يبق لديك ما اقيسه فما جسرت على إزعاجك بزيارتي .

ـ لقد أخطأت يا لوسي فإنك تعلمين أني اسر برؤياك وكان يجب ان تحضري ومع ذلك فسأوصي على جملة أثواب كي لا تقطعي زيارتي .

ـ إني اكون سعيدة بذلك يا سيدتي .

ـ لقد خطر لي خاطر يالوسي أتعلمين ماهو؟ .

ـ ما هو ؟

ـ هو اني احب أن ازورك .

فابتسمت لوسي وقالت : إنك لا تجدين غير غرفة بسيطة في الدور السادس ولكني استقبلك فيها بقلب ملؤه الإخلاص والامتنان .

ـ لا ريب عندي بإخلاصك فاكتبي لي عنوانك .

فكتبت لوسي لها عنوان غرفتها فأخذته ماري وأوصت على كثير من الثياب كي تقتل الوقت وعادت الى منزل أبيها في الساعة الخامسة بعد الظهر وأقامت في غرفتها تنتظر أباها .

وما زالت تنتظره على أحر من الجمر حتى عاد من معمله وذهب تواً اليها فعانقها وقال لها :

أرى يا ابنتي أنك في خير .

قالت : نعم يا إبي فقد نمت بعد ذهابك فأفادني الرقـــاد ولكن أنت ماذا فعلت يا أبي وبماذا عدت إلي ؟

قال : لقد عدت اليك بالرجاء يا ابنتي .

– ألعلك قلت للوسيان بأني احبه ؟

– كيف اقول له هذا القول ألعلك نسيت الواجبات ؟

– كلا يا أبي فإنها بادرة بدرت مني وإنما أردت أن اعني بأنك تستطيـع إخبار لوسيان بأنك لا ترده خائباً إذا خطبني اليك .

– لقد لمحت له تلميحاً عن ذلك فأخبرته بما علمته من عزمه على إنشاء معمل في ارضه إحياء لذكر أبيه واني سأبني له هذا المعمل في تلك الأرض فيكون مهراً لابنتي ولا يمكن التصريح بأكثر من هذا القول .

– ماذا أجاب ؟

– إنه رقيق الشعور كثير الشهامة فلم يصدق ما قلته له لما بيننا من التبـاين في الثروة .

– وبعد ذلك أرضي باقتراحك ؟

– نعم لقد رضي ولكنه شرط شرطاً .

– ما هو ؟

– هو انه أبى لرقة شعوره أن يكون لي فضل عليه وهو آخذ الآن باختراع آلة ستعود عليه بالمال الجزيل .

ولذلك يريد أن يصبر الى أن يفوز الفوز النهائي فيكون زواجه بك زواج الأكفاء للأكفاء .

– إنه قصد شريف لا يصدر إلا من أمثاله ولكن بقي شيء لم تذكره لي عنه وهو هل يحبني كما احبه ؟

– ومن يراك ولا يحبك يا ابنتي ؟

– إنك لم تجبني جواباً صريحاً فهل يحبني ؟

– لم يعترف لي صريحاً بذلك ولكنني كنت اقرأ سور الحب بين عينيه .

– أأنت واثق مما تقول ؟

ـ كل الثقة فإن غرام المحبين لا يخفى وما زال قد رضي بهذا الزواج على ما نعلمه من مبادئه فهو يحبك دون شك .

ـ وأنا اثق نفس ثقتك ولكن قل لي هل يطول زمن الإنتظار ؟

ـ لا أعلم فان إتمام اختراعه قد يطول الى بضعة أشهر .

ـ سأصبر ولكن أيعاملني لوسيان معاملة الخطيب ؟

ـ إنك تعرفين أنه كثير الخجل .

ـ إن الخجل لا يحول دون الحب والجهر به ولكنني سأراه أكثر الأحيان وأنت ستعامله معاملة الخطيب لا مستخدم أليس كذلك ؟

ـ هذا لا ريب فيه وسيزورنا لوسيان أكثر الأحيان .

ـ أيقول لي ما قلته لي الآن ؟

ـ دون شك .

فأشرق وجه ماري بنور البشر وقالت : إذن سأصبر قدر ما يلزم ولكنني ارجوك يا أبي ان تسرع بإشهار الخطوبة جهد إمكانك .

ـ سأفعل يا ابنتي فلا يسرني في هذا الوجود إلا ما يسرك .

وقد لبثا معاً الى ما بعد العشاء فكانت ماري مشرقة الوجـــه باسمة الثغر وكان أبوها يقول :

لا يحييها غير هذا الزواج فلا بد من عقده .

وفي اليوم التالي ذهب جاك الى المعمل ودخل الى حيث كان لوسيان فحياه أحسن تحية في حين أن لوسيان كان يتوقع منه الجفاء بعد حديث الأمس .

غير أنه كان على عكس ما توقعه منه وقد جعل يجامله ويحادثه بالأشغال الى أن قال له :

لقد ورد الينا طلب من بلغراد لإنشاء آلات كثيرة ومثل هذا الطلب العظيم يقتضي له سفر واحد منا الى بلغراد لرسم الرسوم والاتفاق على الثمن والمدة فهل تنوب عني في هذه الرحلة ؟

ـ دون شك اذا رأيت ذلك واجباً .

ـ هذا ما أراه وفوق ذلك فانك بوجودك هناك قد تتفق مع محلات كثيرة

أليس ذلك من رأيك ؟
ـ إن رأيي لا يختلف عن رأيك فمتى تريد أن اسافر ؟
ـ غداً وسأخبرك بعد الظهر بتعليماتي .
ـ إنك تجدني مستعداً يا سيدي .
ـ ومما لا ريب فيه أنه سيكون لك مكافأة قدرها خمسة آلاف فرنك عدا راتبك .
ـ ذلك كثير يا سيدي .
ـ هذا الذي اريده وأريد ان تكتب لي في كل يوم .
ـ سأفعل .
ـ إذن تأهب للرحيل وسأراك بعد الظهر .
ثم افترق عنه وذهب الى غرفته فلما خلا بنفسه قال :
لقد بلغت مأربي بسهولة فان غياب لوسيان سيطول خمسة عشر يوماً وبوسعي إطالة هذه المدة ايضاً بحيث أستطيع مدة غيابه أن ابحث عن تلك الفتاة التي فتنته ومتى عرفتها فالويل لها لأني سأسحقها سحق الزجاج .
كيف ذلك أأقتل ايضاً كما قتلت منذ واحد وعشرين عاماً ؟
نعم إني اقتل كل أهل الأرض لصيانة حياة ابنتي دون ان اتردد ...
وفوق ذلك فإن يدي لا تنغمس بالجريمـــة لأني غني ولا اسهل علي من إغراء أحد الأشرار على قتلها .
وقد أطرق هنيهة مفكراً ثم قال :
كيف ذلك أيكون لي شريك بالجريمة فيتسلط علي تسلط اوفيد سوليفو ؟
ولم يكد يذكر اسم اوفيد حتى ارتعش وقال :
لماذا لا اشرك في هذه الجناية اوفيد فان اقصى مراده أن يخدمني ويكسب مالي وهو سيكون طوعاً لي دون شك فانه يقدم على كل منكر بالمال .
ولكن يجب قبل كل شيء أن أعرف هذه الفتاة التي اقسم لهـــا لوسيان يمين الوفاء فإن هذا الأبله حين يفقد تلك الفتاة يكون سعيداً بقبول ابنتي وملايينها .
والآن يجب أن استوثق من إمكان اعتمادي على اوفيد وسأراه في هذا المساء .

* * *

وفي الليلة نفسها ذهب الى اوفيد فلقيه في منزله الجديـــد وقد استقبله خير استقبال قائلاً : إني سعيد بلقائك فانك لو تأخرت هنيهة لما وجدتني .

قال : ألعلك مضطر الى مبارحة المنزل ؟

— كلا فإني كنت عازماً على الخروج للنزهة .

إذن إبق معي فإني آت لمحادثتك .

— إني رهين امرك فهل حدث ما يكدر فاني اراك مقطب الحاجبين ؟

— ادخل بي الى غرفتك فسأخبرك بكل امر .

فدخل به اوفيد الى غرفـــة ضيقة ولكنها مفروشة خير فرش وقال له وهو يضحك :

إني على أحسن حال بفضل ذلك الإيراد الذي تفضلت به علي فكيف رأيت هذا الأثاث ؟

— إني ما أتيت لأحادثك بأثاث منزلك بل أتيت لأمر خطـــير فاجلس نتحدث فجلس اوفيد بجانبه فقال له جاك :

أتذكر ما قلتـــه لي حين زرتني في معملي وهو أنك مستعد لخدمتي إذا احتجت اليك ؟

— بل إني اجدد كلامي الآن فإنك عاملتني خير معاملة لا يسعني بعدها إلا الاعتراف بجميلك وخدمتك في ما تريد .

— أتفعل كل ما أقوله لك .. تمعن قبل أن تجيبني وافطن للفظة « كل » .

— إني أفهمها دون شك فإنك تعني بها أنه يجب علي أن اطيعك ولو أمرتني بإحداث حريقة كما فعلت من قبل في فورتفيل أليس كذلك ؟

— بل إني سأسألك ما هو أعظم من ذلك.

فذهل اوفيد وقال: إذا لم يكن غرضك إضرام النار فإنك تريد إراقة الدماء.

— وإذا كان ذلك فماذا تقول ؟

— أقول إني لم أتعود القتل فإني رجل سلمي لا احب سفك الدماء .

— ولكن ذلك موقوف عليه حياتي وإذا قضي علي فكيف تعيش بعدي ؟

فوجف قلب اوفيد لخوفه من خسارة راتبه وقال :

أحق أنك في خطر ؟

— نعم .

— إذن أفعل كل ما تريده دون استثناء فقل من الذي ينذرك فقد وجب علي الدفاع عنك ؟

— إني مخبرك بكل أمري فاعلم أنه حين وصلت الى باريس جمعني نكـــد الطالع بابن جيل لابرو .

— أهو لوسيان لابرو ؟ نعم إني أعرفه .

فذهل جاك وقال : كيف تعرفه ؟

قال : ذلك أني رأيته في غرفتك في المعمل وقد ذكر اسمه قبل دخوله وقد اعجبت بدهائك فإنك أقمته عندك كي تراقبـــه وتعلم افكاره فلا يفوتك شيء من مقاصده .

— بل إني لم أستخدمه إلا حين عرفت أفكاره .

— ما هي ؟

— هي أنه لا غرض له في حياته إلا الإنتقام لأبيه .

— ولكن الإنتقام قد حدث فان القضاة حكموا على حنة فورتيه .

— إنه لا يعتقد أنها القاتلة .

— ولماذا ؟

لأن قلبه يحدثه بأنها بريئة وهو يتهم جاك جيرود .

— إذا كان ذلك فقد بات وجود لوسيان عندك خطراً شديداً عليك .

— وسيشتد هذا الخطر إذا اتفق له أن يلتقي بحنة فورتيه ويعرفهـــا فانها تعرفني .

— ولكنها في السجن وستبقى فيه بقية العمر .

— بل إنها هربت منه .

— إذن يجب استدراك الخطر قبل استفحاله فهل اعتمدت على قتل لوسيان ؟

— كلا .

— أتريد قتل حنة ؟

— لا أعلم أين هي ؟

— ما هذه الألغاز فاني لا أفهم شيئاً منها ؟

ـ سأوضح لك ما أشكل عليك فاسمع إنك تعلم إني احب ابنتي حباً ليس بعده حب وإني أموت لموتها وهي مريضة كاتعلم.

ـ ولكن أي شأن لبنتك في كل ما تقدم ؟

ـ شأنها أنها تحب لوسيان لابرو .

ـ إذا كان ذلك فقد زال كل خطر عنك إذا أسرعت بتزويجها لوسيان فانه إذا لقي حنـة بعد ذلك وعرف حقيقة امرك اضطر الى كتمانه حرصاً على شرفه لاتصاله بك بصلة نسب .

ـ لقد خطر لي هذا الخاطر حين عرفت أن ابنتي تحبه ولكن زواجها محال .

ـ كيف ذلك ألعل لوسيان متزوج ؟

ـ كلا ولكنه يحب فتاة يريد أن يتزوجها .

ـ أهي غنية ؟

ـ بل هي لا تملك درهماً .

قال : كيف يمكن ذلك أن يكون أتبلغ منه البلاهة لهذا الحد ؟

ـ هذا الذي حدث فانه أبى الزواج بمازي .

ـ لقد بدأت أن افهم قصدك فانك تريد قتل تلك الفتاة التي يحبها .

ـ هو ذاك .

ـ ومتى زال هذا الحائل لا يرفض بنتك وملايينها .

ـ هذا الذي اعتمد عليه في إنقاذ بنتي .

ـ وأنا أتعهد بإنهاء هذه المشكلة على ما تحب وأرجو ان لا يمضي زمن قليل حتى تصبح بنتك امرأة لوسيان والآن قل لي ماذا تدعى تلك الفتاة التي يحبها ؟

ـ لا أعلم اسمها ولا أعرف شيئاً عنها وهذا هو بدء الصعوبة ولكني مهدت السبيل للبحث عنها بارسال لوسيان الى بلغراد كي يخلو لي الجو في البحث ..

ـ حسناً فعلت ألعله سافر ؟

ـ كلا فان اليوم يوم السبت وهو سيسافر يوم الاثنين .

ـ كفى فقد فهمت البقية فإنه سيقضي يوم غد عند خطيبته لوداعها بحيث نستطيع مراقبته حين خروجه من منزله اليها .

ـ ألعلك محتاج الى النقود ؟

فضحك اوفيد وقال :

يعجبني منك أنك رجل مجرب أما الآن فلا حاجة لي بمالك وسنعقد الاتفاق متى عرفت الصبية فقل لي أين يقيم لوسيان ؟

– في شارع ميرموفسيل نمرة ٨٧ .

قال : حسناً فهلم بنا الآن الى العشاء وكن مطمئناً فان النجاح مضمون .

وبعد ساعة افترقا فعاد جاك الى منزله وهو يقول :

لا شك أن النجاح مضمون ما زال لي مثل هذا الشريك .

وخرج اوفيد من منزله وهو يقول :

لا بد لي من الاحتفاظ بإرادي أما هذه الجريمة فسأربح منها فوق ما يظن فإنه قريبي وماله لا يحيط به قلم حاسب .

* * *

أما ماري فإنها حين وعدها أبوها بتزويجهـا بلوسيان كادت تطير سروراً بهذا النبأ .

فلم يمض يوم واحد حتى زال ذلك الإصفرار من وجهها وقد انتعشت بالرجاء .

وكان أبوها يتجنب لقاءها جهد إمكانه لأنه يعلم أنها ستحادثه بشأن لوسيان فلا يعلم بماذا يجيبها .

ففي صباح يوم الأحد دخل الى مكتبته وجعل يشتغل فلم يستقر به المكان حتى فتح الباب ودخلت ماري .

فقطب جاك جبينه ورأت ماري تقطيبه فقالت له :

ألعلي أزعجتك يا أبي بدخولي اليك ؟

– قليلاً يا ابنتي فإن لدي أشغالاً كثيرة ولكن ما زلت قـد اتيت فهلمي وعانقيني .

فأسرعت الى أبيها فعانقته وقالت له : الى أين تذهب اليوم يا أبي ؟

– إن أشغالي كثيرة اليوم حتى اني أضطر الى التغيب ايضاً في المساء .

– ولكنك تتغدى وتتعشى معي .

– إني أتغدى دون شك واياك ولا أدري إذا كنت أتعشى .

– إذن لقد خاب رجائي .

قال : أي رجاء هذا ؟

قالت : كنت أرجو أن تدعو لوسيان الى العشاء .

قال : ولكنك ترين أن ذلك محال .
– ادعه الى الغداء على الأقل .
– لا أستطيع ايضاً فان لوسيان مضطر الى التأهب للسفر .
فارتعشت ماري وظهر على وجهها علائم الاصفرار فقالت بصوت مختنق : ألعل لوسيان مسافر ولماذا ؟
– إنه مسافر الى بلغراد لمراقبة تركيب الآلات .
– كم يطول غيابه ؟
– ثلاثة أسابيع وهذه الثقة التي اظهرها له مقدمة لاشتراكي القريب معه .
فارتاحت الفتاة الى هذا النبأ واطمأنت فقالت: إذن سأبقى كل هذا اليوم وحدي؟
– أنت تعلمين أن ذلك يؤثر بي فوق تأثيره بك ولكن تلك الأشغال تقضي علي بذلك، لاسيا وأن سفر لوسيان سيزيد أشغالي على أني سأدعوه حين عودته .
وعند ذلك انصرفت ماري تاركة أباها وحده وهي مطمئنة لما صرح به من اشتراكه مع لوسيان غير أنها كانت مستاءة لسفر لوسيان ولكن ذلك لم يؤثر عليها لحسن ثقة أبيها به فذهبت تواً الى غرفتها فتأنقت في ملابسها وخرجت أيضاً .
فلما رآها اعجب بها إعجاباً شديداً وقال لها : الى أين تذهبين يا ابنتي ؟
قالت: إني سأذهب لزيارة صديقاتي فاذا لم أجدهن ذهبت فتنزهت في الغابات.
ولنعد الآن الى اوفيد سوليفو فانه وعد جاك بمراقبة لوسيان بعد أن عرف عنوان منزله .
ففي صباح يوم الأحد ذهب الى منزل لوسيان فوقف بجواره فصبر الى أن خرج لوسيان وهو واثق أنه ذاهب الى تلك الفتاة التي يحبها فما زال في اثره حتى دخل لوسيان الى منزل خطيبته لوسي .
أما لوسيان فانه حين صعد وجد لوسي تنتظره عند باب غرفتها فقبل جبينها ودخل وإياها الى غرفتها .
وكان أول ما قالته أنها اعترضته وأنبته لتأخره .
فأجابها قائلاً : لم يكن ذلك ذنبي فقد كان يستحيل علي الحضور قبل الآن .
– لماذا أليس اليوم يوم الأحد ؟
– هو ذاك ولكني نهضت اليوم قبل الفجر من رقادي وما زلت اشتغل

حتى اتيت .

– كيف ذلك ولماذا ؟

فأخبرها لوسيان بالموانع التي حالت دون اسراعه فعذرته وقالت له :

إذن هلم بنا الى الطعام فقد كاد يقتلني الجوع .

– ألا تتغدى الأرملة ليزا وإيانا ؟

– كلا فانها لا تجد ساعة فراغ في النهار بحيث لا أراها قبل الليــل إلا في القليل النادر .

– إنك تحبين هذه المرأة حباً أكيداً كما ارى وقد اصبت فاني ايضاً احبهــا لاعتقادي أنها تستحق هذا الحب .

– هو ذاك وسنفي بما وعدناها به حين زواجنا فتعيش وإيانا .

وعند ذلك حاول أن يعانقها فدفعته برفق وهي تقول : إننا لم نتزوج بعد يا لوسيان فاقتصد هذه القبلات فستجدها بعد الزواج ثم غيرت الحديث فجأة فقالت : ألا تزال راضياً عن أعمالك عند المسيو هرمان ؟

فقطب لوسيان حاجبيه وقال :

نعم فان المسيو هرمان وثق بي ثقة لا حد لها وإني مضطر بهذه المناسبة أن اخبرك بما يسؤك ويسؤني وهو أني سأغيب عنك مدة اسبوعين .

اسبوعين ولماذا ؟

– لأن المسيو هرمان يريد إرسالي الى بلغراد بأشغال معمله وسأغيب خمسة عشر يوماً .

– أليس ذلك مفيداً لك ؟

– كل الفائدة .

– إذن لا بأس منه ولكنك ستكتب لي كل يوم .

– هذا لا ريب فيه وستمر هذه الأسابيع الثلاثة مزور الساعة وعندما أعود ينسينا فرح اللقاء مرارة الفراق. وهنا أقول لك اني سأقبض مبلغاً عظيماً مقابل هذه الرحلة وأرجو أن اتمكن قريباً من الاستقلال .

– ولماذا تبغي الاستقلال ما زلت مرتاحاً في خدمة هرمان ؟

– هو ذاك غير أني اصبحت مستاء لأمور سأخبرك عنها في فرصة اخرى .

ـ وماذا يمنعك عن إخباري بها الآن ؟

ـ قلت لك سأخبرك بها في فرصة اخرى فلنتحدث الآن بغير هذا الأمر وكنت أود في مدة سفري أن تلازمك الأرملة لبن فأكون مطمئناً عليك .

ـ إنها لا تستطيع ذلك الآن لأنها مضطرة الى ملازمة صاحبة المخبز لمرضها. ولكنها دخلت في دور النقاهة فتى شفيت تماماً تركتها وعادت الى زيارتي حسب العادة .

* * *

بينما كانت لوسي جالسة مع خطيبها يتحدثان صعدت بوابة المنزل ونادت لوسي فقالت لها يوجد سيدة من النبيلات تنتظرك في مركبتها عند الباب الخارجي .

فاستأذنت لوسي حبيبها ونزلت كي ترى من هذه القـــادمة فلما وصلت الى الباب دهشت إذ رأت تلك الزائرة كانت ماري ابنة بول هرمان .

فحيتها أحسن تحية وردت ماري تحيتها بأحسن منها ثم قالت لها: لقد خطرت لي النزهة في غابات بولونيا يا لوسي فأحببت أن تصحبيني اليها فهل تريدين ؟

قالت : حبذا ذاك يا سيدتي فلا احب الي من إرضائك ولكني لا استطيع فانه عندي ضيف .

فدهشت ماري وقالت : من هو ؟

قالت : ذلك سر إذا أحببت أن تكشفيه فتفضلي بالصعود معي الى غرفتي فاني احب أن ادهشك .

فدفع الفضول ماري الى معرفة هذا الرجل المقيم عند لوسي وهي لا تعلم أنها مخطوبة وتعتقد أنها مثال الفضيلة .

ثم صعدت وإياها ذلك الدرج الطويل الى ان وصلتا الى الغرفـــة وفتحت لوسي الباب .

وكان لوسيان قد أطل من النافذة بعد أن خرجت لوسي من الغرفة ورأى مركبة ماري واقفة قرب الباب فدهش وقال في نفسه :

ما هذا الشبه الغريب فان هذه المركبة والجياد تشبه مركبات بول هرمان فكيف اتفق وجودها هنا ؟

وعند ذلك فتح باب الغرفة فالتفت فرأى ماري تلهث من التعب وهي تبتسم .

ولكن النظرتان لم تكدا تلتقيان حتى صاح الإثنان صيحة دهش ووهنت عزيمة ماري ووضعت يدها على قلبها .

فقالت لها لوسي وهي لم تنتبه لاضطرابها : أتعرفين من هو يا سيدتي ؟

أما ماري فانها لم تسمع ما قالته فملكت نفسها وقالت تخاطب لوسيان : إني لم أكن أتوقع ان أراك هنا فهل تريد أن تقول لي كيف اتفق وجودك عند هذه الآنسة ؟

فحاول لوسيان أن يجيب ولكن لوسي سبقته الى الكلام فقالت :

ليس وجوده عندي من قبيل الاتفاق يا سيدتي فانه يزورني كل يوم احد .

قالت : ألعلك تعرفين المسيو لوسيان منذ عهد طويل ؟

فأجابها لوسيان قائلاً : إن معرفتنا تتصل منذ عامين فاني قبل أن اقيم في شارع مير مونسيل كنت مقيم في هذا المنزل .

وقالت لوسي : لقد كان بابه قرب بابي فتعارفنا وتحادثنا وبتنا صديقين .

فثارت عاطفة الكبرياء في صدر ماري حين رأت أن مزاحمتها في حب لوسيان فتاة فقيرة مثل لوسي وقالت بلهجة جفاء : إذن أنتما صديقان ؟

فقالت لوسي : بل إننا متحابان حباً شريفاً فاني كنت أعنيه حين كنت اخبرك بأني مقيدة القلب وهو خطيبي وسيعقد زواجنا قريباً بفضل أبيك ومروءته إذ لم يكن يحول دون زواجنا غير إيجاد منصب لخطيبي .

وكان لوسيان مقدراً ما تحمله تلك المنكودة من العذاب بعد أن اخبره أبوها أنها تحبه ولكنه ما عساه يصنع فانه يحب لوسي لا ماري .

أما لوسي فانها دهشت حين رأت اضطراب ماري فقالت لها : ماذا أصابك يا سيدتي وما هذا الاضطراب الذي تولاك بل ما هذا الاصفرار الذي امتقع به وجهك ألعلك تعبت من الصعود .. تفضلي يا سيدتي واستريحي بالجلوس .

فبذلت ماري جهداً عنيفاً كي تملك نفسها ثم ابتسمت وقالت : كلا إني غير مضطربة ، وقد ارتحت من الصعود وأنا ذاهبة وحدي مازلت غير قادرة على الذهاب معي .

ثم التفتت الى لوسيان وقالت له : إن الآنسة لوسي قالت لي اني سأندهش حين صعودي الى غرفتها وقد صدقت فان دهشتي كانت عظيمة غير أن أبي سيكون اندهاشه أعظم حين يعلم ما علمت .

وعند ذلك مشت الى الباب ولوسيان ولوسي في أثرها ولوسي منذهلة لما رأته من تغيرها الفجائي فلما وصلت الى الباب التفتت الى لوسيان وقالت له :

إذن ستتزوج قريباً ؟

قال : لقد قلت يا سيدتي لأبيك ما أستطيع وما يجب أن أقوله .

– أذكرت مشروعك لأبي ومتى كان ذلك ؟

– قبل أمس .

– حسناً فاني أرجو لكما كل سعادة وهناء والآن استودعكما الله .

فقالت لها لوسي : أراكِ تعبة يا سيدتي فهل تريدين أن اوصلك الى مركبتك؟

قالت : كلا فابقي مع المسيو لوسيان فانه مسافر غداً من باريس ولا يجب أن تفارقيه .. الى اللقاء يا لوسي وأنت يا مسيو لوسيان إني أتمنى لك سفراً سعيداً .

ثم برحت تلك الغرفة مسرعة وقد غادرت لوسي منذهلة لا تدرك شيئاً من سر اضطرابها .

وأما لوسيان فانه كان منقبض الصدر لإشفاقه على تلك الفتاة .

فقالت له لوسي: ماذا جرى ولماذا اضطربت إبنة هرمان هذا الاضطراب حين رأتنا معاً ولماذا كلمتني بقسوة وجفاء بعد ان كانت تعطف علي عطف الأخوات؟

فكره لوسيان أن يشغل بال خطيبته وقال لها: إني لم أفهم شيئاً من هذا السر ولكن هذه الفتاة المنكودة مريضة كما تعلمين فلا بد ان تكون تعبت من صعود السلم فأصيبت بأزمة فجائية دعتها الى هذا التغير .

فأطرقت لوسي برأسها وقالت : ولكن هذا النهج منكر .

– هو ذاك أيتها الحبيبة غير انها قد تكون معذورة فيه لسبب علتها وفوق ذلك فأي شأن لنا معها فهلمي نتنزه إذا كنت تريدين .

– إني اريد دون شك بشرط أن نعود حين عودة الأرملة ليزا أي في الساعة السادسة .

– ليكن ما تريدين فهلمي بنا .

– تم الجزء الأول من رواية –

(بائعة الخبز)

– ويليه الجزء الثاني وفيه تتمة الرواية –

بائعة الخبز

فلما سمع جاك هذه الكلمات اصفر وجهه ولكنه تشاغل بالنظر الى ما كان يكتبه جورج اخفاء لاضطرابه • وفي الساعة الحادية عشرة انصرفوا عائدين الى منازلهم فدنت ماري من لوسيان قبلذهابه وقالت له همسا : أأنتظرك غدا الى الغداء ؟ قال: نعم يا سيدتي • ثم أخذ يدها ولثمها فشعرت ماري أن قلبها قد وثب من صدرها وتورد خداها وبرقت عيناها ••

من الكتاب